ميشال زيفاكو

المغامرة الكبرى



دار الروائع

سبق للكاتب الشهير طانيوس عبده أن عرّب هذه الرّواية ولكن في اختصار كثير ، فرأت دار الرّوائع التي تنشر هذه المجموعة الكاملة لروايات ميشال زيفاكو أن تعيد ترجمة هذه الرّواية الرائعة بنصّها الكامل كما وضعها المؤلف ، فدفعت بالأصل الفرنسي إلى أحد كبار الكتّاب فترجمها كاملة .

إذن فهذه هي **المرة الأولى** التي يصدر فيها بالعربيّة **النصّ الكامل** لرواية :

المغامرة الكبرى

فاقرأ هذه الرّواية المدهشة وأضفها إلى ما لديك من روايات زيفاكو التي أخرجتها لك **" دار الرّوائع "** كاملة **لأول مرة بالعربيّة** في أبهى حلّة وأصدق ترجمة وأجمل إخراج .

وانتظر ما سوف يصدر قريباً عن الدار نفسها من تتمة روايات **زيفاكو** في :

المجموعة الكاملة

ليل ١٠ أيار عام ١٥٦٥

*

لا بد لعشاق روايات ميشال زيفاكو ، التي انفردت « دار الروائع » بترجمتها ونشرها بمجوعة كاملة ، وبالنص الكامل ، من أن يراعوا التسلسل التاريخي في حوادث هذه الروايات الشيقة ، والظروف الزمانية لابطالها الذين يبرز عدد كبير منهم في روايات عدة ، وذلك لامتلاء تلك العصور بغرائب الاحداث وعجائب الاخبار مما يجعل البطل الواحد يعيش سلسلة من المغامرات المدهشة تبدأ منذ ولادته ولا تنتهي الا بانتهاء حياته ، وقد تستمر باستمرار أبنائه .

وعلى هذا فمن المستحسن ، قبل الشروع في قراءة هذه الرواية ، الاطلاع على روايتي « باردليان » و« حب وحرب » الصادرتين عن « دار الروائع » بالنص الكامل ، فذلك أنفع وأمتع ، وأدعى الى معرفة العصور المتوسطة بكافة أحوالها ومدهشاتها معرفة تقوم على متابعة الامور وفق سير التاريخ عصراً فعصراً .

*

كان منزل الأستاذ لوران ديزارشيل جميل المنظر رائع الهندسة يُعَدّ بحق أفخم وأغنى بيوت منطقة إيل أدام حيث كان آل ديزارشيل يتوارثون ، ولداً عن والد ، وظيفة الكاتب العدل الشريفة الخفيفة .

وكان الأستاذ لوران ديزارشيل كهلاً قويّ البنية في الخمسين

من عمره ، أرمل لا أولاد له ، وقوراً رصين الطباع على ما يليق برجل قانونيّ يعرف قيمة نفسه وينسجم مع زيّ الوظيفة الرسميّ الذي يرتديه ، وكان يعيش في منزله محاطاً باحترام الخاصّ والعامّ .

وكان يصرف نهاره في الإشراف على مساعديه وهم يحرّرون مختلف المعاملات القانونيّة من عقود ووكالات ووصيّات تشمل مقاطعة إيل دي فرانس كلّها إذ أنّ جميع النبلاء والأغنياء والعامّة في تلك المقاطعة كانوا يقدّرون خبرة الأستاذ القانونيّة وسعة اطّلاعه المهنيّ ونبل طباعه وأخلاقه تقديراً بعيد المدى إلى حدّ أنّ الأمير دي مونتكابيه وهو أعظم سيّد في تلك المقاطعة يجري في عروقه الدم الملكي ويناديه صاحب الجلالة شارل التاسع ملك فرنسا بابن عمّه ، كان يشرّفه بصداقة قديمة وثيقة ويمتدح فضائله وخبرته في كلّ مناسبة ، كما أنّ السيّد آن دي مونمورانسي ، القائد الأعلى لجميع قوّات المملكة سابقاً وسيّد بارونيّة إيل أدام حالياً ، كان يظهر له ودّاً واحتراماً ليس من عادته أن يظهرهما لأحد من الناس .

وفي المساء كان مساعدو الأستاذ ينصرفون إلى منازلهم ويلبث هذا مع خادمته الوحيدة وموظّف شاب كان يقيم عنده إقامة دائمة ويوليه الكاتب العدل ثقته المطلقة فضلاً عن أنّه يحبّه ويعامله كما لو كان ابنه .

وفي مساء ذلك اليوم ، العاشر من أيّار عام ١٥٦٥ ، أقفل الأستاذ ديزارشيل بنفسه ، على عادته دائماً ، جميع الأبواب الخارجيّة وتأكّد بنظرة أخيرة من أنّ كلّ شيء على ما يرام ،

ولاطف الكلبين الكبيرين اللذين كانا يقفزان حواليه كأنّهما يقولان له : «لا تخشَ شيئاً فنحن ساهران جيّداً» ثم دخل منزله وأقفل الباب بالعناية نفسها التي أقفل بها الأبواب الخارجيّة .

ولمّا وصل إلى قاعة منخفضة السقف مجهّزة بخزائن ورفوف تمتدّ على طول الجدران وقد رُصفت فيها الملفّات المختلفة وفق أرقام متسلسلة وصفّت في وسطها الطاولات والمقاعد ، وكانت القاعة التي يشتغل فيها المساعدون ، رأى رجلاً يجلس إلى إحدى الطاولات وهو يكتب على ضوء مصباح داخن فاقترب الأستاذ منه ولمس كتفه وقال له بتأنيب لطيف :

— لماذا تشتغل إلى هذا الوقت المتأخّر يا غاسبار ؟ إنّ يومك كان حافلاً بالعمل يا ولدي وقد قلت لك إنّني لا أريد أن تُجهد نفسك هكذا في خدمتي .

فرفع الرجل الذي نودي باسم غاسبار رأسه فإذا هو شابّ في حوالي الخامسة والعشرين من العمر جميل الوجه تلوح في عينيه دلائل ذكاء حادّ وأجاب قائلاً : لم أرد أن أذهب إلى النوم قبل إتمام نسخ هذه المعاملات وسأنتهي من ذلك في وقت قريب أيّها الأستاذ .

فانحنى الأستاذ على عادته ، وتفحّص ما يفعله الشابّ وكان هذا ينظر إليه وهو يبتسم ابتسامة غريبة مقلقة لم يرها سيّده الذي عاد فانتصب قائلاً : حسن ، ولكنّني أعرفك جيّداً يا بنيا كل ، فلا تبدأ بنسخة جديدة بعد أن تنتهي من هذه .

فضحك غاسبار بينا كل وقال ببساطة : إنّني لا أشتغل كثيراً

أيها الأستاذ ، لا سيّما وأنّها الطريقة الوحيدة التي أستطيع أن أعبّر بها عن امتناني وشكري لما تبديه نحوي من الكرم والمروءة.

وكانت ضحكة غاسبار غامضة بعض الشيء فضلاً عن أنّ اللهجة التي قال بها هذا القول كان يشوبها بعض السخرية ، ولكنّ الأستاذ الطيّب القلب لم يلاحظ شيئاً من ذلك بل قال بكلّ ما في نفسه الكريمة من الإخلاص :

– لست مديناً لي بشيء يا ولدي لأنّ الخبز الذي تأكله عندي تربحه بشرف وكفاءة وأنا المدين لك في الواقع . أمّا ما تقوله عن الكرم والمروءة فإنّك تبالغ فيه ، ولو قلت إنّها عواطف أبويّة لكان ذلك أفضل .

فقال بنيا كل : إنّها عواطف أبادلك إيّاها بكل قواي .

– نعم ، أنا أعلم أنّك تحبني كثيراً وأنّك مخلص لي كل الإخلاص ، وأنا أيضاً أحبك من كل قلبي أيها العزيز غاسبار .

وتحمّس الأستاذ قليلاً وتابع قائلاً : ولا يضيرك أبداً أن تفتخر بنفسك ويكون لك قليل من المطامع لأنك واسع الاطّلاع ذكي فضلاً عن كونك متحلياً بما يمكنك أن ...

فقاطعه بنيا كل وهو ينظر بسخرية إلى الثياب المتواضعة التي يرتديها ويقابل بينها وبين ثياب الأستاذ الفاخرة قائلاً : ولكنني قلت لك ليست لديّ مطامع .

فابتسم الأستاذ ابتسامة طيبة وقال : ومع ذلك فأنا لا أعلم ما الذي جعلني أتكلم عن المطامع في هذا المساء . فابق كما أنت إذن وهو خير لك لأن السعادة في البساطة . والآن سأتركك يا

ولدي لأذهب إلى الفراش .

– الآن ؟ إنه ليس وقت نومك على ما أعتقد !

– هذا صحيح ، ولكنني لا أعلم لماذا أشعر بثقل في رأسي وبحاجة كبيرة إلى النوم .

فعاد بنيا كل ينحني على أوراقه ويتابع عمله فلم يلاحظ الأستاذ، هذه المرة أيضاً ، الابتسامة الغريبة التي لاحت على شفتي الشاب فقال وهو يتوجه إلى الباب :

– ليلة سعيدة يا غاسبار .

فأجاب بنيا كل قائلاً : ليلة سعيدة يا أستاذ وأرجو أن تنام نوماً هنيئاً .

وعندما استدار الكاتب العدل ليغادر المكان ، رفع الشاب رأسه وتابعه بنظرة طويلة غريبة ، ولو أن الأستاذ رأى تلك النظرة المثبتة على ظهره لاعتراه قلق شديد لِما كانت تنطوي عليه من البغض والحقد ! ولكنه لم يلتفت إلى الوراء بل صعد إلى الطابق الأول ودخل غرفته وهو يغمغم قائلاً :

– يا لله من هذا النعاس الذي أصابني ... إنه لأمر غريب...

ثم خلع ثيابه بسرعة وارتمى في سريره حيث راح فوراً في سبات عميق .

وكان بنيا كل قد انهى عمله في ذلك الوقت ، ولكنه لبث مع ذلك جالساً إلى طاولته مصغياً بسمعه باهتمام بالغ. وكان ما يسمعه في تلك اللحظة هو صوت حركة الخادمة العجوز التي كانت تنهي عملها في المطبخ .

ولما سمعها أخيراً تغـادر المطبخ لتصعد إلى غرفتها نهض مسرعاً فحمل المصباح وغادر قاعة العمل وقد رأى الخادمة في الرواق وكانت تحمل بيدها شمعة وتتوجه نحو الدرج ويظهر أن هذا ما كان يريده دون شك ، فقال لها :

– إنها الساعة التاسعة والنصف وأنا ذاهب للنوم .

وبعد أن تبادلا تحية المساء ، صعدت الخادمة إلى غرفتها حيث أوت إلى فراشها ولم تلبث أن غرقت في النوم .

أما بنيا كل فإنه دخل غرفة صغيرة متصلة بقاعة العمل مجهّزة بجميع وسائل الراحة ، هي غرفة نومه ، فخلع ثيابه واندسّ في فراشه .

ولكنه لم ينم ، بل لبث وقتاً طويلا جامداً ممدّداً على ظهره وعيناه مثبتتان في سقف الغرفة . وكان يفكّر بأمور لا يعرفها أحد سواه والمفروض أنها أمور رهيبة هائلة لأن وجهه كان في تلك اللحظة متقلّص الملامح مخيفاً .

وحوالي الساعة الحادية عشرة قفز فجأة من سريره وهو يغمغم قائلا : لقد حان الوقت .

وبدأ يرتدي ثيابه في الظلام ، وفي قلب السكينة الشاملة ، بحركات سريعة دقيقة وكان يبدو أنه أعدّ خطته سلفاً بدليل أنه لم يتردد لحظة في كل ما كان يفعله .

ولما انتهى من ارتداء ثيابه أضاء مصباحاً غير الذي أحضره معه ، وهو مصباح ضئيل النور معلّق بمسمار ، كان يستعمله أحياناً لتفقد فناء المنزل والحديقة ليلاً .

وقد بدا وجهه على نور المصباح شاحباً قاسي الملامح كما بدت عيناه لامعتين مخيفتين . ولما وضع يده على مقبض الباب تردّد هنيهة في فتحه وكان يقول في نفسه :

– « وإذا كنت قد أخطأت في تعديل الجرعة المخدّرة واستيقظ على حركتي ... أأتركه يقبض عليّ بالجرم المشهود كأنني لص حقير ؟ »

ولكنه هزّ رأسه سلباً بحركة عنيفة وأتى بإشارة هائلة من يده يعلن بها عن فكرته ثم أدار المقبض بعزم ومن غير حذر ، وخرج إلى الرواق دون أن يحاول إخفاء وقع قدميه .

وتسلّق الدرج بخفة مدهشة كأنه شبح رهيب يسعى في الظلام . ووصل إلى غرفة الأستاذ فعاوده الجمود والتردّد وكان يحسّ أنه يختنق بينما أخذ العرق البارد يسيل على صدغيه وجبهته وقلبه يدقّ في صدره بعنف شديد حتى ليتعجّب كيف أن دقاته لم توقظ النائم . ولم يكن يرى الكاتب العدل لأن هذا كان قد أسدل حواليه ستائر السرير ، ولكنه كان يتخيّله نائماً كالقتيل من جرّاء المخدّر فلم يطل تردّده بل سلّط مصباحه رأساً على خزانة صغيرة موضوعة عند رأس السرير وتقدّم منها ففتحها ومدّ يده إلى داخلها يتحسس شيئاً يريده ، وبعد هنيهة أخرج مفتاحاً صغيراً وذهب إلى خزانة أخرى في زاوية الغرفة كان الأستاذ لوران ديزارشيل يضع فيها الأوراق ذات الأهمية القصوى والمال والأشياء الثمينة كالحلى وما إليها .

ففتح تلك الخزانة بهدوء وسلّط نور مصباحه على داخلها

فرأى ملفات متفاوتة الأحجام والأشكال وأوراقاً مستقلة وأكياساً مملوءة بالقطع الذهبية والفضية ، وكل ذلك كان مصفوفاً بعناية وترتيب بالغَين .

ولكنه لم يهتم بشيء مما رآه بل فتش بأنظاره في زاوية الخزانة حيث رأى ورقة كبيرة مطوية ومختومة بالشمع الأحمر يظهر عليها بجلاء شعار الأمير دي مونكابيه ، ويبدو أن الشاب الخائن لم يكن يريد سوى تلك الورقة ، فانقضّ عليها بسرعة البرق .

وفي تلك اللحظة سمع وراءه صوتاً يعرفه جيداً يقول :

– ماذا تفعل هنا ؟

فالتفت بسرعة إلى الوراء فرأى الأستاذ ديزارشيل يطلّ بنصفه الأعلى من خلال ستائر السرير وهو ممسك بها حذر السقوط وكان ينظر إليه بعينين قد اتسعتا من الدهشة ويقول بصوت متهدّج :

– يا للعار ! ألصّ أنت ؟! أنت الذي أحبك كولدي وأريد أن أورثك وظيفتي ... أنت ... لصّ ! ... أنت ...

ولكن الكاتب العدل السيء الحظ لم يتمكّن من أن يقول أكثر من ذلك لأن غاسبار بنياكل وثب عليه كأنه حيوان مفترس وطعنه بخنجر مرهف الحدّين عريض النصلة طعنة نجلاء في عنقه فانتفض الكهل المسكين انتفاضة هائلة وسقط من سريره وهو يرسل حشرجة الموت. وقد لبث هنيهة يتخبط في ارتعاشات النزاع ثم أطبق عينيه وفتحهما وتحرّك أيضاً بضعف ثم غرق

أخيراً في الصمت الأبدي بينما ظلت عيناه مفتوحتين متسعتين تنظران إلى القاتل كأنما تلعنانه لعنة سرمدية .

فانحنى غاسبار بنياكل على ضحيته وهو ينظر إلى تلك النهاية الرهيبة بعينيّ مذعور ، ولكنه مع ذلك غمغم قائلاً : إنه لن يحقّرني بعد الآن .

وفكر لحظةً وقال بابتسامة رهيبة : وبعد كل حساب فمن الأفضل أن يموت ... وهكذا لن أصطدم بأحد في المستقبل يستطيع أن يقول إنه رباني شفقةً عليّ .

ثم عاد إلى الخزانة فأخذ الورقة ونزع الأختام بمهارة فائقة وهو يقول بلهجة ساخرة :

– ولنرَ الآن مضمون وصية سمو الأمير دي مونكابيه بعد موت الشخص الذي كان يحتفظ بها .

ووضع مصباحه على الطاولة ثم نشر الوصية وقرأها بسرعة وهو يتلفّظ بالجُمَل التي تدهشه أكثر من سواها فكانت قراءته كما يلي :

« لشعوره بالنهاية القريبة ... يخلع منذ الآن جميع ألقابه على ابنته رولاند التي ستصبح من الآن فصاعداً الأميرة رولاند دي مونكابيه ... وكل ثروته المؤلفة من الأراضي والمساكن الكائنة في مقاطعات مختلفة من المملكة ، والرياش والجواهر والمال التي تعادل قيمتها الإجمالية مائتي مليون ليرة تقريباً ، يمنحها لابنته رولاند نفسها ! وإذا حدثت مصيبة لرولاند وماتت قبل أن تتزوّج تعود كل تلك الثروة إلى ابنتيّ عمه الطيبتين

وجوسلين دي هوتفور ، ويكلف صديقه الأستاذ لوران دي زارشيل ، منفذ هذه الوصية ، بتقديم جعالة معينة منتظمة إلى ابنتيّ عمه المذكورتين لحين زواج رولاند ... » .

وبعد أن قرأ المجرم النذل الوصية نقلها حرفياً ثم طواها كما كانت وأعاد الأختام إلى مكانها بالمهارة نفسها التي نزعها بها ثم وضعها في الخزانة في المكان نفسه الذي أخذها منه وأقفل الخزانة دون أن يأخذ منها شيئاً ثم وضع المفتاح مكانه في الخزانة قرب السرير.

وبعد ذلك فتح زجاج النافذة على مصراعيه وشقّ الخشب ثم نزع مفتاح باب الغرفة من الداخل وخرج وأغلق الباب وأقفله ووضع المفتاح في جيبه وأطفأ المصباح وخرج من المنزل من الباب الخلفي بعد أن أخذ مفتاحه معه أيضاً .

وسار في الحديقة إلى أن بلغ باباً صغيراً في السور فخرج منه وسار بخطوات واسعة . وكانت الساعة عندئذ لا تتجاوز الحادية عشرة والنصف .

وكانت غابة إيل أدام وغابة مونمورانسي في ذلك العصر
... ١٠٢٠ عما في أيامنا هـذه ، وكانت المنطقة كلها
...ا هنا وهناك فسحات صغيرة أقيم

...اج وكان يبدو عليه أنه يعرفها جيداً .
... أوفير سورواز عبر النهر على جسر
...فة الثانية ، إلى أن بلغ مكاناً موحشاً
...تيسة صغيرة ، وهناك جلس ينتظر .

وكانت تلك الأرض الموحشة المكسوّة بالشوك والعلّيق هي الحدّ الفاصل بين القطعة الصغيرة التي يملكها آل راكستان وبين القصر الفخم الذي يقيم فيه الأمير دي مونكابيه .

وقد جلس بنيا كل وهو يولّي ظهره منزل آل راكستان الذي كان أصحابه يسمونه « القصر » رغم صغره وتفاهة منظره .

ولم يطل انتظاره .. إذ أن شبحاً انتصب أمامه فجأةً دون أن يعلم من أين خرج ، فنهض بنيا كل فوراً ورفع قبّعته وانحنى باحترام عميق وهو يقول :

— لقد جئتكِ يا سيدتي بالنسخة التي شرّفتني بطلبها مني .

فمدّت المرأة يداً بيضاء رقيقة ناعمة مترفة لتأخذ الورقة التي كان بنيا كل يمدها لها وهو منحنٍ ، وعندئذٍ انطلقت أنوار حمراء من ياقوتة خاتم ذهبي بسيط كان يُحلّي تلك اليد .

وكانت الياقوتة هائلة الحجم حمراء بلون الدم القاني مفصّلة على شكل مسدس وكان مستحيلاً أن يلاحظها الإنسان بسبب شكلها ولونها وانعكاساتها الغريبة التي لا يوجد مثلها .

وقد قالت المرأة بصوت هادىء شديد البرودة : حسناً ، سوف تقبض المبلغ المتّفق عليه عندما يحين الوقت .

فقال بنيا كل باضطراب : ولكن ليس هـذا كل شيء يا سيدتي فإن الكاتب العدل قد استيقظ من نومه ورآني أفتّش في خزانته فاضطررت إلى قتله خوفاً من الشنق و ...

فقاطعته قائلة بكل هدوء : حسناً ، سأكافئك على هذا أيضاً .

فانحنى بنيا كل مجدّداً وهو يقول في نفسه بإعجاب شديد :

وحقّ الجحيم إنها امرأة عظيمة تضاهيني قوّة وربما كانت تفوقني!

وقالت المرأة آمرة :

– لا تنس أن تأتي إلى هنا كل يوم في الساعة المحددة .

فطمأنها قائلاً وهو ينحني : سوف أجيء يا سيدتي .

ولما انتصب كانت المرأة الغامضة قد اختفت ، كما ظهرت ، دون أن يعلم كيف حدث ذلك .

وقد ذهبت في اتجاه قصر مونكابيه ولم يطل عليها الوقت حتى بلغت باباً صغيراً في سور القصر ففتحته دون ضجة ودخلت ثم سارت في الظلام الشامل فاجتازت أروقة وقاعات ودهاليز وصعدت درجاً هنا ونزلت آخر هناك وفتحت أبواباً وأغلقت أخرى دون أن تصادف في سيرها أحداً .

فبلغت أخيراً غرفة فتحتها ودخلت وكانت الغرفة فاخرة الرياش مضاءة بشمعة واحدة من أصل الشمعات الستّ الموضوعة على طاولة صغيرة .

وكانت المرأة ملتفة بمعطف طويل يصل إلى قدميها وينتهي من جهة الرأس بقلنسوة واسعة رفعتها على رأسها بإحكام لا يظهر معه من وجهها سوى عينيها . فاقتربت إلى الطاولة الصغيرة حيث جلست دون أن تخلع القلنسوة ونشرت أمامها تحت ضوء الشمعة صورة الوصية التي جاءها بها بنياكل فقرأتها أولاً وثانياً بإمعان شديد ، وكانت تفكّر أحياناً كأنما تتعمّق في درس بعض المواد .

ولما انتهت من القراءة وأصبحت تعرف غيباً مضمون النسخة

الحرفيّ ، قرّبت الورقة من لهيب الشمعة وأشعلتها وظلّت ممسكة بها إلى أن كادت النار تصل إلى أصابعها ، وعندئذٍ نهضت وألقت بها على رماد المدفأة وجلست القرفصاء تراقب بانتباه اشتعالها البطيء .

وعندما نهضت أخيراً كانت متأكدة تماماً من أنهم مهما بحثوا في هذا الرماد فإنهم لن يستطيعوا أن يظفروا بذرّة من صورة وصية الأمير دي مونكابيه .

أما بنياكل فإنه عاد بعد ذهاب المرأة إلى منزل الكاتب العدل المسكين ، ودخل الحديقة فعرفه الكلبان وأتيا إليه دون نباح فجعلا يدوران حوله وهما يبصبصان بذيليهما ، فأبعدهما عنه في باديء الأمر بإشارة مقتضبة ، ولكن خاطراً عنّ له فعاد يدعوهما مطقطقاً بلسانه وسار وإياهما لغاية باب سور الحديقة حيث انحنى عليهما كأنما ليداعبهما . وفجأةً انقضّ عليهما بخنجره كالصاعقة ونحرهما على التوالي .

وقد ترك جثتي الحيوانين المنكودين قرب الباب ومسح خنجره الدامي ، للمرة الثانية في تلك الليلة ، وهو يقول ببرودة :

وهكذا لن يتعجّب أحد من عدم إنذارهما من في المنزل .

ثم صعد إلى غرفة القتيل حيث بان عليه الارتياح عندما رأى كل شيء كما تركه . فوضع المفتاح في القفل من الداخل وأداره مرتين حابساً بذلك نفسه مع ضحيته ، ثم أطفأ مصباحه وعلّقه في منطقته ونزل من النافذة وتركها مفتوحة نصف فتحة .

ووصل إلى غرفته بعد دقيقة واحدة فعلّق المصباح مكانه

وخلع ثيابه وأوى إلى سريره حيث لم يلبث أن نام كأن شيئاً لا يثقل ضميره .

وحوالي الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي أفاق من نومه على صياح وعويل الخادمة العجوز فعلم أنها اكتشفت جثة سيدها فغادر فراشه بسرعة وخرج من الغرفة نصف عارٍ .

وكانوا ينهضون من النوم باكراً في تلك الأيام ، ولم يكن الأستاذ لوران ديزارشيل من النكرات ، وهو الرجل النبيل الكريم الأخلاق الذي كان يشتغل وظيفة مرموقة جداً في ذلك العصر ، فترك مقتله أثراً عميقاً في نفوس أهل البلدة الذين تألبّوا كلهم على منزله ، في أقلّ من مضيّ ربع ساعة على صياح الخادمة ، متأثرين صاخبين يلعنون القتلة الأشرار .

وقد وصل ممثلو السلطة الرسميون وباشروا فوراً التحقيق في تلك الجريمة الوحشية ، وكان أول الذين استجوبوهم بطبيعة الحال الخادمة العجوز وبنيا كل .

وكانت الخادمة المسكينة صادقة في ألمها ولوعتها لأنها كانت تعبد سيدها فقالت كل ما تعرفه .

أما بنيا كل اللعين فإنه كان قد أعدّ خطته سلفاً فتظاهر بالحزن واللوعة إلى حدّ أنه بدا لا يستطيع الكلام أو التفكير لمساعدة العدالة ، ومع ذلك فإنه قد استطاع أن يقول ما يعرفه ولم يكن شيئاً مهماً إذ قال إنه كان نائماً فاستيقظ على صوت الخادمة وغادر فراشه فوراً كما يرونه ... أي نصف عارٍ ! وإنه لاحظ أن باب غرفة المحسن إليه مقفل من الداخل ، وقال إنه

ناداه كما نادته الخادمة دون جدوى وإنه لاحظ أيضاً أن نافذة الغرفة مفتوحة وكان في تلك اللحظة قد حضر إثنان أو ثلاثة من الجيران فدخل وإياهم الغرفة من النافذة ورأى الأستاذ ديزارشيل مطعوناً في عنقه وقد فارق الحياة .

وقد أفاد الجيران المذكورون داعمين شهادة المجرم ، أما ممثلو السلطة فإنهم استبعدوا ان يقدم هذان الخادمان المخلصان على عمل كهذا فلم يشتبهوا لحظة فيهما بل تركوهما لحزنهما وحوّلوا البحث والتحقيق إلى جهة أخرى .

ووجدوا الكلبين مذبوحين قرب باب الحديقة ففسّروا ذلك تفسيراً جاء برهاناً آخر يدعم شهادة المجرم ، أي أن الحيوانين المسكينين لم يتمكنا من إنذار سكان المنزل .

وبالاختصار فإن المحققين بعد أن بحثوا جميع الأدلة وقاموا بمختلف المكشوفات الحسيّة ، استنتجوا أن الأستاذ لوران ديزارشيل كان ضحية متشرّدين قطّاع طرق يعلمون أن خزانته ملأى بالمال وقد قرّروا سلبه فقتلوه ، ولكن الخزانة كانت متينة جداً ويقتضي فتحها ضجة كبيرة وقد خاف القتلة من إحداث تلك الضجة فتركوها وشأنها واكتفوا بأخذ ما وقع تحت أيديهم مثل محفظة القتيل التي كان من عادته أن يضعها على الطاولة قرب السرير والتي لم تكن موجودة ، وبعض أشياء أخرى أشارت الخادمة إلى اختفائها .

وبقي عليهم أن يعرفوا محتويات الخزانة مما قد يؤدي إلى تبديل استنتاجهم ، فتطوّع بنيا كل لمساعدتهم بطيبة خاطر

ودلّهم على مكان المفتاح ففتحوا الخزانة وفحصوا محتوياتها بناء على لائحة كانت موجودة فيها فاستنتجوا فوراً أن لا شيء ينقص منهـا .

وقد أعجب المحققون الأفاضل بدقـّة أبحاثهم على ما يبدو... فأطلقوا رجالهم على الطرقات المختلفة للبحث عن المتشرّدين الذين هربوا من الحديقة وأرسلوا كتاباً إلى سمو الأمير دي مونكابيه صديق القتيل يرجونه فيه الإسراع إلى بلدة إيل أدام .

الأخوان

*

في الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم نفسه ، أي بعد اكتشاف جريمة إيل أدام بساعة واحدة ، كان الكونت دي بومبينيان يتأهب لامتطاء جواده ، على عادته في مثل تلك الساعة من كل صباح ، ليقوم بنزهته اليومية عبر الأحراج .

وكان الكونت ريشار دي بومبينيان راكستان فتى في العشرين من العمر ، إلا أنه يبدو في الخامسة والعشرين ، وهو طويل القامة عريض المنكبين متين البنيان تدلّ حركاته الرشيقة الخفيفة على قوّة لا يتمتع بها كثيرون من الرجال . وكان ، رغماً عن حداثة سنه ، هادئاً رصين الطباع وقد أصبح رئيس العائلة بعد موت والديه ومسؤولاً بصورة خاصة عن أخيه الذي يصغره بخمس سنوات والذي يقضي عليه الواجب بأن يكون له عضداً

ومرشداً ، وكان الكونت يشعر تماماً بمسؤوليته ويقوم بواجبه بكل أمانة ونزاهة .

وكان قد أوشك على وضع رجله في الركاب عندما خرج من المنزل غلام صبوح الوجه فاجتاز درجات المدخل بوثبة فهد صغير وركض نحوه وهو يصيح قائلاً :

– سيدي ! ... سيدي ! ...

وكان الغلام يبدو في الثانية عشرة من العمر وهو قوي البنية يتفجّر نشاطاً وعافية ولكنه رثّ الثياب بالي الحذاء ومع ذلك فقد بدا في عدوه السريع أنيقاً جميلاً رائعاً .

فوقف الكونت ينظر إليه ويبتسم بحنوّ ووصل الغلام فلوّح بغدّارة كبيرة وصاح قائلاً :

– لقد أطلقت النار على عصفور يا سيدي و...

فقاطعه الكونت وقال ضاحكاً :

– وقد أخطأته يا هوبير ، أليس كذلك ؟

– نعم يا سيدي أخطأته على عادتي دائماً ومع ذلك فأنا متأكد من أنني ...

فقاطعه الكونت أيضاً وقال وهو يقهقه :

– لا شك في أنك أسأت التصويب يا هوبير ، إنك لا تزال تفتقر إلى المهارة .

– وأنا أقول لك يا ريشار إنني لا أفتقر إلى المهارة وإنني أحكمت التصويب ، أتسمع ؟

فقال الكونت متظاهراً بالصراحة :

– يظهر أنك تنسى أيها الفارس أنك تتكلم مع أخيك البكر ، رئيس العائلة .

– إنك على حقّ يا سيدي فاعذرني وسوف أحاول أن لا أنسى أبداً أنك أخي البكر ورئيس العائلة وأنه يجب عليّ أن أحترمك وأطيعك .

ثم عاد بسرعة إلى الموضوع الذي يهمه فقال: ولكنني ياسيدي، وأنا على يقين من أنني قد أحكمت التصويب وكان العصفور على أقل من عشر خطوات مني، على غصن مواجه. وقد صوّبت إليه الغدّارة بعناية بالغة وتأكدت من حسن التصويب قبل أن أطلق النار ، ومع ذلك فقد طار اللعين كأن شيئاً لم يحدث وهو يطلق صيحات قصيرة كأنما يتشفى بي .

– لا عليك ، سوف تكون أسعد حظاً في المرة القادمة .

– أشك في ذلك يا سيدي . ولكن فكرة عنّت لي في هذا الشأن ...

فقاطعه أخوه قائلاً : ما هي ؟ تكلم .

فتطلّع هوبير مباشرة في عيني أخيه وقال :

– هي ... من الممكن أنك لا تضع رصاصاً في غدّارتي عندما تحشوها .

فابتسم الكونت قائلاً : يا لها من فكرة صبيانية !

ولكنه أردف يقول في نفسه : « وهل تريد أيها الشيطان الصغير أن أضع لك رصاصاً في الغدّارة لتجلب عليّ المصائب ؟ لن أفعل ذلك أبداً » .

أما هوبير فإنه لم يقتنع تماماً بما قال أخوه فتابع حديثه قائلاً بلهجة لطيفة :

– لي ما أسألك إياه يا سيدى ، فهل تعدني بإجابة ملتمسي ؟

– نعم ، على شرط أن يكون ما تطلبه في حدود استطاعتي .

– إنه في استطاعتك دون شك لأنني لا ألتمس إلا أن تحشو غدّارتي قبل ذهابك .

– إن لم يكن سوى ذلك فهيّا واعطني غدّارتك لأنفذ طلبك .

– ولكنك ستحشوها أمامي يا سيدي ... أمامي !

– إنك لا تثق بي على ما أرى !

– كلا يا سيدي .

ولكنه استدرك فوراً يقول : في هذه النقطة فقط .

فقال الكونت بعد تردّد قصير : هيّا بنا سأحشو الغدّارة أمامك .

وتوجه الشقيقان إلى البيت حيث دخلا قاعة منخفضة السقف ففتح الكونت خزانة بمفتاح كان يحمله معه دائماً وأخذ كمية البارود والرصاص اللازمة لحشو غدّارة أخيه ثم أغلق الخزانة بعناية ووضع المفتاح في صدره . وبدأ عملية الحشو الدقيقة أمام عيني الفارس الصغير اللتين لم تكونا تتحولان عن يديه لحظة واحدة . وقال الكونت بعد قليل :

– ابتداءً من اليوم لم تعد الفسحة التي توجد فيها بقايا الكنيسة الصغيرة تخصنا ، ولذلك فإنني أمنعك من الذهاب إليها .

– لا يهمني إن كانت لنا أو لم تكن ، وسوف أذهب إلى هناك عندما يحلو لي ، وإذا قال لي أحدهم ما لا يسرني فثق يا سيدي بأنني بلغت من العمر حداً أستطيع معه ردّ الجواب.

وقد قال هذه الكلمات بلهجة متحدية وهو يضرب بيده على قبضة سيفه بفخر واعتزاز .

وكان منظر الغلام رائعاً حقاً وهو يتصرّف تصرّف الفرسان العظام إلى حدّ أن أخاه أعجب به بكل إخلاص. ولكن الفارس الصغير نسي في فورة حماسه متابعة حركات أخيه وقد اغتنم هذا الفرصة فخبأ الرصاص في جيبه ولم يضع في الغدّارة سوى البارود.

وكان كلام هوبير قد أثّر في الكونت تأثيراً كبيراً فتجهّم وجهه المشرق والتفت من النافذة المفتوحة نحو قصردي مونكابيه فلمعت في عينيه بوارق حقد شديد عاصف: حقد الفقير العاجز على جاره القادر الغني الذي يغتصب منه ما يملكه دون أن يستطيع شيئاً . ولبث الكونت على تلك الحال لحظةً قصيرة عاد بعدها يلتفت إلى أخيه قائلاً بمرارة :

– ألم تسمع ما قلت لك ؟ إنهم يطردوننا ، أتسمع الآن ؟ إنهم يطردوننا من أرضنا ؟ ... ولكنك لا ترى إذن أن آل مانكابيه يحطّموننا بثروتهم الهائلة ؟ ألا ترى أنهم لا يبالون بنا ؟ إنهم يدعون إلى أعيادهم وحفلاتهم التي يقيمونها في كل مناسبة جميع نبلاء المنطقة ... إلا نحن ! أقول لك إننا نضايقهم ، أو بمعنى أصح إن بؤسنا شوكة في جانب غناهم الفاحش... وهم لا يريدون أن يروه ولا أن يشعروا به . ولذلك

فهم يريدون اغتصاب أراضينا . فاليوم يسرقون القطعة التي تضم بقايا الكنيسة الصغيرة وغداً يأتي دور المنزل... وعندما لا يبقى لنا شيء سوى الأطمار البالية التي نرتديها فعندئذٍ يطردوننا ويلاحقوننا ملاحقة المتشرّدين إلى أن نترك المقاطعة ... هذا إذا لم يجدونا نحن الاثنين على حافة بعض الخنادق ميتين جوعاً !

فقال الغلام بلطف :

– أنا لا أهتم يا أخي لا بغنى آل مونكابيه ولا بأعيادهم التي يدعون إليها جميع نبلاء المنطقة ما عدانا ... فأنا أذهب إلى الكنيسة الصغيرة المهدمة لأنني أرى هناك صديقتي الصغيرة رولاند التي أحبها من كل قلبي... وطالما أن رولاند تأتي إلى ذلك المكان لتراني وتلعب معي ، فسوف أظلّ أذهب ولن يستطيع أحد أن يمنعني من الذهاب إلى حيث تنتظرني رولاند .

– رولاند ؟ ولكنك تنسى أيها الولد التعس أن رولاند هي الأميرة دي مونكابيه الصغيرة .

فأجاب هوبير قائلاً باللهجة اللطيفة نفسها : إنها رولاند فقط بالنسبة لي !

ففكّر الكونت لحظةً كأنما يستكشف خفايا المستقبل ثم هزّ رأسه بشك وغمغم كأنما يخاطب نفسه ، قائلاً :

– وماذا يمكن أن يجمع بين رولاند أميرة دي مونكابيه ووريثة ثروة أسطورية .. وبين فارس صغير من آل راكستان .. شيطان مسكين لا يملك شيئاً من حطام الدنيا ؟

فقال الغلام باقتناع كلي ولهجة جدّية مدهشة :

– إنها بالنسبة لي رولاند فقط وسوف تظل كذلك إلى الأبد . وأعتقد أنني هوبير فقط بالنسبة إليها ، وسوف أظلّ كذلك دائماً .

فهزّ الكونت كتفيه وقال : هاك غدّارتك محشوّة . وأنت متأكد تماماً من أنني وضعت فيها رصاصاً هذه المرة ، أليس كذلك ؟

– نعم يا سيدي ، وأنا أشكرك على لطفك واهتمامك .

وخرجا من المنزل ، فتابع الكونت كلامه قائلاً بشيء من السخرية :

– إذا أخطأت الهدف هذه المرة أيضاً فيجب عليك أن تقتنع بعدم مهارتك ؟

– نعم يا سيدي ، ولكن سوف ترى أنني لن أخطئه هذه المرة .

فحوّل الكونت وجهه ليخفي الابتسامة الساخرة التي طفت على شفتيه وقفز إلى صهوة الجواد من حيث توجّهت نظراته بدافع لاشعوري نحو قصر مونكابيه مرة أخرى .

ولكن تلك النظرات لم تكن تحمل حقداً هذه المرة بل كان يلتمع فيها الغرام ... غرام عنيف طاغٍ قاهر ، فقال في نفسه :

« يا للعجب ! إن مَن أحبّ ومَن أبغض أكثر مين كل من في الكون ... يقيمان هناك » .

وكأنما عصف به الغضب فجأة فصبّ نقمته على الجواد وأغرق مهمازيه في خاصرتيه فانطلق به يسابق الريح وهو يرسل صهيلاً

يدلّ على الألم .

فصاح هوبير يقول : نزهة سعيدة !

ثم شهر غدّارته وفتح عينيه جيداً وسار إلى الصيد تهزّه آمال العذاب وكان يخاطب نفسه قائلاً بصوت مرتفع :

– سوف ترى الآن إذا كنت حقاً قليل المهارة .

ورأى في تلك اللحظة عصفوراً واقفاً على غصن وهو يزقزق فلم يُضع لحظةً واحدة بل رفع الغدّارة وصوّب ، وكان على وشك أن يضغط الزناد عندما تمالك نفسه فجأة ووضع الغدّارة في منطقته وهو يقول بصوت مرتفع :

– لا ، لا يليق بي أبداً هذا الصيد الهزيل . والآن ، وأنا متأكد من أن الغدّارة محشوّة بالرصاص ، فسوف أوفر الطلقة لمناسبة تستحق التقدير . ولكي أبرهن لريشار على أنني لست عديم المهارة ، كما يقول ، فسوف أحضر له طريدة كبيرة ... يا لله ! ألا أستطيع أن أصادف خنزيراً بريّاً لآتيه به ؟ ! سوف يكون عملاً رائعاً إن أنا فعلت ! ولذلك فقد قررت أن يكون الخنزير البرّي أول صيدي ... فإلى الصيد يا هوبير ، إلى الصيد !

وانطلق في الأحراج لا يلوي على شيء .

الفارسية

*

وكان الكونت دي بومبينيان قد انطلق في الأحراج هو أيضاً

ولكنه توغّل فيها بعيداً وكان الجواد يعدو به على هواه دون أن يكبح جماحه ، وقد سار على تلك الطريقة زهاء نصف ساعة وهو تائه في عباب التفكير . وفجأة عاد إلى نفسه فبدا متأثراً قلقاً وجعل ينطلق بجواده تارة إلى اليمين وطوراً إلى اليسار وأحياناً إلى الأمام وأخرى إلى الوراء . وكان ينتصب في ركابه ويشرئبّ بعنقه ويتفحّص الغاب بنظراته ثم يوقف الجواد ويصيخ بسمعه فكان من يراه على تلك الحالة لا يشك أبداً في أنه يبحث عن شخص أو شيء .

وفجأة سمع خبب جواد يسير في الطريق الذي على يمينه فأشرق وجهه وهمز جواده وهو يغمغم قائلاً :

– إنها هي !

وقد أصاب في ظنه ، فإنه شاهد بعد قليل عند منعطف الطريق فارسة تتجه نحوه في خبب خفيف وكانت تضع قناعاً على وجهها فتقدم بومبينيان منها وقبّعته في يده وانحنى على عنق جواده يؤدي لها التحية .

فردّت عليه بلطف ، وكان يبدو جلياً أنهما متعارفان ومن الممكن أن يكون هذا اللقاء بناء على موعد سابق ولكن من الجلي أيضاً أن الفارسة كانت تتوقّعه لأنه لم يظهر عليها ما يدل على دهشة المفاجأة .

وقد خففت من سرعة جوادها وسار الكونت إلى جانبها فكانا يتقدمان ببطء ويتبادلان بعض الأحاديث السطحية التافهة ، إلى أن تكلم الكونت دون مقدمات ، كأنما يتابع حديثاً

قُطع سابقاً ، فقال بصوت يرتجف من شدة الهيام :

– ألا تلينين أخيراً في موقفك تجاهي يا سيدتي ؟ ألا تقولين لي كلمة تبعث الأمل في نفسي ؟ ألا تقولين لي من أنت ؟

فنظرت إليه نظرة عميقة وقالت ساخرة :

– إنك لا تزال ولداً يا سيد دي بومبينيان ، وأية ثقة يمكن أن تكون في حب ولد ؟

– جرّبيني يا سيدتي وسوف ترين أن في صدر هذا الولد قلب رجل مستعد لأن يريق لأجلك دمه إلى آخر قطرة !

فقالت ممازحة :

– يا لله ! وماذا أفعل بدمك ؟

ثم نظرت إليه نظرة سحرته وأردفت تقول بلهجة جديّة :

– ولكنني إذا قرّرت أن أمتحنك كما تلتمس ، فسوف أطلب منك دون شك أمراً أقل قيمة .

– تكلّمي يا سيدتي ، مُري ! أتريدين أن أقوم بعمل جدير بفرسان العصور القديمة ؟ أتريدين أن أرتكب جريمة ؟ أنا مستعد لتنفيذ كل ما تريدين وأقسم بالله أنني سوف أسير في الطريق الذي تحددينه لي دون أي تردّد حتى ولو قادني ذلك إلى أعمق أعماق الجحيم . مع العلم بأنني لن أكون خاسراً في هذه الحالة لأن الجحيم جنة فيما إذا كنت فيه إلى قربي... إذا كنت لي !

– وإذا قلت لك إنني أستطيع أن أحبك أنا أيضاً ... يا لله ! تمالك نفسك ولا تندفع هكذا مع الفرح . وأنا لا أقول إنني أحبك ... لا تتجهّم ... أقول فقط إنني أستطيع

أن أحبك يوماً ما وأستطيع أن أكون لك ... ولكن ذلك اليوم لن يبزغ فجره أبداً إلا إذا أزحت من الطريق رجلاً يقف بيننا ... إذا قلت لك ذلك فماذا تجيب ؟

– سمّي لي هذا الرجل وأقسم لك أنني سأحذفه من عالم الوجود مهما بلغ من شأنه ومكانته .

فرّ طيف ابتسامة على شفتي الفارسة الحمراوين وقالت بهدوء:

– حسناً ، إذهب بعد ساعتين ، أي حوالي الساعة التاسعة ، إلى قصر مونكابيه وسوف يدلونك هناك على الرجل .

فتجهّم وجهه فجأة وغمغم قائلاً :

– على ما تريدين ! ولماذا الذهاب إلى قصر مونكابيه ؟ ! أنا لا أعرف رب القصر – ليبتلعه الجحيم – ولا أريد أن أعرفه !

وقد قال ذلك وبدا على وجهه بغض هائل لم يستطع إخفاءه، فأخذت علماً بهذا الشعور الذي راق لها على ما يظهر لأنها ابتسمت مجدداً وقالت :

– إطمئن ، فإنك لن ترى الأمير لأنه ذهب هذا الصباح إلى بلدة إيل أدام ولا أظنه يعود وأنت في القصر . سوف يستقبلك هناك الدوق دي سوريانتس ...

– وماذا أقول لذلك الدوق لتبرير زيارتي ؟

– ها أنت مرتبك لشيء لا أهمية له . سوف تحدّث الدوق بشأن قطعة الأرض التي تضم بقايا الكنيسة الصغيرة .

ومدت له يدها بعد أن تأكدت من أنه سوف يذهب ، فانحنى على تلك اليد وطبع قبلة غرام حارة وهو يرتجف من قمة

رأسه إلى أخمص قدميه .

وقد أبقت يدها في يده ولم يبدُ عليها أنها على عجلة لسحبها ، ولكنها لما سحبتها أخيراً بلطف انطلقت منها أنوار حمراء هي أنوار الخاتم الذهبي المحلّى بياقوتة كبيرة الحجم على نحو ما مرّ بنا سابقاً ، ولم يكن في المستطاع عدم ملاحظة هذه الياقوتة الفريدة بسبب انعكاساتها الغريبة ولونها وشكلها التي لا يوجد مثيل لها .

الكونت دي بومبينيان

*

وبعد ذهاب الفارسة لبث بومبينيان وقتاً طويلاً في المكان الذي قبّل فيه يدها وهو جامد جمود التماثيل .

ولكنه عاد أخيراً إلى بيته حيث بدأ فوراً يعتني بهندامه ، فلبس فوراً أحسن ثوب لديه ، أي الثوب الأقل رقعاً ، ولو كان في غير تلك الظروف لأدمت رثاثة ذلك الثوب كبرياءه ولكنه في الوقت الحاضر لم يكن يلقي بالاً إلى مثل هذه الأمور بل كان يطير فرحاً لمجرد التفكير في أن المرأة المعبودة سوف تحبه يوماً وتكون له .

ولكنه مع ذلك لم ينسَ أنه مقدم على ارتكاب جريمة في سبيل امتلاكها، فكان وجهه يتجهّم أحياناً ويعتريه الجمود فيلبث بعض الوقت مفكراً ساهماً إلا أنه سرعان ما كان يعود إلى متابعة الاعتناء بهندامه وقد أشرق وجهه مجدداً بالفرح والغبطة

مما يدل على أنه لن يتقاعس في سبيل امتلاكها ، عن ارتكاب جريمة ... بل وعشر جرائم إذا لزم الأمر !

واعتلى صهوة جواده وذهب . وفي تمام الساعة التاسعة كان يترجل أمام مدخل قصر مونكابيه حيث استقبله الدوق دي سوريانتس بذلك التهذيب الذي امتاز به كبار السادة في تلك الأيام ، والذي كان عند الدوق يختلط بالتهذيب الإسباني وهو أكثر نعومة وكياسة .

وقد بدأ دي سوريانتس يعتذر للكونت عن عدم وجود قريبه ، عن طريق الزواج ، الأمير دي مونكابيه الذي ذهب بسرعة قصوى إلى بلدة إيل أدام عندما علم بمقتل الأستاذ لوران ديزارشيل ، كما أكد له أن ربّ الدار سوف يأسف كثيراً لعدم تمكنه من استقبال الزائر النبيل . وقد أعرب عن سروره بنيل الشرف الكبير في الحلول محل الأمير في استقبال الكونت وأظهر استعداده لسماع ما يقوله بطيبة خاطر .

فجلس السيدان . وهنا لا بدّ لنا من الإشارة إلى أنه كان في القاعة بابان مغلقان أحدهما يقع وراء المقعد الذي يجلس فيه الدوق ، والآخر يقع وراء المقعد الذي جلس فيه الكونت .

وابتسم الدوق للزائر ابتسامة لطيفة كشفت عن صفين من الأسنان اللامعة تحت شارب أسود صغير وبدأ الحديث قائلاً :

– لقد سمعت أيها الكونت كلاماً عن أحد فرسان آل راكستان وقيل لي إنه قام بأعمال تضاهي ما قرأناه عن فرسان الأساطير .

فأجاب الكونت دي بومبينيان وهو ينتصب بكبرياء قائلاً : إنه جدّي يا سيدي :

– ويقال إن السيد دي بومبينيان راكستان والدك قد بدّد ثروته ، فهل هذا صحيح ؟

فأجاب الكونت بفخر وقال : إن أبي كان حر التصرّف في ثروته ولم يكن لأحد أن يمنعه من أن يفعل بها ما يشاء .

وأضاف يقول بمرارة: ولأجل ذلك تراني فقيراً ، فقيراً جداً يا سيدي !

وكانا يتكلمان إلى تلك اللحظة دون أن يأتي أحد منهما على ذكر قطعة الأرض التي أشارت الفارسة على الكونت باتخاذها ذريعة للزيارة. ومن غريب الأمور أنه إذا لم يكن بومبينيان على عجلة للتحدث في هذا الشأن ، فإن سوريانتس لم يكن هو الآخر على شيء من العجلة ولم يقل أية كلمة في الموضوع .

وفي تلك اللحظة فُتح الباب الذي وراء الدوق ودخلت إلى القاعة صبية فاتنة الحسن لا يمكن أن يحلم من يراها بوجود أجمل منها ، وكانت ترتدي ثياباً بيضاء من قمة رأسها إلى أخمص قدميها.

ولما رآها بومبينيان برّح به الغرام وأخذ يرتجف لأنه عرف فيها الفارسة التي التقاها منذ ساعتين في الأحراج ...

وقد تقدمت السيدة ، وهي تبتسم ، من الدوق الذي قبّل يدها وقدّمها رسمياً إلى الكونت بقوله :

– النبيلة جوسلين دي هوتفور ، دوقة دي سوريانتس ، زوجتي العزيزة.

فانحنى بومبينيان انحناءً عميقاً وهو يغمغم ببعض المديح ، ولكن لم يبدو على الدوقة أنها تعرفه، فتعجّب بسذاجة في بادىء الأمر ولكنه عاد يقول في نفسه :

« يا لي من مغفّل! وهل أريد أن تأتي بحركات تدل على أنها تعرفني أمام زوجها ؟ إنها أكثر حذراً مني وهي تلعب دورها بمهارة . فلأفعل مثلها إذن ... وأنتظر ما يجدّ » .

ولكن الدوق لم يحوجه إلى الانتظار لأنه اعتذر واستأذن في الغياب لحظةً وخرج تاركاً إياه مع زوجته .

فاغتنم بومبينيان الفرصة واقترب من الدوقة قائلاً بصوت حار : لقد أمرتني بالمجيء يا سيدتي وها أنذا بين يديك !

فصاحت الدوقة قائلة : لقد أمرتك بالمجيء ؟!... أنا ؟!...

- أما زلتِ تشكّين في حبي يا سيدتي ؟ ألا تعتقدين أنني أصبحت لك روحاً وجسداً ؟ أتوسل إليك أن ترفقي بي بما أن الصدفة تساعدنا ، وتصرّحي بما ألتمسه منكِ منذ شهر طويل !

وكانت دهشة الدوقة تتزايد أكثر فأكثر وكانت تنظر إليه مرتعبة مختنقة إلى حد أن صوتها لم يعد يسعفها لكي تقاطعه .

وقد مرّ تأثير المفاجأة أخيراً فأجابته بلهجة متعالية قائلة باحتقار : كفى يا سيدي أو أدعو الخدم لإلقائك خارجاً !

فلبث بومبينيان مصعوقاً وهو لا يفهم شيئاً مما يحدث أمامه. وفجأة لمعت في ذهنه فكرة خالها صواباً فقال في نفسه :

« من الممكن أنهم يسمعوننا وقد يكون زوجها غير واثق بنا وأنه لم يخرج إلا لمراقبتنا ... يقال إن الإسبانيين غيورون

جداً ... آه ! يا لي من مغفّل لأنني لم أفهم هذه الأمور وتصرّفت بحمق كبير ... ولكنها لحسن الحظ لم تفقد وعيها هي ! »

وانحنى أمامها إلى حد أنه كاد يركع وقال بصوت مرتفع :

- عفوك يا سيدتي ولا تتعجّلي في الحكم عليّ ... لقد اعتقدت أنني عرفت فيك شخصاً عزيزاً عليّ وقد تأكدت الآن من أنني كنت مخطئاً فتنازلي واقبلي اعتذاري وتأكدي من أنه لم يخطر ببالي مطلقاً أن أخلّ بواجب الاحترام المفروض في أن أقدّمه لك والذي لا أرى مَن تفوقك استحقاقاً له .

وكان يظهر عليه أنه صادق في قوله آسف على ما صدر منه ، فقبلت الدوقة إيضاحه واعتذاره اللذين وجّهها إليها بكل تلك الحرارة .

وعاد الدوق في تلك اللحظة بينما انسحبت امرأته وهي تردّ بانحناءة خفيفة لطيفة على تحية الكونت .

فتابعها هذا بأنظاره إلى أن أقفل عليها الباب وكان غرامه وإعجابه بها قد بلغا به حداً لا يستطيع معه أن يخفي اضطرابه. وفي تلك اللحظة بالذات، أي عندما كان الباب يُغلق على الدوقة، فُتح الباب الذي وراءه وقد اختلطت ضجة هذا الباب الذي يُفتح بضجة الباب الآخر الذي يُغلق وراء مقعد الدوق . وكان الكونت دقيق السمع فلاحظ الضجة وراءه واستدار عفوياً ليرى.

وعندئذٍ لبث مذهولاً وقد اتسعت عيناه دهشة وتعجباً . كيف لا وقد ظهرت في إطار هذا الباب الذي فُتح في الوقت نفسه الذي أغلق فيه الآخر ، المرأة نفسها التي خرجت من ذلك

الباب الآخر .

نعم ، لقد ظهرت المرأة نفسها تماماً ، إلا أن هذه كانت ترتدي ثياباً سوداء من قمة رأسها إلى أخمص قدميها بينما كانت تلك ترتدي ثياباً بيضاء ، وكان وجه هذه رصيناً وقوراً بينما كان وجه تلك ضاحكاً مرحاً .

وكان بومبينيان يتساءل عما إذا لم يكن حالماً ، وكانت المرأة تتقدّم نحوهما بالخطوات الرشيقة اللطيفة نفسها التي خرجت بها الأخرى .

وعندئذٍ فقط لاحظ الكونت أن القادمة تلبس في إصبعها خاتماً ذا ياقوتة هي الياقوتة نفسها التي تكلمنا عنها فانتفض قائلاً في نفسه : « إنها هي ، فارستي الجميلة ! »

وكان الدوق دي سوريانتس يراقبه بانتباه من طرف خفي فأخذ يضحك عندما رأى انذهاله ودهشته وضرب على لوح نحاسي دون أن يقول شيئاً ثم أعطى أمراً مقتضباً إلى الخادم الذي حضر والتفت إلى الكونت قائلاً وهو يبتسم :

– لقد تشرّفتُ منذ قليل يا سيدي الكونت بتقديم الدوقة دي سوريانتس إليك ، وأتشرف الآن بأن أقدم شقيقتها التوأم السيدة دليلة دي هوتفور التي لا ندعوها إلا باسم هرموزا .

ثم أوضح قائلاً :

– إن هرموزا كلمة إسبانية تعني « جميلة » .

ولم يستطع بومبينيان أن يقول ما يناسب المقام لأن الدوقة التي دعاها زوجها بواسطة الخادم عادت في تلك اللحظة إلى القاعة

وتقدّمت من تلقاء نفسها تقف إلى جانب شقيقتها وهي تبتسم وقد علمت بما جرى من مجرد النظر إلى ملامح الزائر .

فأخذ الكونت يتأمل الشقيقتين بدقة كبيرة علّه يجد فارقاً بينهما ولو ضئيلاً ، ولكنه عبثاً حاول ، فقد كانت كل منهما صورة طبق الأصل عن الأخرى .

فقال سوريانتس موضحاً : ها أنت ترى يا سيدي أن الشبه تام . ولذلك ، ولتحاشي كل التباس ، فإن إحداهما ترتدي دائماً ثياباً بيضاء أو فاتحة ، بينما ترتدي الأخرى ثياباً سوداء أو قاتمة.

وقد بذل بومبينيان جهداً جباراً ليعود من تأثير الدهشة وبدأ يتكلم بما يناسب المقام وقد تبودلت الأحاديث السطحية طيلة عشر دقائق انسحبت بعدها الشقيقتان .

وبعد لحظات من انسحابها سمعت في الفناء الخارجي للقصر غارة جواد آتٍ . ويظهر أن ذلك كان الإشارة التي ينتظرها الدوق لأنه صرف الزائر بتهذيب ولباقة كبيرين ، فذهب هذا في أثر خادم يدله على الطريق ويشيعه بالإكرام نفسه الذي استقبل به .

وبينما كان الكونت يجتاز رواقاً مقفراً معتماً ظهر أمامه فجأة شبح امرأة لم يدرِ من أين طلع عليه . أهي ذات الرداء الأسود أم ذات الرداء الأبيض ؟ إنه لم يكن يستطيع الأجابة على ذلك لأن الشبح كان ملتفاً بعناية ما بعدها عناية برداء طويل ذي قلنسوة لا لون يميّزه وقد رفع القلنسوة إلى رأسه الذي لم يكن يظهر منه سوى العينين .

وقد همس الشبح بصوت لا يكاد يسمع قائلاً :

– إن الرجل الذي يجب عليك قتله يترجّل الآن أمام مدخل القصر .

وقبل أن يستطيع بومبينيان ، الذي عادت إليه الدهشة من جديد ، أن يقول كلمة أو يأتي بحركة ، كان الشبح قد اختفى بالغموض نفسه الذي ظهر به . وكأنما أراد الخادم الذي يسير أمامه أن يمنعه عن كل بحث ، فإنه استدار إليه ووقف جامداً كأنه يدعوه إلى اللحاق به .

فلم يسع الكونت إلا أن يتبعه وهو ساخط ناقم وكان يغمغم قائلاً في نفسه : « وحقّ جميع شياطين الجحيم هذا هو قصر الأسرار إلا إذا كنت قد فقدت صوابي دون أن أشعر » .

وقد رأى الرجل الذي دلوه عليه يترجّل فعلاً أمام المدخل وكان يبدو حزيناً منفعلاً وقد شك في منطقته ورقة كبيرة مطوية مختومة بالشمع الأحمر وكانت هرموزا وجوسلين تهرعان إلى ملاقاته وسمعه يقول لهما :

– لقد جئت بوصيتي ...

فاعترى بومبينيان ذهول شديد وغادر القصر وهو يقول في نفسه : « الأمير دي مونكابيه ... إنه الأمير دي مونكابيه الذي يريدون مني أن أقتله ! ... لماذا ؟ لماذا ؟ ! »

الإبنة بعد الأب

*

وعاد الكونت دي بومبينيان إلى منزله وقد أرخى عنان الجواد على مداه ، وكان يأمل من وراء تلك السرعة الهائلة أن يخفف من همه الذي يكاد يشتعل فيعود إليه صفاء ذهنه تماماً في تلك اللحظة . ولكن النتيجة الوحيدة التي حصل عليها هي أنه زاد مطيّته المنهوكة إرهاقاً على إرهاق .

ولقد لبث مدة طويلة يتمشى في منزله بخطوات مشوّشة وهو يحاول حل تلك القضية العويصة التي تكاد تفقده الصواب ألا وهي :

« لماذا يُطلب منه قتل الأمير دي مونكابيه ؟ » ولفرط ما بحث ودقّق في ذاكرته انتهى به الأمر إلى أن يتذكر بعض كلمات سمعها فقال في نفسه :

« لقد سمعت أن السيدتين دي هوتفور ، ولم أكن قد رأيتها بعد ، تعيشان مما يقدمه لهما الأمير لأنهما قريبتاه الوحيدتان ، ولذلك فإنهما سوف ترثانه بعد موته » .

ولكنه سرعان ما رذل هذه الفكرة العقيمة فهز كتفه وتابع يقول في نفسه :

« ولكنني أنسى على ما يظهر وجود رولاند ابنة الأمير الوحيدة ووريثته الشرعية ... وإذن فإن فارستي التي أمرتني بقتل الأمير لا تستطيع وراثة الثروة الهائلة إلا إذا اختفت

رولاند من عالم الأحياء بدورها » .

ويظهر أنه تعب من مثل هذه الأبحاث فصاح قائلاً بغضب :

– إلى الشيطان ! ... يجب عليّ أن أقتل الأمير لأنه حجر عثرة في سبيل حبنا ، إذ أنها تحبني وأقسم على ذلك ، وقد صرّحت لي بحبها ولست غبياً ... ولكن لماذا يشكل الأمير تلك العقبة ؟ وكيف؟ لا يهم! إنه عقبة فعلاً لأنها قالت ذلك... وسوف يموت الأمير دي مونكابيه ! أقسم بالله أو بالشيطان أنه سوف يموت !

وفي الوقت نفسه الذي قرر فيه الكونت دي بومبينيان قتل الأمير دي مونكابيه، كان غاسبار بنياكل يجلس على قاعدة عمود من عواميد الكنيسة الصغيرة المهدمة ، كما فعل في الليلة السابقة أو مقتل الأستاذ لوران ديزارشيل ، وينتظر .

وفجأة ظهرت أمامه ، كالليلة السابقة ، امرأة ملتفة بمعطف فضفاض رمادي اللون وقد ردّت قلنسوته على رأسها ، دون أن يعلم ، هذه المرة أيضاً ، من أين طلعت عليه . وكان في إصبعها الخاتم الذهبي البسيط ذو الياقوتة نفسها التي أشرنا إليها أكثر من مرة .

وقد قالت له بالصوت الموسيقي واللهجة المقتضبة الآمرة نفسها :

– لقد دقّت الساعة ، وغداً بعد حفلة العيد التي سوف تقام في القصر يجب أن ينفّذ كل ما اتفقنا عليه فيما بيننا .

فقال بنياكل :

– كنا قد اتفقنا يا سيدتي على أن أجيئك بصورة عن وصية الأمير دي مونكابيه ، وقد جئتك بتلك الصورة . ثم اتفقنا على أن أتكفل بالأميرة الصغيرة رولاند وقد فهمت أنه يجب قتل تلك الطفلة . ولكن من الممكن أن أكون قد أسأت فهم نواياك فألتمس باحترام كلي أن تكبّدي نفسك عناء تحديد أوامرك في هذه القضية بجلاء .

– لقد فهمتَ جيداً. وغداً بعد حفلة العيد، يجب أن تكون الأميرة الصغيرة رولاند قد فارقت الحياة وأن تختفي جثتها حيث لا يستطيع أحد أن يجدها .

– حسناً يا سيدتي . غداً بعد حفلة العيد سوف تكون الأميرة الصغيرة رولاند قد فارقت الحياة وسوف تختفي جثتها ولن يجدها أحد أبداً .

عيد مولد رولاند

*

وكان الثاني عشر من أيار عيد مولد رولاند وقد وجه والدها الدعوات إلى جميع نبلاء القرى المجاورة فلبّى الجميع تلك الدعوات بحماس منقطع النظير وأخذوا يتوافدون منذ الصباح الباكر على قصر مونكابيه . وكان الفناء العام كأنه معرض للجمال والأناقة ، وكان بعضهم يأتي في العربات والبعض الآخر على الجياد ، وكانوا يتجمعون كلهم في الدهليز الكبير الرحب حيث

وُضعت الطاولات لأجل الوليمة التي ستقام بعد تهنئة صاحبة العيد ووالدها .

وكانت رولاند عندئذ في غرفتها بين أيدي مربّيتها ووصيفاتها وهنّ يزيّنها ويلبسنها ثيابها بعناية فائقة.

ولما انتهين تقدّمت الطفلة إلى مرآة بلورية كبيرة فتأمّلت نفسها هنيهة وقالت :

– إنني أبدو جميلة حقاً وسوف أذهب بعد قليل إلى الكنيسة الصغيرة المهدّمة ليراني صديقي الطيب هوبير ، ولا بدّ أنه سيكون مسروراً جداً عندما يشاهدني بهذا الجمال .

فانحنت المربية وقالت بلهجة صارمة : إنك لن تذهبي إلى ذلك المكان . لا ، لا ... لن تذهبي إليه أبداً !

فقهقهت رولاند ضاحكة وانحنت تقلّد مربيتها بمهارة وتقول :

– لا ، لا ؟ ولكنني سوف أذهب مع ذلك !

– لن تذهبي من الآن فصاعداً إلى الكنيسة الصغيرة أبداً . وهي أوامر مولاي لأن هذين الأخوين راكستان لا قيمة لهما مطلقاً ، وخاصة الفارس الصغير هوبير الذي تجرئين على أن تسميه « صديقك الطيب » إذ أنه يبدو أقرب إلى المشرّدين بغدّارته الكبيرة التي يشكّها في وسطه وسيفه العتيق الصدىء ، وسترته الممزقة عند الكوعين . وقد بلغتِ الآن عمراً تستطيعين معه أن تفهمي واجباتك كسيدة عظيمة من أسرة مونكابيه . وهكذا فلن ...

فقاطعتها رولاند قائلة بعناد : سوف أذهب !

ثم مدت لها لسانها ، فرفعت المربية ذراعيها إلى العلاء وهي تهمهم بكلمات غير مفهومة .

ولكن رولاند معذورة في تصرّفها رغم كل شيء فهي لا تزال فتاة صغيرة وقد بدأت سنتها الثامنة في ذلك اليوم ، الثاني عشر من أيار ١٥٦٥ .

وفُتح الباب عندئذٍ ودخل الأمير دي مونكابيه فركضت إليه رولاند وهي تصفّق بيديها الصغيرتين بفرح لا يوصف وطوّقت عنقه بذراعيها وألصقت خدها الوردي النضر بخده وقالت بحنان عميق مؤثر :

– آه يا أبي الطيب اللطيف . ألا تزال تفكّر في أمي المسكينة التي هي الآن في السماء ؟

فاغرورقت عينا الأمير بالدموع وقال بصوت مرتجف : نعم يا طفلتي العزيزة ، ولن أنساها أبداً !

وقال في نفسه : « واحسرتاه ! أنا لا أبكي أمك في هذه اللحظة بل أبكيكِ أنتِ وأتساءل عما سوف يحل بكِ بعد موتي يا طفلتي المعبودة المسكينة ! »

وكان الأمير يحس دائماً ذلك الإحساس الغامض الرهيب الذي جعله يكتب وصيته كما ذكرنا . ولكنه تمالك نفسه الآن وقال متظاهراً بالسرور :

– ولكن البكاء لا محل له في هذا اليوم السعيد يا صغيرتي المحبوبة ، ولذلك فأنا لا أريد أن أثير حزنكِ بدموعي .

ثم بدّل لهجته وقال : لقد حان الوقت فتعالي أيتها الأميرة لأقدمك إلى ضيوفنا العظام الذين ينتظرون ظهورك ليهتفوا لك ويهنئوك .

وقد طابت نفس رولاند عندما رأت ابتسامة أبيها وقلّدت لهجته الرسمية هذه قائلة :

– ها أنا أتبعك يا مولاي !

وكان الرواق في تلك اللحظة يعج عجيجاً والناس يروحون ويجيئون ويضحكون ويتباسطون منتظرين الحدث العظيم الذي ما برح يشغل المقاطعة كلها منذ ثمانية أيام .

وفجأةً خيّم الصمت والجمود على الجميع واتجهت الأنظار كلها إلى قرص درج المدخل الكبير ودوّت الهتافات تشق عنان الفضاء وكأنها هزيم الرعد يتردّد صداه في كل مكان .

وكان الامير دي مونكابيه قد ظهر عندئذ على قرص الدرج وهو يمسك بيد ابنته، ثم وقف وراءها وانحنى فأمسكها من تحت إبطها ورفعها على مدى ذراعيه وانتصب بكل قامته الطويلة يقدمها للجمهور الصامت المنتبه وهو يقول بصوت قوي :

– أيها السادة النبلاء والسيدات النبيلات ، أتشرف بأن أقدّم إليكم صاحبة السمو والنبل والقوة الأميرة رولاند دي مانكابيه ابنتي المحبوبة التي أورثُها ابتداءً من هذا اليوم جميع ألقابي وحقوقي وممتلكاتي .

فعادت الهتافات بحياة الأميرة ووالدها ترتفع من جديد.

ونزل الأمير الدرج الرخامي بخطوات بطيئة جلية وهو

يمسك مجدداً بيد ابنته ، وسار خلفه ابنتا عمه التوأمان دليلة دي هوتفور أو هرموزا وهي ذات الرداء الأسود ، وجوسلين دوقة دي سوريانتس ذات الرداء الأبيض وهي تستند إلى ذراع زوجها السامي الشرف رودريك دوق دي سوريانتس. ولم يكن أحد من الحاضرين أشد سروراً من الشقيقتين والدوق .

وانتظم المدعوون في صفين متقابلين فمرت رولاند بينهما ، يقوها والدها، بخطوات موزونة رصينة وهي تجيب بالابتسامات والقبلات على سيل التهانيء المتدفق عليها من كل جانب .

الوردة البرية

★

وبعد انتهاء مراسيم التقديم أقيمت وليمة اسطورية ضمت بضع مئات من المدعوين وكانت رولاند تجلس قبالة أبيها على عرش مماثل لعرشه وهي تترأس طاولة الشرف. ولما كانت الوليمة ستمتد طيلة ذلك النهار والنهار الذي يليه للمدعوين الذين أتوا من أمكنة بعيدة ولا يستطيعون العودة إلى أراضيهم عند حلول المساء ، فقد كان مقرراً أن تجلس الأميرة الصغيرة ساعة ، أو ساعة ونصف الساعة ، بين المهنئين ، وبعد ذلك تأتي مربّيتها للعودة بها إلى جناحها .

ولم تكن رولاند تجهل هذا التدبير وقد سُرّت كثيراً في باديء الأمر بما يجري أمامها ولكن الملل اعتراها بعد قليل

وتذكرت ذلك الذي تدعوه صديقها الطبيب هوبير دي راكستان فاستبدت بها رغبة قاهرة في أن تريه نفسها بكامل زينتها مع تاج الإمارة الذي يعلو مفرقها .

وكانت الخمرة قد بدأت تفعل فعلها في الرؤوس وسيطر المرح والضجيج ولم يعد أحد ينتبه إليها . وقد رأت ذلك جيداً فاغتنمت الفرصة وتسللت إلى خارج الرواق فاجتازت فناء القصر وباب السور وبدأت تركض في اتجاه الحرج حيث تقع الكنيسة الصغيرة .

وكانت تتمتع بذكاء وفطنة يفوقان عمرها ، فحللت قضيتها جيداً وأيقنت بنجاحها دون أي شك ، إذ أنها عندما ابتعدت عن القصر وأصبحت وحدها قهقهت ضاحكة وهي تقول :

– سوف يعتقد سيدي الوالد أن المربّية أخذتني ، بينما تعتقد هذه أنني لا أزال على عرشي قبالة سيدي الوالد ... وهكذا أستطيع أن أتصرف بربع ساعة كما يحلو لي .

ووصلت إلى الكنيسة المهدّمة وكان هوبير ينتظرها هناك وهو يتقلد سيفه الطويل الذي يضرب بطتّيته ، ويشك في منطقته غدارته الكبيرة . فتقدمت رولاند منه بخطوات بطيئة رصينة وقالت له بلهجة رصينة :

– نهارك سعيد يا سيدي الفارس !

فلبث الغلام صامتاً مذهولاً وهو يحملق فيها بعينين واسعتين ومن المؤكد أنه لم يعرف في هذه « السيدة الجميلة » صديقته الصغيرة التي كان يركض وإياها في الأحراج حيث يتسلقان

الأشجار ويبحثان عن الأعشاب .

وكأنما عرفت رولاند ما يجول في خاطره فدارت على نفسها أمامه وقالت بدلال :

– ألا تراني جميلة ؟

فلم يجب أيضاً ، ولكنه ضم يديه وأخذ يتأملها بعينين يختلط فيها الإعجاب بالدهشة ، وقد فهمت جيداً أنه يراها جميلة فظهر عليها السرور ، كما أنها عرفت سبب ارتباكه فتقدمت منه هذه المرة بخطواتها التي يعهدها وطبعت على خديه قبلتين رنّانتين وهي تقول :

– ليس في ما ترى سبب يمنعك عن ردّ تحيتي !

فزال جموده وكأنما زال بفعل السحر وردّ لها بكل براءة قبلتيها ثم أخذ يديها بيديه وتأملها لحظة بإعجاب صادق طاهر وهو يقول :

– ما أجملك !

– لقد عرفت جيداً أنك ستراني جميلة ولهذا أردت أن أريك نفسي بكامل زينتي .

– ولكن لماذا كل هذه الزينة الرائعة ؟

– وهل نسيت أن اليوم هو عيد مولدي ؟

فتبادلا النظرات بحنان صادق بينما تتشابك أيديهما بقوة ، وقد رآها مرتجفة مرتبكة فحاول تغيير مجرى تفكيرها فقال :

– ألأجل عيد مولدك زينوك بكل هذه الحلى ؟

– ولأجل شيء آخر أيضاً ، ألا ترى تاج الإمارة على رأسي ؟

لقد أصبحت أميرة من الآن فصاعداً .

– أميرة ؟ !

– وأنت ، ماذا أصبحت ؟

– أنا لست إلا فارساً ... فقيراً !

فصفقت بيديها وقالت بمرح :

– سوف تكون فارسي وأكون أنا سيدتك . وأريد منذ الآن أن أعطيك عربوناً على أمانتي كما تفعل أميرات كتابي الجميل تجاه الفارس الذي يخترنه .

وكان إلى قربها مجموعة كثيفة من شجيرات الورد البري فقطفت أجمل زهرة وجدتها فيها ووضعتها في عروة سترته المرقعة ثم تراجعت قليلاً تتأمله وتظهر إعجابها بقولها :

– والآن ، إن زينتك أجمل من زينتي وأنت أجمل مني !

– من المستحيل أن أكون أجمل منك ، ومن الصعب جداً أن أضاهيك جمالاً .

– سأذهب الآن بعد أن رأيتني بكامل زينتي .

فقال بأسف ظاهر : الآن !

فقالت بلهجة جدية :

– يجب أن أذهب لأنني جئت إلى هنا خفيةً وقد يكونون شعروا بغيابي وبدأوا يبحثون عني مع العلم بأنهم لا يريدون ، بعد أن أصبحت أميرة الآن ، أن آتي إلى هنا لأراك !

– وكذلك أنا ! لقد منعني أخي عن المجيء إلى الكنيسة المهدّمة .

– لماذا ؟

فقال بسذاجة : لا أعلم .

– وبماذا أجبت أخاك ؟

– أجبته بأنني سوف أجيء رغم كل شيء وعندما يحلو لي . وأنت بماذا أجبتِ ؟

وقد قال جملته الأخيرة بقلق خفي ، ولكنها أجابت قائلة: لقد أعطيتهم جوابك نفسه !

فانفجرا ضاحكين، ثم تابعت قولها ساهمة: ولكنني أتساءل لماذا لا يريدون أن نرى بعضنا ؟

وتطلعت إلى الأفق بعينيها المشرقتين وقالت بعزم :

– ألأنني أصبحت أميرة ؟ ! ولكن ساء فالمهم لأنني سوف أظل دائماً بالنسبة لك صديقتك الصغيرة رولاند ، وستظل أنت دائماً بالنسبة لي صديقي الطيب هوبير !

ثم تعانقا عناقاً أخوياً وافترقا وكان قد أعطاها عشاً فكانت تضمه إلى قلبها وهي تعود في طريق القصر . أما هو فإنه توجه صوب منزله الحقير وهو ينظر بحنان بالغ إلى الوردة البرية التي وضعتها في عروة سترته .

وقد سار ما يقارب المائة خطوة ثم توقف عن السير وأخرج الوردة من عروته فقرّبها من ناظريه وجعل يتأملها لحظة وهو حالم ساهم ، ثم أنزلها ببطء إلى شفتيه ولامسها بها بلطف زائد ، كأنما يخشى عليها أن تنفرط ، وبخشوع أقرب إلى العبادة . ثم فك أزرار سترته ووضعها في صدره فوق القلب تماماً وعاد فزرّر

سارته عليها وهو يغمغم قائلاً :

– وأنا أيضاً سأظل وفياً لها حتى الموت . وأفضّل أن يراق دمي إلى آخر قطرة على أن أفرّط في عربون الأمانة هذا الذي أعطتني إياه وهي تقول إنها ستكون سيدتي .

وقد قال هذه الكلمات بصوت مرتفع ولهجة رصينة كأنما هو يعاهد نفسه عهداً لا يجب أن ينساه أو ينقضه . وفجأة ضرب جبهته بيده وهو يصيح قائلاً :

– هذا ما كان يجب عليّ أن أقوله لها عندما أعطتني العربون وهو ما أريد أن أقوله لها فوراً . إنها لم تبتعد كثيراً وسوف أدركها إذا أسرعت في الركض .

وكان مخلصاً جداً تجاه ضميره وهو يقول ذلك ولكن الحقيقة أنه كان يكذب على نفسه دون أن يشعر ، وكان مثل كل العشاق في الماضي والحاضر والمستقبل ، يريد أن ينظر التي يحبها مرة أخرى . وقد كان سعيداً جداً بالذريعة التي تذرع بها لنفسه للحاق بها ، فأسرع يعدو بكل قواه صوب الجهة التي سارت فيها .

هوبير

*

عندما كان الولدان يتحدثان على ما ذكرنا ، كان غاسبار بنيا كل مختبئاً بين العليّق النابت في وسط الكنيسة المهدّمة وهو يراقبها ويسمع حديثها . ولما رأى رولاند قد افترقت عن

صديقها وسار كل منهما في جهة ، خرج من مخبئه وجعل يسير وراء الطفلة مستتراً بالشوك وشجيرات الورد البري ، إلى أن أدركها عند أحد المنعطفات فانقض عليها وحملها بين يديه وانطلق يعدو بها في الاتجاه المعاكس .

وعندما عاد هوبير راكضاً ليرى صديقته مرة أخرى ، لمح رجلاً ينطلق هارباً بين أشجار الغابة وهو يحمل شيئاً بين يديه ، فلبث الغلام لحظةً كالمأخوذ وهو يقول في نفسه :

« ولكنها رولاند التي يحملها! وهو ليس من خدم الأمير لأنه يسير في الجهة المعاكسة لطريق القصر ! » .

وعندئذ نادى بأعلى صوته قائلاً : رولاند ! ... رولاند !

فلم يتلق أي جواب إلا أنه رأى الرجل الهارب يزيد من سرعته . وقد لبث لحظة أخرى فريسة للدهشة ، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه وانطلق دون أي تردد في أثر الرجل وهو يقول بعزم :

– أقسم بالله أنها خير فرصة لإظهار مهارتي في استعمال هذه الغدّارة المحشوة بالرصاص ... ويا لسعادتي لأنني لم أطلقها على بعض العصافير !

وانطلق يعدو بخفة ولكنه كان قد أضاع بضع دقائق قبل أن عاد من ذهوله ودهشته ، فسبقه بنيا كل بمرحلة قصيرة .

وكان المجرم يضم الطفلة إلى صدره بعنف وقد وضع يده على فمها بقوة فانقطع نفس الصغيرة المسكينة وأغمي عليها دون أن تطلق صرخة واحدة .

وسمع بنيا كل نداء هوبير فبدأ يركض بأقصى سرعته ، وبعد أن قطع ما يقارب الميل على تلك الحالة توقف وأصاخ بسمعه ليتأكد من أن أحداً لا يتبعه . ولما لم يسمع نأمة ولا حركة اطمأن باله وعاد يتابع طريقه ولكنه لم يكن يركض الآن بل يسير بخطوات واسعة واثقة شأن الرجل الذي يعرف وجهة سيره.

وقطع على تلك الصورة مسافة طويلة إلى أن بلغ أخيراً الجسر الخشبي فسار عليه إلى حيث كان الماء تحته أعمق منه في أي مكان سواه ، وهناك امتدت يده تبحث عن الخنجر في منطقته وقد ألقى على الطفلة نظرة هائلة ، ولكنه لم يرَ عليها أية علامة من علائم الحياة فأعاد يده وغمغم قائلاً :

– ليس من الحكمة أن نُريق الدم دون فائدة .

ثم رفع الطفلة على مدى ذراعيه وألقاها بكل قوته في النهر حيث ابتلعتها اللجة. وقد انحنى الشقي على حاجز الجسر ليتأكد من نجاح جريمته الهائلة ولم يلبث أن أشرق وجهه وانتصب قائلاً :

– لقد تم الأمر على ما يرام وسوف يحمل التيار الجثة إلى مكان بعيد بعيد ... حتى إذا اكتُشفت فلن يعرف أحد أنها جثة الأميرة الصغيرة .

وفي تلك اللحظة لمع أمام عينيه بريق خاطف ودوّى في رأسه انفجار أشبه بقصف الرعد وأحس كأن وجهه قد شُوي شيّاً فسقط على الجسر فاقد الوعي وكانت أعجوبة أنه لم يتدحرج في النهر .

إنه الفارس الصغير هوبير دي راكستان الذي أدركه أخيراً

وأفرغ في وجهه ، على قيد بضع بوصات ، غدّارته المحشوة بالبارود.

وكان هوبير الصغير لاهثاً منقطع النفس يتصبّب منه العرق بغزارة ، ولكنه لم يكن يحس بالتعب ، وكان كل همه موجهاً في تلك اللحظة إلى إنقاذ رولاند مهما كلف الأمر حتى ولو دفع حياته ثمناً لذلك . وكانت كل قواه تدفعه الى تلك الغاية ، فلم يطل تردده بل ألقى بغدّارته في النهر لأنها تضايقه في ما سوف يفعل ، ووثب إلى الماء في المكان الذي ألقيت فيه رولاند وغاص يبحث عنها في قاع اللجة الرهيبة . وقد لبث تحت الماء إلى أن كاد ينقطع نفسه وعندئذ عاد يطفو ويجذب نفساً على نفس ، ثم حل منطقته وتخلى عن سيفه الذي كان يضايقه هو أيضاً .

وبعد أن غاص وطفا مرتين أو ثلاثاً لمح الفتاة على بضعة أمتار منه وكان التيار يتقاذفها يميناً وشمالاً ، فأدركها بسرعة فائقة وأمسكها بإحدى يديه فأخرج رأسها من الماء وأخذ يسبح بيده الأخرى بقوة جدّدها اليأس في اتجاه الضفة .

ولكن نهر الواز كان سريع التيار وكان الغلام قد حل به التعب ولم يعد يستطيع المقاومة إلى أبعد من ذلك ، ولكنه لم يفقد رباطة جأشه بل ترك نفسه ينزلق مع التيار وجعل كل همه في إبقاء رأس رولاند خارج الماء وقد أخذهما التيار بعيداً ، بعيداً جداً إلى حد أن الفارس الصغير عندما تمكن أخيراً من بلوغ الضفة بحمله الثمين ، لم يكن يعرف المكان الذي خرج إليه من الماء .

ولكنه لم يبال بشيء من ذلك بل كان أول ما فعله هو أنه

ألصق أذنه فوق قلب رولاند ولم يلبث أن أطلق صيحة فرح طاغٍ وقال بصوت متقطّع :

– لك الحمد يا ربي ، إنها حية !

وخرّ مغشياً عليه ويده لا تزال متشبثة بيد صديقته الصغيرة كأنه يريد أن يحميها ويدافع عنها حتى وهو فاقد الشعور .

إننا لا نستطيع أن نحدد مدة إغمائه ولكننا نقول إنه بعد أن عاد إلى رشده التفت إلى حيث كانت رولاند فلم يجدها ، ففرك عينيه بقوة وهو يظن نفسه حالماً أو أنه لم يرَ جيداً ، ولكن الفتاة الصغيرة لم تكن هناك ... فظن أنها عادت إلى رشدها واختبأت في مكان ما لتفاجئه ، على عادتها ، فتضع يديها الصغيرتين البيضاوين على عينيه وتقول له بصوتها المرح :

– « هو هو ! ... هل تعرف من أنا ؟ » .

وقد قوي في نفسه هذا الاعتقاد حتى أنه أغمض عينيه ولبث ينتظر . ولكن اليدين العزيزتين لم تحجبا عينيه والصوت المرح لم يرن في أذنيه .

وعندئذ عاد يفتح عينيه وقد حطمه اليأس والتعب وهام على وجهه ينادي بصوت تخنقه الغصة : رولاند ! ... رولاند ... !

وكان يخوض وسط العلّيق والشوك ويبحث بيديه ورجليه ورأسه هنا وهناك ، وكانت ثيابه المبتلّة قد التصقت بجسده فتجلّدت أطرافه وارتعشت أعضاؤه برداً وآذى الشوك والعلّيق يديه ورجليه ووجهه ولكنه لم يشعر بشيء من الألم.

وبعد أن بحث في العلّيق والشوك عاد يبحث خلف الصخور

وجذوع الأشجار ولكنه لم يجد أثراً لرولاند .

وكان لا ينفك عن مناداتها بالصوت المخنوق نفسه ، ولكنه لم يكن يبكي بل كانت عيناه جافتين ثابتتين قاسيتين .

وقد لبث على تلك الحالة أكثر من ساعة ، وفجأة قال في نفسه: « يا لي من أحمق ! ... قد يكونون أتوا للبحث عنها ... ووجدوها ... وأخذوها إلى القصر » .

وانطلق راكضاً وهو يقول : سوف أجدها في القصر .. هذا مؤكد !

قدر محتوم

*

ولبث يركض في عناد وإصرار إلى أن بلغ قصر مونكابيه فدخله كأنه يدخل منزله .

وكان الأمير والمدعوون وسائر سكان القصر قد علموا باختفاء رولاند فانقلبت أفراحهم أتراحاً ، وكانوا قد بحثوا عنها في القصر وجواره وفي الكنيسة القديمة ، ولا لزوم للقول بأن أتعابهم قد ذهبت أدراج الرياح .

ولما وصل هوبير أحاط به الجميع وأخذوا يرهقونه بمختلف الأسئلة وقد فهم فوراً أنه أخطأ في ظنونه وأن رولاند لم تعد إلى القصر ، فهي قد اختفت حقيقة وقد لا يراها أبداً. فكانت الضربة قاصمة بالنسبة لهذا الغلام الذي ما أنفكّ يبذل ، منذ ساعتين ،

جهوداً تحطم أشد الرجال بأساً فضلاً عن الهزات العاطفية التي كابدها وهي أشد خطورة من التعب .

ولكنه مع ذلك قصّ عليهم ما حدث وما رآه وفعله فلم يقتنع السامعون بكلامه إذ أن الأعمال العجيبة التي قام بها كانت تتخطى حدود سنه ، ولكن أحدهم نبّه إلى أنه مبتلّ الثياب ، فانبرى آخر يقول : إنه ربما يكون قد سقط في الماء عفواً .

وكان هوبير قد سقط على الأرض في تلك اللحظة وانتابته قشعريرة مخيفة فأخذ يهذي هذياناً متواصلاً مما جعل الجميع يعتقدون بأن القصة التي رواها لم تكن إلا وليدة أعراض حمّى خبيثة أصابته فحملوه إلى منزله حيث تركوه في رعاية أخيه الكونت دي بومبينيان .

واستمر البحث عن رولاند طيلة بضعة أيام وقد وسّع الأمير نطاقه فكان يطوف ، بصحبة الدوق دي سوريانتس وبعض الخدم ، الأحراج والوديان ضمن دائرة يتجاوز قطرها بضعة عشر ميلاً . وكانوا لا يدعون علّيقة أو حفرة إلا ويفتشونها تفتيشاً دقيقاً حتى أنهم ذهبوا إلى الجسر الخشبي الذي تكلّم عنه الغلام رغم اعتقادهم بأن كلامه كان هذياناً من تأثير الحمّى .

وقد باءت جميع أبحاثهم بالفشل ، فلم يجدوا على الجسر جثة بنياكل كما أنهم لم يجدوا أي أثر لرولاند التي يلوح أنها اختفت إلى الأبد .

ولكن شيئاً واحداً لم يلاحظه أحد من سكان القصر ، أو

بمعنى أصح لم ينتبه إليه الأمير دي مونكابيه ، وهو أن غاسبار بنياكل قد اختفى هو أيضاً حسب الظواهر على الأقل .

وبعد أن تعب الجميع من البحث والتفكير انتهى بهم الأمر إلى الاعتقاد بأن رولاند ذهبت مع صديقها الصغير هوبير إلى الجسر حيث سقطت في النهر ، وأن الغلام رمى بنفسه إلى الماء بشجاعة وحاول إنقاذها من الغرق ففشل في محاولته . أما ما تبقى من قصة الصبي فقد اقتنعوا كما قلنا بأنها من تأثير الحمّى . والنتيجة أن الجميع اعتقدوا في النهاية بأن الأميرة الصغيرة اللطيفة قد غرقت وجرفها التيار إلى مكان بعيد .

وكان أقارب الأمير وخدمه يلهجون بذلك وهم يذرفون دموع الأسى واللوعة . أما الأمير فإنه كان يأبى الاعتقاد بأن طفلته المعبودة قد ماتت وأنه لن يراها أبداً .

ولم يكن مخطئاً ، لأن رولاند لم تمت في الحقيقة ، وإليك بيان ذلك :

قبل نصف ساعة تقريباً من وصول بنياكل وهو يحمل رولاند ، إلى الجسر حيث وقعت الحوادث التي رويناها ، وقفت على ضفة الواز ، غير بعيد عن ذلك الجسر ، عربة كبيرة قديمة بالية يجرها جواد هزيل ، وقد خرج من تلك العربة ثلاثة رجال وامرأة يبدو من مظهرهم أنهم من فئة الغجر الرحّل وكانوا رجلاً وامرأته وابنيها .

وجلسوا يستريحون في مكان ظليل يخفيهم عن العيون ، وبينا هم على تلك الحال سمعوا دوي طلق غدّارة هوبير فتسللوا بين

الأعشاب وهم يزحفون في اتجاه الجسر ، ولكنهم لم يروا شيئاً لأن بنيا كل كان في تلك اللحظة طريحاً على ذلك الجسر بينما كان هوبير يغوص تحت الماء للبحث عن صديقته الصغيرة .

وفجأة ندّت عن الأب صيحة تعجّب مكتومة وأشار لابنيه بطرف عينيه إلى جهة معينة ، فالتفت هذان إلى الجهة التي عينتها لهما فأبصرا هوبير يغالب التيار وهو يجرّ رولاند إلى الضفة كما وصفنا .

فتبادل الرجال الثلاثة النظرات وكان يبدو جلياً أنهم يفهمون بعضهم بعضاً بتلك الطريقة لأنهم بدأوا على الأثر يزحفون على بطونهم بين الأعشاب النامية الكثيفة في اتجاه المنقذ الصغير ، ولم يطل بهم الوقت حتى وصلوا فوقه تماماً .

وعندما رأوا الولدين منطرحين جنباً إلى جنب وهما لا يُبديان حركة ، بطل حذرهم وتردّدهم فاقتربوا منهما ، وقد تكون غايتهم من ذلك في تلك اللحظة مساعدة الصغيرين المسكينين ، ولكنهم جمدوا فجأةً في مكانهم ولبثوا مأخوذين متقطّعي الأنفاس تلمع عيونهم ببريق الطمع والجشع ... وذلك لأنهم رأوا ما تتحلّى به الأميرة الصغيرة من النفائس .

ثم انقض الثلاثة بحركة واحدة ومدوا إلى تلك الحلى أيدي قذرة فاستولوا على كل شيء بأسرع من ارتداد الطرف وعادوا على أعقابهم مسرعين.

وقد ساروا بضع خطوات ووقفوا كأنما لا يصدقون بوجود تلك الثروة بين أيديهم ، فقال الأب بصوت خشن :

— لقد باتت ثروتنا مؤمنة على ما أرى !

وقال أحد الابنين : إنها ثروة كبيرة دون شك .

فقال الآخر وهو لا يعرف إذا كان قد أحسن في القول أو لم يحسن : إنها أميرة بكل تأكيد !

وكادوا يتابعون سيرهم تاركين الصغيرين لمصيرهما ، ولكن الكلمات الأخيرة التي سمعها الأب جعلته يفكر بعض الوقت ثم يقول :

— صبراً يا ولديّ ! ليس من عادة بنات الأسر الكبيرة أن يتنزهن وحدهن في الغابات وهن متحليات بمثل هذه النفائس . وما أظن تلك الصغيرة إلا أميرة على الأقل ، وسوف تدركها حاشيتها وترى أن حلاها قد سرقت. وأين جوادنا الهزيل المسكين من جيادهم الظافرة السريعة العدو ، فإنهم سوف يدركوننا لا محالة وينتهي أمرنا نحن الثلاثة إلى الشنق .

وقد قال الغجري — أو النوري — ذلك ، وعاد وولديه إلى رولاند فحملها أحدهما وهي لا تزال غائبة عن الرشد، وأخذوها إلى العربة حيث أخفوها وأخفوا كذلك آثار نزولهم في ذلك المكان . ثم ابتعدوا بعربتهم البالية وجوادهم الهزيل بأقصى سرعة استطاعوها . وقد أدركهم الأمير مونكابيه ورجاله كما توقّع النوري الداهية في جوار بونتواز ، ولكن النور كانوا قد سمعوا غارة الجياد من بعيد فاتخذوا احتياطاتهم ، وعندما وصل الفرسان إلى العربة رأوا المرأة تصنع سلالاً صغيرة والرجل يضرب حديداً حامياً انتزعه من فرن نقّال بينما كان الولدان يبيّضان

الآتية. وكان الجميع يجلسون حول العربة وقد حلوا الجواد الذي كان يرعى غير بعيد.

ولم يكن في هيئة هؤلاء الغجر ما يدل على أنهم يفرون أو يهربون، وقد أجاب الأب وحده على جميع أسئلة الأمير باطمئنان الرجل النقي الضمير الطاهر الذيل وبلطفه، ولم يخفَ عليه أن الأمير لا يزال يرمقه، رغم ذلك، بنظرة شك، فقال وهو ينحني باحترام:

– أرى أنك تشك فيّ يا مولاي، ولذلك أرجو أن تتنازل وتتفضل بالدخول إلى عربتي المتواضعة وهكذا تقتنع بنفسك بأن الطفلة التي تبحث عنها غير موجودة فيها.

وكان يقول ذلك بهدوء واطمئنان مما جعل الأمير يرفض العرض. ولكن الغجري ألح يقول:

– أرجو أن تتفضل يا مولاي بزيارة عربتي، أتوسل إليك أن تجعلها منّة منك لشخصي الحقير.

فقام الأمير بتلك الزيارة ولكنه لم يجد أثراً لرولاند...

وعندما ذهب مع أتباعه وابتعدوا عن المكان عاد النوري يشد جواده إلى العربة ويبتعد بأقصى سرعة.

وكانت رولاند ممددة في إحدى الصناديق وهي تحت تأثير هذيان شديد، تماماً كما حدث لهوبير، أصابها على أثر عودتها إلى رشدها، وكانت النورية تفسر ذلك وهي تهز رأسها قائلة:

– إنها حمّى خبيثة!

ولكن تلك المرأة الغجرية لم تكن شريرة رغم كل شيء

فبدأت العناية برولاند بعطف وحنان كما لو كانت ابنتها، وكانت فوق ذلك على علم ببعض قواعد الطب.

يوم ١٨ أيار عام ١٥٦٥

*

وبعد أربعة أو خمسة أيام كان الجميع قد اقتنعوا تماماً بأن الأميرة الصغيرة رولاند غرقت في نهر الواز وأنها الآن بين ملائكة السماء.

ولكن الوالد المسكين بقي مصرّاً على عدم الاعتقاد بمصيبته وكان يتابع وحده، أبحاثه بعناد فيمتطي جواده كل صباح وينطلق إلى الغابات فلا يرجع إلا عند المساء، وقد بدا حزيناً متجهماً محطماً كأنما قد تقدّم به العمر عشر سنوات دفعة واحدة.

وكان الكونت دي بوميينيان خلال تلك المدة منهمكاً في العناية بأخيه هوبير إلى حدّ أنه لم يفكر مطلقاً بالفارسة الجميلة والأمير دي مونكابيه، أي بالشخصين اللذين يمثلان حبه وبغضه. مما يدل على تعلق الكونت الصادق بأخيه.

وكان هوبير متعباً جداً ولكن حالته مع ذلك لم تكن من الخطورة بما يضاهي حالة رولاند الصغيرة المنكودة. وقد استدعى الكونت طبيباً لعلاجه فطمأنه هذا وتعهد له بأن يشفي أخاه، ولكنه قال إن زمن العياء سوف يطول وإن النقاهة ستكون

أطول .

وفي ذلك اليوم، أي في السابع عشر من أيار ، كان الكونت قد اطمأن قليلاً إلى حالة أخيه الصغير فذهب يتنزّه سيراً على الأقدام ، ووصل في سيره إلى الكنيسة المهدّمة دون أن يشعر .

وفجأة انتصب أمامه شبح امرأة عرف فيها فارسته المعبودة؛ وكانت ملتفّة على عادتها بالمعطف الرمادي الطويل ومعتمرة بالقلنسوة التي تخفي رأسها ووجها ، ولكنه عرفها مع ذلك من دقات قلبه الذي كان يقفز في صدره بعنف ، ومن الخاتم الذهبي البسيط الذي تلبسه في إصبعها والذي تحلّيه الياقوتة الكبيرة السداسية الشكل .

وقد خاطبته فوراً قائلة بصوت موسيقي ولهجة باردة مهددة:

— ماذا تنتظر ؟ ! لقد دلوك على العقبة ومع ذلك فهي لا تزال قائمة... وتقول إنك تحبني فاذا كنت تحبني حقيقة فيجب أن تنفّذ الأمر قبل مضي يومين وإلا فانك سوف تفقدني إلى الأبد .

ودارت على عقبيها وأكملت جملتها الأخيرة وهي تنساب بين الشوك والعلّيق عائدة إلى القصر كأنها سرّ من أسرار الطبيعة .

فأراد الكونت أن يكلمها مهما كلف الأمر ، وكان يراها جيداً، وكانت المسافة تقصر بينه وبينها وهي لا تغيب عن نظره. ومدّ يده أخيراً وهو يظن أنه أمسكها ، ولكن يده أطبقها على الفراغ . لقد انزلقت من بين أصابعه دون أن يشعر أنه يلمس جسماً واختفت أمام ناظريه دون أن يعلم كيف اختفت وقد ظن أنه تبع ظلاً شيطانياً وليس امرأة من لحم ودم .

واعتراه خوف شديد من تلك الرؤيا التي عدّها من الخوارق فانطلق هارباً وعاد إلى منزله حيث قضى ليلة هائلة رهيبة وكان ضميره يثور ضد الجريمة الشائنة التي يفرَض عليه ارتكابها بينما يحاول هو خنق صوت هذا الضمير الذي رجحت كفته في بادىء الأمر ولكن الغرام انتصر أخيراً ومات ضمير الكونت .

وفي الصباح كان قد حكم على الأمير دي مونكابيه بالموت للمرة الثانية ولكنه هذه المرة ، قرر أن ينفّذ حكمه في ذلك النهار نفسه ، فتقلّد سيفه الطويل وشكّ في منطقته سكيناً كبيرة من سكاكين الصيد، ثم امتطى جواده وذهب وهو متقلّص الملامح أشعث الشعر مشتعل العينين إلى قرب قصر الأمير حيث اختبأ يراقب خروجه .

وخرج الأخير وحده ، كعادته منذ مدة ، وانطلق بجواده في الأحراج على غير هدى . وكان الأب المنكود يأمل دائماً في اكتشاف أثر يقوده إلى ابنته رولاند. وكان بومبينيان يتبعه عن بعد وهو يراقب جميع حركاته وسكناته ولم يكن يستتر، وقد سنحت له الفرصة ليرديه أكثر من عشر مرات ولكنه لم يغتنمها لأنه أنف أن يضربه من الوراء فلبث ينتظر فرصة أكثر ملاءمة .

وقد سنحت تلك الفرصة بعد مضي أكثر من ساعتين وكان الرجلان قد توغّلا بعيداً في الأحراج دون أن يشعرا لأن الأمير كان يسير مع وجهه مباشرة ويظهر أن التعب أدركه أخيراً فوقف في فسحة حيث ترجّل عن جواده وجلس على حجر .

فترجّل بومبينيان بدوره وتقدّم منه بوجه كالح يفيض حقداً

وعينين دمويتين وقد تأهب لضربه الضربة القاضية .

ولكنه لم يضرب بل وقف على قيد خطوات منه حيث لبث جامداً مضطرباً . وكان الأمير دي مونكابيه في تلك اللحظة يدفن وجهه بين راحتيه ويبكي بدموع غزيرة وهو لا يلقي بالاً إلى كل ما حوله ، وكان بومبينيان يتابع حركات كتفيه اللتين يهزّهما الشهيق المتواصل بعينين تلتمع فيهما بوارق التأثر وهو يقول في نفسه :

« لا أستطيع ضربه أثناء بكائه على ابنته ... لننتظر ... » وانتظر أيضاً . ولكن خُيّل له أنه يسمع في داخله صوت السيدة ذات الياقوتة الدموية ، صوت هرموزا على حدّ ظنه ، يعيد عليه هذه الكلمات : « بعد يومين ، سيفوت الأوان وتفقدني إلى الأبد » . فعصف الغرام بكيانه وسيطر عليه من جديد وتفجر حقده وطغى على الشفقة التي تولدت في أعماق قلبه .

وتردّد مرة أخيرة ثم نادى الأمير قائلاً بلهجة جارحة :

– هولا أيها السيد ! هيه أيها السيد !

فرفع الأمير نظره إليه وهو متعجب فأردف الكونت يقول : نعم ، إني أكلمك أنت .

فتألم الأمير من لهجته وقال باحتقار : ماذا تريد مني ؟

– أريد أن تعلم أني أبحث عنك منذ مدة طويلة لأقول لك إنني أكرهك ... أكرهك ، أتسمع ؟ وأحقد عليك حقداً قاتلاً : والآن وقد وجدتك ، فاعلم أني أريد قتلك . فجرّد سيفك ودافع عن نفسك .

– أنا لا أعلم إذا كنت أحمق أو معتوهاً ، ولكن من المؤكد أنك لست مهذباً أيها الفتى .

فزأر بومبينيان قائلاً بصوت مبحوح : أنا ما يحلو لي أن أكون ولست مستعداً أن أتلقى دروساً من أحد ... وبصورة خاصة منك أنت !

فقال الأمير ببرودة : إنك مخطىء ، ويلوح لي أنك بحاجة شديدة الى درس ...

فقاطعه بومبينيان قائلاً : جرّد سيفك أيها السيد ، جرّد سيفك ... ألم تسمع ما قلت لك من أنني أريد قتلك ؟

– أنت مجنون أيها السيد فإن الرجال لا يقاتلون الأولاد .

– إنك تقول هذا القول لأنك تخافني . فلا تُطل الشرح وجرّد سيفك وإلا أصفعك لأوقظ فيك الشجاعة .

وتقدّم رافعاً يده ، فجرّد الأمير سيفه بأسف ظاهر وكان هذا ما ينتظره بومبينيان. كان يريد أن يرى سلاحاً في يد خصمه ليبرّر بينه وبين نفسه الفعلة القبيحة التي قرّر الإقدام عليها ولذلك فانه لم يدع للأمير الفرصة ليقف وقفة الحذر بل جرّد سكّين الصيد الكبيرة بسرعة البرق وأغمدها في صدره حيث غاصت الى قبضتها .

فسقط الأمير على ظهره كتلة واحدة دون أن يطلق صيحة أو أنّة . لقد قتل فوراً وكان موته صاعقاً .

فتأمله الكونت لحظة بعيني مذعور ثم أخرج سكّينه من صدره ومسح شفرتها بالعشب المبتلّ وقفز الى صهوة جواده

واختفى .

وقد خدمته الصدفة فلم يره أحد لا عندما كان يقتفي أثر الأمير ولا في عودته الى منزله .

ووصل الى المنزل فدخل فوراً قاعة السلاح وأقفل الباب وراءه ثم غسل السكّين بعناية وعلّقها في مكانها المعهود وهو يفكر قائلاً في نفسه :

« لقد أزلت العقبة وأصبحت هرموزا لي . »

ووُجدت جثّة الأمير في اليوم التالي وجيء بها الى القصر وقد أحدث موته على تلك الصورة ، بعد ستّة أيام من اختفاء ابنته ، حزناً عميقاً وتأثيراً شاملاً في المقاطعة كلها . ولكنّ أحداً من الناس لم يشتبه في أن الأمير المنكود قد قتل غيلة وغدراً لأن يده عندما وجدوه ، كانت لا تزال متشبثة بقبض السيف مما جعل أهل المقاطعة يفترضون أنه بارز نبيلاً مجهولاً وشاء سوء حظه أن يُقتل في تلك المبارزة .

وقد أظهر كل من هرموزا وجوسلين والدوق دي سوريانتس ، في ذلك الظرف ، لوعة وألماً عميقين يضاهيان اللوعة والألم اللذين أظهروهما عندما اقتنعوا بموت رولاند. وقد خُدع الجميع بتلك المظاهر فقدموا لهم التعازي بإخلاص وصدق . وبعد شهرين من تلك الحوادث فُتحت وصية الأمير دي مونكابيه التي كتبها قبل اختفاء ابنته الحبوبة بثمانية أيام ، وعدّلها بعد بضعة أيام من اختفائها ، فوجدوا الأمير المنكود يوصي بثروته العظيمة الى ابنتي عمه الطيبتين دليلة دي هوتفور وجوسلين دي هوتفور دوقة دي

سوريانتس .

وبعد بضعة أشهر من امتلاك السيدتين دي هوتفور لتلك الثروة الأسطورية ، أعلنتا أنهما لم تعودا تستطيعان رؤية الأمكنة التي انقضّت عليهما فيها المصيبة تلو المصيبة ، ونزحتا مع الدوق دي سوريانتس الى باريس حيث قرّر الجميع أن يقيموا نهائياً .

وكان هوبير خلال تلك المدة قد أبلّ من مرضه فتركه أخوه الكونت في رعاية الخادم الوحيد الذي بقي أميناً لهما في بؤسهما ولحق بالسيدتين والدوق الى باريس .

أما غاسبار بنيا كل فقد قلنا إنه اختفى على أثر الطلقة التي أصابه بها هوبير في وجهه ومن الممكن أنه لا يزال في المقاطعة .

ورولاند المسكينة ، ما تراه حصل لها ؟

إن الأميرة الصغيرة نجت من الحمّى بفضل عناية النوريّة العجوز . وقد عادت الى نفسها بعد شهرين طويلين قضتهما في الهذيان والغيبوبة وكان أول ما فعلته ، عند عودة وعيها إليها ، أنها تأمّلت المكان الموجودة فيه والأشخاص الذين يحيطون بها بدهشة شديدة وقالت بصوت ضعيف :

ـ أين أنا ؟

فأجابتها النوريّة العجوز قائلة :

ـ ولكنك في بيتك ... ألعلّك نسيت بيتك النقّال ؟

ثم تأمّلت الطفلة لحظةً بكل انتباه وهي تقول في نفسها :

« لنرَ إذا كانت تتذكر . »

ولكن ، للأسف ، لم يظهر على رولاند أنها تذكّرت شيئاً

بل عادت تتأمّل المكان الحقير كأنها تراه لأول مرة ولكن ليس بالاحتقار الذي ينمّ عن أنها تتذكّر قصرها الفخم وعيشتها المترفة وقالت بلامبالاة :

– أنا في بيتي إذن ؟ وأنتِ ، من تكونين؟

فقالت النوريّة بتأثّر :

– أيتها العذراء القديسة ! أتسألين من أنا ؟ ولكني أمّك !

وقالت في نفسها :

« إنها لا تتذكّر ! ولا بدّ أن في ذاكرتها صدعاً . »

ولم تكن العجوز مخطئة في ظنّها لأن رولاند بدت كأنما بدأت حياتُها منذ اللحظة التي استعادت فيها وعيها فقالت :

– وأنا ، من أكون ؟

– أنت ريون دور .

فابتسمت قائلة : اسم جميل !

فقالت العجوز مخلصة : ولكنه ليس أجمل من الذي تحمله .

وكان الجهد الذي بذلته رولاند قد أتعبها فنامت وهي تغمغم قائلة بابتسامة لطيفة :

– إنني ريون دور .

وحيدة

*

ونجت رولاند الصغيرة اللطيفة من الموت بفضل عناية النورية

العجوز وخبرتها وعادت تتابع سيرها في ركب الحياة وقد ساعدتها بنيتها القويّة في استعادة صحتها ونشاطها المعهودين .

ولكنّ الصدع الذي في ذاكرتها لم يلتئم ، فلبثت لا تتذكّر شيئاً من ماضيها كأنما حياتها قد بدأت منذ اللحظة التي نجت فيها من الحمّى الخبيثة ورأت نفسها في عربة النّور .

وقد علّمتها العجوز ماتالينا حياكة القشّ فبدأت مهنتها الجديدة تحت إشرافها ولكنها تفوقت بسرعة على معلّمتها نظراً لحسّها الفنيّ الدقيق المرهف، فكان يطلع من بين أصابعها الصغيرة الماهرة أشياء هي غاية في الجمال ودقّة الصنع. وتعلّمت أن تبيع إنتاجها أيضاً وقد وجدت صعوبة في ذلك في بادىء الأمر ولكنها كانت ظريفة لطيفة لبقة الى حدّ أنها تفوّقت، هنا أيضاً، على معلّمتها .

ومضى الزمن وانصرمت الأيام والأسابيع والشهور والأعوام ولم تعد الذاكرة الى رولاند ، وكانت ماتالينا تسألها دائماً بطريقة غير مباشرة ، عن أمور تتعلّق بماضيها فكانت تجيبها أجوبة تستدلّ منها العجوز على أنها لا تتذكّر شيئاً مما جرى لها قبل أن تصيبها تلك الحمّى الخبيثة التي نجت منها بأعجوبة ، وكان جلياً أنها صادقة في ما تقول . ولما كانت تعتبر هؤلاء النّور الرحّل أهلها، وكانوا من جهتهم يتحاشون الإشارة الى ماضيها ، فلم تكن تشتبه في أي شيء من ذلك الماضي وكان ممكناً جداً أن تضحك بملء فيها إذا قيل لها إنها كانت أميرة صغيرة وإحدى أغنى أميرات المملكة الفرنسية إن لم تكن أغناهنّ .

وطافت ربون دور مع عائلتها الجديدة فرنسا كلها من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب . ولمّا كانت ، فيا يتعلّق بحياتها الجديدة ، متمتّعة بذاكرة ممتازة ، فانها أصبحت تعرف فرنسا كلها معرفة وثيقة ما عدا باريس لأنها لم تدخلها أبداً ولم تكن عائلتها تقترب من تلك المدينة لسبب مجهول .

ومضت شهور وأعوام أخرى ونزلت المصائب بعائلة النّور فتشتّت شملها وهرب بكر الأخوين في أحد الأيام وحمل معه جميع الحلى التي سرقوها من رولاند وكان يأمل دون شكّ أن يكون أسعد حظاً من أبيه فيستطيع تصريفها ولكنه لم يعد أبداً .

وذهب الأخ الأصغر بعد مدة وقد ألقى القبض عليه في إحدى الليالي ، وكان يقوم بعمل مخلّ بالقانون ، فلم يُعرف ما إذا كان قُتل أثناء توقيفه أو حُكم عليه بالإعدام ونُفّذ فيه الحكم أو ألقي في بعض السجون أو أرسل للتجذيف في سفن الملك . وفي جميع الأحوال فانه ، كأخيه ، لم يعد أبداً .

وبعد مدة أصيب النوري العجوز بجرح أثناء ممارسته الحدادة فأهمل أمر العناية به فتسمّم دمه ومات .

ولبثت ربون دور مع العجوز ماتالينا وكانت تبكي من كل قلبها على هؤلاء الذين تظنّهم أباها وأخويها . ولم ترَ العجوز من المناسب أن تطلعها على حقيقة أمرها ، ولكنها لمّا رأت نفسها وحيدة مع تلك التي كانت تدعوها ابنتها ، قرّرت فجأة أن تذهب الى باريس وكانتا موجودتين آنذاك في البروفانس ، فتوجّهتا الى العاصمة ببطء وعلى مراحل صغيرة .

وفي أحد الأيام سقطت ماتالينا العجوز فجأة وشعرت بالنهاية الرهيبة تزحف نحوها وقد استولى الرعب والألم على ربون دور فارتمت على تلك التي كانت تدعوها أمها وهي تبكي وتشهق قائلة :

– أمي ، أمي ! أتريدين أن تتركيني دون كلمة وداع ! إنك لن تموتي يا أمي العزيزة ... قولي إنك لن تموتي ...

فرفعت العجوز رأسها واستطاعت بجهود يائس أن تحلّ عقدة لسانها لتقول بصوت واضح :

– إنها النهاية يا ربون دور ، إنني أموت !

فشهقت ربون دور قائلة :

– سوف أعتني بك وأنقذك من الموت يا أمي العزيزة .

فظهرت على وجه المنازعة شفقة عظيمة وقالت لاهثة :

– أمّك ، يا للطفلة المسكينة ! ... لتساعدك السماء وتجعلك تجدين والديك ...

فغمغمت ربون دور تقول بتأثّر :

– يا لله ! إنه هذيان الموت ! عودي الى وعيك يا أمي العزيزة ، ألعلّك لم تعودي تعرفين ابنتك ؟ ... صغيرتك ربون دور ؟

فقالت المنازعة بحشرجة هائلة :

– أنا لست أمّك ... ولست ِ ابنتي ... إنك لا تُدعَين ربون دور ...

فقالت ربون دور وهي تنتحب : يا ملائكة السماء ، أشفقوا على أمي وعليّ !

فقالت المنازعة بجهد كبير :

– تذكّري ... جسر نهر الواز ... هناك بين أوفير وإيل أدام .. تذكّري .. إنك لست ابنتي .. الجسر .. تذكّري ..

وسقط رأسها وفارقت الحياة وفي هيئتها ما يقول أيضاً : « تذكّري » .

وكانت ريون دور تكرّر كلام الميتة قائلة بلهجة آلية :

– أنا لست ابنتها ! ولا أدعى ريون دور .. جسر الواز .. بين أوفير وإيل أدام ... تذكّري ...

ودُفنت ماتالينا العجوز بالإكرام اللائق وحزنت ريون دور حزناً عظيماً على تلك التي كانت تصرّ دائماً على أن تدعوها أمّها ورأت الفتاة نفسها الآن وحيدة في هذا العالم دون قريب أو صديق .

وبعد أن قامت بجميع واجباتها تجاه الغجرية العجوز تخلت عن العربة التي لم تعد ذات فائدة بعد أن باعت الجواد وأنفقت ثمنه على دفن «أمّها» ، وسارت في الطرقات الكبيرة قاصدة باريس.

ولم تكن قد فهمت جيداً كلمات العجوز ماتالينا الأخيرة ، ولذلك فانها لم تقتنع بها بل كانت تظنها نتيجة طبيعية للهذيان الذي يسبق الموت . ولكن تلك الكلمات أثّرت فيها ، مع ذلك ، تأثيراً كبيراً ولبثت محفورة في ذاكرتها وكانت تفكّر فيها غالباً وتأخذها بصورة جديّة في بعض الأحيان ، فكانت تطرح على نفسها أسئلة لا نهاية لها ولكنها لم تكن تستطيع الإجابة عن أي من تلك الأسئلة . وكانت تحلم أحياناً وهي سائرة

في الطرقات فتقول في نفسها :

« من يعلم ؟ فربما أكون أميرة حقاً ! ... »

ثم تهزّ رأسها وتنفجر ضاحكة هازئة بنفسها وبالفكرة الطائشة التي عنّت لها .

رَفيقان في المحنة

*

وكانت تسير في طريق باريس ببطء شديد وهي تحمل على ظهرها بعض القشّ الذي تستعمله في صناعتها وبعض المؤن . ولكن باريس بعيدة جداً ، وكانت ريون دور على تمام اليقين من أنها لن تصل إليها قبل شهور وشهور لأنها لم تكن تستطيع السير طوال الوقت ، بل كان يتحتّم عليها أن تكسب شيئاً يقوم بأودها فكانت تقضي هنا وهناك بعض الوقت في صنع السلال الصغيرة وبيعها . وكانت كبرياؤها تأبى عليها التسوّل لتعيش ، كما أنها كانت أشرف جداً بطبعها من أن تلجأ الى بعض السرقات كما كان يفعل في بعض الأحيان «أبوها وأخواها» ولم يكن يلزمها الكثير لقوت يومها فكانت تربح ذلك القوت من شغلها. ولكل تلك الأسباب كان سيرها الى العاصمة على مراحل صغيرة وقد بدأت تعتقد أنها لن تستطيع الوصول إليها قبل بضعة أعوام .

وفي أحد الأيام كانت جالسة على حافة خندق بجانب الطريق الكبير ، وكانت تحسّ في ذلك اليوم بالتعب والحزن أكثر من

أي يوم مضى ، وكانت عيناها المبتلّتان بالدمع تجولان على مدى الطرف في الطريق الذي قطعته ، وإذا بها تلمح في البعيد البعيد نقطتين سوداوين تتحرّكان ، فأثارت رؤيتها اهتمامها ونزلت بها من عالم الأحلام الى عالم الواقع وقد تنبّه فيها الحذر فجعلت تراقب هاتين النقطتين اللتين كانتا تتّجهان نحوها بدقة كبيرة وهي على تمام الاستعداد للاختباء فيما إذا كانتا تشكّلان خطراً يهدّدها .

وقد نفّذت احتياطها فعلاً فانزلقت الى الخندق حيث أصبحت على يقين من أن أحداً لن يراها في مخبئها وتابعت المراقبة بنظرها الفتيّ الحادّ ولم يطل عليها الوقت حتى عرفت ما تريد فقالت بصوت مرتفع :

– ماذا يفعل هذان الكلب والحمار بعيدَين عن كل عمران ؟ وماذا يخيفهما ؟ إن القلق يظهر عليهما بوضوح ... أهما ضالان يا ترى ؟ يا للحيوانَين المسكينَين !

ولم تكن ربون دور مخطئة في ملاحظتها فان تصرّف الحيوانين لم يكن طبيعياً . وقد أشفقت عليهما وتأكّدت من أنها أمام كائنين شقيّين مثلها وربما يفوقانها تعاسة .

ووصل الحيوانان إليها فوقفا أمامها جامدين كأنما يطلبان منها المساعدة . فتأثرت ربون دور وأخذت تداعب الكلب وفهمت أنهما يتضوّران جوعاً فأخرجت من صرّتها بعض الطعام وتقاسمته مع الحيوانين اللذين ساقتهما إليها الصدفة .

ولمّا انتهى الثلاثة من الأكل أرادت ربون دور أن تتابع

طريقها فتبعها الحمار والكلب وهما يظهران سرورهما بمختلف الحركات .

وكانت ربون دور سعيدة بتلك الرفقة ولكنها لم تكن مطمئنة وكانت تخشى أن يأتي صاحب الحيوانين فجأة فيتهمها بسرقتهما مما يؤدي بها الى التورّط في مشاكل هي في غنى عنها .

ولكنها كانت مخطئة في قلقها وكانت قصة الحمار والكلب تتلخص بأنهما كانا ملكاً لرجل فظّ الطباع قاسي القلب فكان يضربهما ويسومهما العذاب ليجعلهما يقومان ببعض الحركات البهلوانية التي تستأثر باهتمام الناس ، وكانت غايته من ذلك أن يطوف بهما المدن والقرى ويكسب من ورائهما رزقه . ولكن الرجل كان قد أوقف منذ ثمانية أيام لارتكابه عملاً مخلاً بالقانون وحكم عليه بالتجذيف في سفن الملك مدة خمسة أعوام ، وكان في ذلك خلاص الحيوانين المنكودين من الاستبداد والظلم .

ولكن أنّى لربون دور أن تلمّ بتلك التفاصيل؟ فكانت رغم سرورها لوجودها برفقة هذين الصديقين، ورغم محبتها لهما، تخشى أن تحتفظ بهما خوفاً من ظهور صاحبهما فلبثت متردّدة في قرارها وكانت تريد الاحتفاظ بهما ولا تجرؤ على ذلك .

وقد حفزها الكلب والحمار على اتخاذ القرار النهائي فتقدّم الأول منهما وحمل بفمه إحدى الصرر وجعل يمشي بلطف ورصانة .

ورأى الحمار ما فعله الكلب فاقترب بدوره من الفتاة وقدّم لها ظهره بعد أن لمسها برأسه بلطف كأنما يقول لها: وماذا تنتظرين؟ ضعي كل ما تحملينه على ظهري وامتطيني بدورك فإنني لن أحسّ

بأي تعب من جراء ذلك . »

وكان من البديهيّ أنهما يقومان ببعض الحركات التي درّبهما عليها مالكها السابق ، فحمدت ريون دور الصدفة التي ساقت إليها حيوانين مدرّبين يستطيعان أن يؤدّيا لها خدمات ذات قيمة، ولكنها لم تكن تفكّر في تلك اللحظة إلا في شيء واحد وهو أن هذين الحيوانين يريدان أن يرتبطا بخدمتها، فطابت نفسها وصاحت قائلة :

– إذن أنتما تريدان أن أكون سيدتكما ؟

فوضع الكلب الصرّة التي يحملها على الأرض وبدأ يدور حولها وهو ينبح بسرور بينما أطلق الحمار أدواراً من النهيق ردّدت صداها الجبال والأودية ، فقالت ريون دور :

– حسناً ، لقد قبلت بما تريدان فاسمعا الآن: أنا أدعى ريون دور ومن المؤكد أن لكما اسمين أنتما أيضاً ولكنني أجهلهما كما أنكما لا تستطيعان أن تقولا لي إياهما ، فيجب إذن أن أعطيكما اسمين آخرين.

ثم فكّرت قليلاً وقالت !

– أنت يا صديقي الكلب ستُدعى بولو ! وأنت يا رفيقي الحمار ستُدعى فرنغو .

الفرقة تزدهر

*

وسار الثلاثة في طريق باريس وكان بولو يمشي في الطليعة فينطلق طوراً الى الأمام كالسهم المارق ويعود تارة الى الوراء ليقفز حول ريون دور وهو ينبح بمرح . أما فرنغو فانه لم يكن يحسّ مطلقاً بالصرر التي يحملها ، وكان يمشي في هدوء الى جانب الفتاة وهو يرمقها بنظرات لطيفة .

ولم تعد ريون دور تشكو الوحدة فلها الآن صديقان أمينان مخلصان، وقد بدأت تحبهما بكل ما في قلبها الطاهر من العواطف الصادقة . وكانا ، من جهتهما ، يبادلانها هذا الحبّ بكل ما في طبيعتهما الأليفة من الطيبة .

وقد اضطلعت الفتاة طيلة مدة من الزمن بأعباء إطعام صديقيها ، وكان يكفي لذلك أن تصنع بعض السلال زيادة عن المعتاد . وفي أحد الأيام اكتشفت ، بدهشة شديدة ، أن الحيوانين قد أغنياها عن كل عمل وبدآ يؤمّنان الطعام لها ولهما بسهولة تامة .

وتفسير ذلك أنها كانت جالسة في أحد الأيام في ساحة إحدى القرى قرب عين ماء وهي منهمكة في صنع السلال فلم تلاحظ اجتماعاً كبيراً عقد حولها . وكان الناس ينظرون إليها متعجبين، فظنّت أن ذلك بسبب ثيابها المزركشة الكثيرة الألوان أو بسبب جمالها الذي يلفت النظر ، أو أخيراً بسبب بولو وفرنغو اللذين لا

يفارقانها قيد شعرة .

فرفعت رأسها فجأة ورأت جميع الأنظار مصوبة عليها فحاولت النهوض والابتعاد عن تلك الساحة ، وعندئذ لبثت جامدة مدهوشة كأنما سُمرت في مكانها وفهمت فوراً سبب اجتماع الناس فانفرجت أساريرها بعد عبوس وأخذت تتابع ما يجري حولها بإعجاب شديد . ومن الطبيعيّ أن يكوّن الناس تلك الحلقة حولها وقد رأت في وسطها بولو يقف على قائمتيه الخلفيتين وهو يقفز ويمرح ثم بدأ يدور في الحلقة ماشياً كما يمشي الناس ، وكان ينبح بلطف وظرف كأنه يتحبّب الى الجمهور . وليس هذا كل شيء، فإنه كان يدفع بقائمتيه الأماميتين هذا وذاك من المتفرجين ويرغم الذين يتقدمون على التراجع ، وكان يفعل ذلك بلطف وكياسة .وقد فهم الجمهور أنه يريد توسيع الحلقة فأجابوه الى ما يريد . ولمّا رأى الكلب النبيه أن الحلقة قد اتّسعت بما فيه الكفاية تقدّم على قائمتيه الخلفيتين ووقف في وسطها حيث استدار في مختلف الاتجاهات وهو ينبح في لطف كأنه يحيّي الجماهير .

وقد فهم الجميع دون أي التباس أن التحية والنباح معناهما :

« إنتبهوا فسوف نبدأ . »

فخيّم الصمت على الحاضرين وقد استبدّ بهم الفضول لمعرفة ما سوف يحدث وكانوا قد بدأوا يضحكون من هيئة بولو الرصينة .

وذهب بولو فأتى بفرنغو الذي انتصب بدوره على قائمتيه الخلفيتين . ولمّا أصبح كل منهما واقفاً على هذه الصورة أنزل الحمار قائمته الأمامية اليمنى قليلاً بينما رفع الكلب قائمته

الأمامية اليسرى ولامس بها القائمة التي أدلاها الحمار فبدا عليهما كأنما يأخذ كل منهما بيد الآخر تماماً كما يفعل النبيل الذي يقود سيدة جميلة . وقد تقدّما على تلك الصورة الى منتصف الحلقة حيث سلّما على الجمهور بهيئة رصينة رسمية .

فارتفعت القهقهات من كل جانب ودوت الأكف بتصفيق حادّ متواصل فأعرب الحمار والكلب عن شكرهما بتحية جديدة وعاد بولو ينبح بقوة كأنه يقول : «إنتظروا فإننا لم ننتهِ بعد.»

وعندئذٍ أخذ فرنغو يدور وحده في الحلقة ، واقفاً على قائمتيه الخلفيتين ، وهو يحيّي الجميع ويطلق نهيقاً عالياً معبّراً .

وعندما أنتهى كل ذلك حدث ما لم يتوقعه أحد ، حتى أن ريون دور نفسها أعجبت به أكثر من أي متفرج ، وهو أن بولو أمسك بسلة صغيرة بين أسنانه ودار بها على الناس باطمئنان الواثق من أنه قام بعمل يستحقّ المكافأة ، فتساقطت القطع النقدية في السلّة الصغيرة بكمية قدّرتها ريون دور ، وهي تكاد تطير فرحاً ، بما يعادل أرباح ثمانية أيام من صنع السلال وبيعها .

ومنذ ذلك اليوم بدأ بولو وفرنغو يؤمنان الطعام لريون دور ولهما . وقد أدخلت الفتاة ، بما لها من الذوق المرهف ، بعض التحسينات على تلك المهنة الجديدة ففصّلت لفرنغو ثوباً جميلاً من القطن ذا قبّة عريضة واسعة تتدلّى على الصدر بطريقة يفهم معها من يراه أنه يمثّل «سيدة» يأخذ بيدها سيد. وكان السيد هو بولو الذي ألبسته الفتاة قبعة يزينها الريش وطوّقت خصره بحزام

يتدلّى منه سيف من الخشب كما شدّت الى « قدميه » قطعتين من الخشب بشريط وردي اللون فأصبح يُسمع وقع خطواته على البلاط بوضوح وجلاء مما خلع عليه منظراً هزلياً يُضحك الثكلى .

ولما تم تجهيز الفرقة على هذا الشكل الرائع أخذت ريون دور تتولّى بنفسها مهمة إدارة العرض وقد نالت نجاحاً منقطع النظير فزاد دخلها زيادة ملموسة وذاع صيتها في كل مكان وعاشت مطمئنة ناعمة البال .

باريس

*

وكانت تلك الأيام أسعد أيام الفتاة التي أصبحت النورية – أو الغجرية – ريون دور ، والتي لا تتذكّر أنها كانت الأميرة رولاند دي مونكابيه .

ولكنها مع ذلك لم تنسَ الكلمات التي قالتها لها ماتالينا العجوز وهي على فراش الموت ولم تنسَ أيضاً أن النورية كانت تريد أن تذهب بها الى باريس .

وكانت الفتاة تسير في اتجاه العاصمة ولكنها لم تكن على عجلة للوصول إليها فكانت تطوف هنا وهناك وتعود أحياناً على أعقابها وتطيل الإقامة حيث يحلو لها وحيث يستقبلونها استقبالاً حسناً .

وقد أمضت سنتين على تلك الحالة الى أن وصلت فجأة الى باريس دون أن تعلم وربما دون أن تقصد .

ودخلت الى العاصمة من باب مونمارتر في أحد الأيام الصاحية وكانت السماء صافية الأديم والشمس ترسل أشعّتها اللطيفة فتبعث الدفء والنشاط في الطبيعة والكائنات الحيّة . وكان دخولها حدثاً مدهشاً حقاً إذ أنها كانت قد ألبست رفيقيها زيّ الاستعراضات التي يقومان بها ، أي أن فرنغو كان يرتدي ثوبه الجميل الذي يظهره بمظهر السيدة بينما كان بولو يرتدي قبّعته ذات الريش ويتقلّد سيفه الخشبيّ ويُسمع وقع حذائه الخشبيّ على بلاط الشارع .

ولم تكد الفرقة تسير مائة خطوة داخل المدينة حتى تألّب حولها جمهور غفير وبدأ الاستعراض فوراً . وقد نال بولو وفرنغو في ذلك اليوم نجاحاً كبيراً جداً تضاءل أمامه كل نجاح سابق وازداد دخل ريون دور ازدياداً لم تجرأ على التفكير فيه حتى في أحلامها ، فضلاً عن أنها ربحت من بيع السلال مبلغاً كبيراً جداً .

وعند حلول المساء كانت الفرقة قد قدّمت أكثر من عشرة استعراضات وكان التعب قد أنهك قوى الجميع ، ولكن كيس ريون دور كان منتفخاً بالقطع الفضية التي يلتمع بينها بعض القطع الذهبية ، وقد أعربت عن رضاها قائلة لرفيقيها :

– أقسم بالعذراء القديسة أننا إذا تابعنا السير على هذا المنوال في باريس الجميلة فسوف نصبح من الأغنياء قبل مرور سنة ، وعندئذٍ نشتري بيتاً صغيراً مع حديقة جميلة ونعيش على هوانا

دون أن نقوم بأيّ عمل الى آخر أيام حياتنا .

وفكّرت قائلة في نفسها :

« بيت في جهة أوفير سورواز وإبل أدام ... هناك حيث يوجد جسر خشبي يجب عليّ أن أتذكّره ... » .

ولما رأت أن بولو وفرنغو لم يعودا يستطيعان الوقوف من شدة التعب ، أسرعت الى نزع ثيابهما فعادا يظهران كسائر الحيوانات ، وتفرّق الجمهور شيئاً فشيئاً .

وكانوا عندئذٍ في شارع بدا لريون دور جميلاً جداً وهو شارع ترياندري . ولا لزوم للقول بأن الفتاة كانت تجهل اسم ذلك الشارع كما أنه لم يكن لديها أية فكرة عن ساكنيه وهم متشردون ولصوص ومومسات .

وكانت الحركة تتزايد في هذا الشارع كلما تقدّم الليل وهبط الظلام على عكس الشوارع الأخرى التي تصبح مقفرة . وقد قاد سوء الطالع ريون دور الى ذلك المكان وازداد مصيرها سوءاً لأنها كانت تجهل كل شيء عن باريس .

ولم ينتبه إليها أحد في بادىء الأمر وكانت قابعة مع رفيقيها في إحدى الزوايا المظلمة . ولكن ذلك لم يطل ، فقد خرج من البيت المقابل للزاوية التي كانت تحتمي فيها ثلاث فتيات جميلات يرتدين ملابس تمتاز بأناقة خاصة تنم عن مهنتهنّ ، وكنّ يسرن ذهاباً وإياباً ويسير خلفهن ، على مسافة متوسطة ، رجل ذو هيئة مشبوهة كبير الشاربين قاسي الملامح يتقلّد سيفاً طويلاً ويبدو عليه أنه يراقب الفتيات الثلاث خفية .

وقد اكتشفت الجميلات الثلاث مكان ريون دور فأخذن يراقبنها من بعيد في بادىء الأمر ، ثم أتين فوقفن أمامها على شكل نصف دائرة ، وتكلّمت إحداهنّ فقالت لها بصوت لطيف ولهجة ناعمة :

– من أنت ؟

فأجابت الفتاة قائلة ببساطة :

– أنا ريون دور .

وقد تعجّبت من تلطّف تلك التي ظنّتها « سيدة كبيرة » فأردفت تقول :

– وأنتِ من تكونين ؟

فأجابت الفتاة الجميلة قائلة باللهجة اللطيفة نفسها :

– أنا سافير ، وأما صديقتاي فتُدعيان موسكاد وبرغاموت .

وقد وافقت موسكاد وهي باسمة لامبالية بانحناءة لطيفة من رأسها ، أما برغاموت فإنها أتت بحركة عنيفة تدلّ على الجفاء .

فشعرت ريون دور بخوف لا يوصف وفي تلك اللحظة سُمع صوت لطيف يقول :

– يا لقديسات الجنة ! أليس من الظلم أن تنام فتاة جميلة كهذه تحت النجوم ؟ ولكنني ذات قلب رقيق عطوف فتعالي يا جميلتي ، تعالي . ستنامين في بيتي وهو فندق شريف والحمد لله وسوف يقول الجميع إن فندق لابواس ، وهو اسمي ، هو أشرف وأتقن فندق في هذا الشارع .

وكانت المتكلمة عجوزاً لا يمكن لمن يراها أن يحدد عمرها ،

وكان يبدو عليها اللطف والبشاشة . ولكن المتأمل البصير لا يخفي عليه ما في شفتيها الرقيقتين المزمومتين دائماً ، من القسوة والشرّ . وكان بصرها تائهاً رجراجاً لا يصادف أبداً نظر محدثها.

وقد أزاحت الفتيات الثلاث بإشارة آمرة فأطعنها كأنهن تلميذات أخذن بغلطة أمام معلمتهنّ . ثم اقتربت من ريون دور فقالت لها هذه متعجبة :

– ولكنني هنا على ما يرام يا سيدتي .

– لا يا ابنتي ! لا يجدر بالفتيات الجميلات أن ينمن في الشارع في باريس فتعالي الى منزلي وسترين أنك لن تندمي .

وقد قالت العجوز تلك الكلمات وأمسكت بيد ريون دور وجذبتها بلطف ، فلم تقاومها الفتاة وأرادت الذهاب معها عندما سمعت سافير تهمس في أذنها قائلة :

– لا تذهبي !

وعندئذٍ استولى عليها الرعب فتملصت بعنف من قبضة العجوز ورفضت قائلة :

– لا أريد الذهاب !

فصاحت لابواس قائلة :

– ترومبافيور ، تعال الى هنا.

وكان ترومبافيور اسم الرجل ذي الهيئة المشبوهة الذي يراقب المومسات الثلاث ، وكان إسبانياً . وقد سمع ما دار من الحديث وفهم فوراً ما تريده منه لابواس فلم يتردّد لحظة بل أسرع يلبّي النداء وانقضّ على ريون دور المذهولة فحملها بين ذراعيه القويتين

وسار بها الى بيت العجوز اللعينة التي كانت قد تركت بابه مشقوقاً.

وقد تم ذلك بسرعة عجيبة الى حدّ أن الكلب بولو الذي كان نائماً في الزاوية لم يشعر بما جرى.

وقالت سافير وموسكاد مشفقتين :

– يا الصغيرة المسكينة !

فقالت برغاموت بلهجتها القاسية الجانية :

– لماذا مسكينة ؟ إنها لا تستحق الرثاء أكثر منا .

ويظهر أن النحس الذي ما أنفكّ يلاحق رولاند هو الذي قادها الى ذلك الشارع الرهيب الخطر وتركها أمام بيت العجوز الشريرة لابواس ، فإنها بعد بضع ساعات من وصولها الى باريس وجدت نفسها سجينة في ذلك البيت المشبوه حيث ينتظرها أشد المحن هولاً ونظاعة .

*

وخلال الإثني عشر عاماً التي انصرمت كان الفارس الصغير هوبير دي راكستان قد بلغ مبلغ الشباب مثل ريون دور ولم يكن أخوه البكر الكونت دي بومبينيان قد وجد الثروة في باريس على ما يبدو ، والدليل على ذلك أن هوبير وهو الآن شاب في الخامسة والعشرين من العمر ، لا يزال يرتدي الثياب الرثة البالية فكانت سترته المخملية وجزمته الجلدية مرقعتين في أماكن عديدة .

ولكنه كان كثير النظافة ، على عادته دائماً ، وكان يتقلد دائماً سيفاً طويلاً رائعاً وقد أصبح يجيد استعماله إجادة تامة .

وكان رغم فقره ذا طلعة مهيبة حقاً : رأس مرفوع فخور يتوّجه شعر طويل متماوج ينزل الى كتفيه ، وشارب أنيق مفتول يسهم الى جانب بصر حادّ ثاقب في إكساب ملامحه المشرقة المرحة طابع رجولة قلّ مثيلها . وكان طويل القامة عريض المنكبين رشيق الحركة تظهر عضلاته بارزة نافرة كأنما قُدّت من الفولاذ . أما شجاعته فحدّث عنها ولا حرج لأنها كانت واضحة وضوح الشمس تظهر عفوياً في جميع حركاته وسكناته .

وقد لبث أعواماً طويلة يعيش في منزله الريفي الصغير ، وكان أخوه الكونت يرسل له في أوقات متباعدة مبالغ ضئيلة جداً من المال لا تسمن ولا تغني عن جوع . وظلّت ذكرى صديقته الصغيرة رولاند حية في قلبه مدة طويلة جداً كما ظلّت الوردة البريّة التي أعطته إياها في مكانها المعهود فوق قلبه . وقد بدأت تلك الذكرى تغرق شيئاً فشيئاً في ضباب الماضي السحيق ، ولكنها لم تُمحَ تماماً من ذاكرته . وفي أحد الأيام ، وقد تعب لكثرة ما « شدّ الشيطان من ذقبه » حسب تعبيره ، سار بدوره في طريق باريس ليلتحق بأخيه ويحاول البحث عن الثروة بمساعدته .

عند الملكة الأم

★

ذات صباح مشرق من عام ١٥٧٧ دخل الدوق دي سوريانتس الى شارع فور حيث اتجه الى قنطرة مظلمة يقوم على جانبيها

برجان صغيران حسب هندسة ذلك العصر . وكانت تلك القنطرة المدخل الرئيسي لقصر الملكة الجديد وقد بنته كاترين دي مدسيس [١] منذ ثلاثة أو أربعة أعوام وعاشت فيه متنحيّة عن أعمال المملكة .

فاجتاز الدوق سلسلة طويلة من القاعات الفاخرة الرياش لم يعرها أيّ اهتمام مما يدلّ على أنه يعرف القصر جيداً وأنها ليست المرة الأولى التي يدخله فيها .

ووصل أمام باب مكتب الملكة الكهلة حيث وقف دقيقة واحدة لتُعلن إحدى الوصيفتين المكلفتين بحراسة ذلك الباب قدومه لسيدتها .

وكانت القاعة التي دخلتها الوصيفة رحبة معتمة قليلاً ومفروشة ببساطة كلية تتنافى مع فخامة رياش القاعات الأخرى التي تحيط بها ، وكان يُرى فيها خليط عجيب من كتب الديانة وأدوات التنجيم .

وكانت كاترين دي مدسيس في ذلك الوقت تحبو الى الستين من عمرها وهي لا تزال على ما عهدناه فيها من الهدوء والنشاط ، فكان لها ذلك الوجه الجامد ذاته الذي لا يُسبر غوره ، والنظرة الثاقبة الباردة نفسها ، والمظهر الرهيب نفسه الذي يضفيه على وجهها

١ — صدر عن « دار الروائع » في المجموعة الكاملة لروايات ميشال زيفاكو ، رواية باردليان الشيقة التي تتحدث عن فظائع هذه الملكة الشريرة . وأحداث تلك الرواية وتاريخها سابقان لاحداث « المغامرة الكبرى » وتاريخها ، فمن المستحسن الاطلاع عليها أولاً كما أشرنا في مقدمة هذه الرواية .

الشاحب وشفتيها المزمومتين وشاح الأرامل الأسود الطويل الذي كانت تلبسه دائماً .

وكانت في تلك اللحظة جالسة في مقعد عتيق من خشب السنديان وقد ألقت بكوعها الى طاولة صغيرة أمامها وأسندت رأسها الى راحة يدها و كانت تفكّر قائلة في نفسها :

« لقد تحقّق أخيراً الهدف الذي كرّست له حياتي وجهودي وإرادتي وسعيت الى تحقيقه بصبر طويل ووسائل مختلفة . وقد أصبح ولدي المحبوب هنري، الملك هنري الثالث بفضل الله ... وبإرادة أمه ! »

وفكّرت لحظة أخرى وقالت تخاطب نفسها بصوت مرتفع:

– لقد عملت كل شيء في سبيله ... ومع ذلك لماذا كانت النتيجة ؟ ها أنا الآن وحيدة متنحية مرذولة محصورة في هذا المسكن الكئيب حيث لا يأتي أحد لزيارتي حتى لقد يُخيّل لي أنني متّ منذ زمن طويل ... إن الأولاد عاقون ناكرو الجميل!

وكانت تقول ذلك دون مرارة وتأثر ! ولم تكن الملكة كاترين دي مدسيس هي التي تتكلّم في تلك اللحظة بل كانت الأم وهي مماثلة تماماً لجميع الأمهات اللواتي يعبدن أولادهنّ .

واردفت تقول بابتسامة عذبة :

– وماذا يضيرني ؟ فالمهم أن يكون هو سعيداً .

ولكن ذلك الحنو لم يدم طويلا ، فعادت الملكة الى الظهور وقد محت شخصية الأم فقالت بغضب شديد :

– ولكن الضجر يقتلني هكذا ولا أريد أن أموت . إن

هنري شاب طائش متعطش الى الملذات ... فإلى من يستند هذا الولد المسكين إلا الى أمه ؟ لقد آن الوقت للتدخل في شؤون المملكة وقد تنحّيت عنها مدة أطول مما يجب !

وفي تلك اللحظة دخلت الوصيفة الشابة تعلن أمامها أن الدوق دي سوريانتس يلتمس شرف مقابلة خاصة .

فلم تفكّر كاترين في إخفاء حركة سرور بدرت منها وقالت بسرعة :

– ليدخل ، ليدخل !

ودخل الدوق فاستقبلته استقبالاً لطيفاً جداً ، ولا عجب في ذلك فإنها كانت تستطيع أن تكيّف نفسها كما تشاء، وكانت تريد في تلك اللحظة أن تُسرّ الدوق .

فانحنى دي سوريانتس على اليد التي مدتها له ولامسها بشفتيه، فسألته كاترين باهتمام وقالت : ما وراءك أيها الدوق ؟

فأجاب مطمئناً بقوله : ليس ورائي إلا الخير . فإن مؤامرة الدوق دي كيز بدأت تتضح .

فصاحت كاترين قائلة برضىً ظاهر : إنه حقاً خبر سارّ .

وأضافت تقول بقلق الأم وحنانها : ولكن بحق الله إسهر على ولدي ! إسهر جيداً أيها الدوق .

فطمأنها سوريانتس قائلاً : أنا المسؤول يا مولاتي عن سلامة الملك لأنني أتبع دي كيز خطوة خطوة .

وقد بدا على كاترين أنها اطمأنت الى ذلك الكلام ، ولكن قلقاً من نوع آخر عصف بنفسها فقالت :

– نعم ، ولكن يجب أن تدع دي كيز يذهب بمؤامرته بعيداً جداً الى حدّ يشعر معه الملك بحاجة إليّ ويستدعيني الى البلاط .

– لقد فهمت يامولاتي ، فكوني مطمئنة . إنك تريدين أن تقودي دي كيز الى شفير الهاوية، وأن يستدعوك في اللحظة التي يجب فيها إلقاؤه في تلك الهاوية .

فوافقت كاترين قائلة : هو ذاك .

ثم فكّرت هنيهة وقالت : إن تدخّل امرأة جميلة ذكية مخلصة يفيد فائدة كبرى في مثل هذه الظروف .

فقال الدوق :

– ربما ، وقد فكّرت في ذلك فعلاً ، وسوف يتم الأمر على ما ترغبين. فان امرأة صاعقة الجمال مخلصة ذكية ماهرة ستسيطر على قلب الدوق دي كيز كما أوجّه أنا خطواته.

– إنها خطة ممتازة حقاً ، وأنت رجل ثمين جداً أيها الدوق. وبعد أن امتدحته وعدته قائلة :

– سوف تكافأ أيها الدوق مكافأة تتعدى كل ما تستطيع أن تتصوره . وستجد ، كبداية ، عندما تعود الى منزلك ، شهادة صغيرة على امتناني لك لأن ملك إسبانيا الذي كتبت إليه بشأنك قد أجابني على رسالتي ... أما رسوله فانه ينتظرك في قصرك .

ثم أذنت له بالانصراف وهي تقول بألطف لهجة عُرفت بها:

– إذهب أيها الدوق وكن أميناً ومخلصاً لي وأنا المسؤولة عن ثروتك ... أقصد ثروتك السياسية لأن ثروتك المادية لا تقاس

بها ثروة أخرى .

فانحنى الدوق باحترام عميق وقبّل يدها التي مدتها له مجدداً وخرج بخطوات هادئة كلها زهو وخيلاء .

من هي من الاثنتين ؟

*

في شارع سان نيكيز ، بين قصر اللوفر الذي يقيم فيه الملك وقصر التويلري الذي تقيم فيه كاترين دي مدسيس، ينتصب قصر كبير فخم بناه الدوق دي سوربانتس على أثر امتلاكه ثروة الأمير دي مونكابيه عن طريق زوجته ، وكان يعيش فيه مع زوجته جوسلين وشقيقتها التوأم هرموزا .

وكانت جوسلين ، أو ذات الرداء الأبيض ، قد تجاوزت في ذلك الحين الثلاثين بقليل ، أي أنها بلغت العمر الذي تكون فيه المرأة في أوج جمالها وتألقها ونضجها .

ومع ذلك ، والأمر غريب حقاً ، فإن هذين الزوجين الفتيين اللذين تزوجا وهما فقيران على أثر غرام عنيف ، واللذين يبدوان في المجتمعات كأنما يعبد كل منهما الآخر ، لم يكونا ينامان في غرفة واحدة، بل كانت لكل منهما غرفة نوم خاصة به يأوي إليها عندما يحين وقت الرقاد . ومن المدهش أيضاً أن جوسلين قد جهّزت باب غرفتها بمزاليج قوية ، وأنها لم تكن تأوي الى فراشها أبداً إلا بعد أن تثبت تلك المزاليج تثبيتاً محكماً.

وعندما كانت الصدفة تجمع بين الدوق والدوقة منفردين ، كان هذان العاشقان المزعومان يقفان من بعضهما موقفاً بارداً رسمياً كأن كلاً منهما غريب عن الآخر .

لماذا يتصرفان هذا التصرف؟ إنه سرّ قد يتأتى لنا أن نكتشفه يوماً ما ، ولكننا في الوقت الحاضر لا نستطيع تفسيره .

أما هرموزا، ذات الرداء الأسود، التي تُعتبر بكر الشقيقتين لأنها وُلدت قبلها بنصف ساعة ، فإنها كانت دائماً رصينة منكمشة غامضة مقلقة، وكانت تشغل جناحاً تطل نوافذه على مرفأ السين حيث تُفرغ حمولة الزوارق الكبيرة التي تمخر النهر ، ولم تكن تسمح لأحد بالدخول الى ذلك الجناح .

وعندما ترك الدوق دي سوريانتس كاترين دي مدسيس ، توجه فوراً الى قصره هذا حيث وجد رسول ملك إسبانيا ينتظره كما قالت الملكة ، وقد سلمه رسائل خاصة وأخذ بها وصلاً ثم غادر القصر يشيعه الدوق بنفسه الى الباب الخارجي .

وكان سوريانتس قد ألقى نظرة على تلك الرسائل ولكنه لم يُظهر ما يعتمل في نفسه أمام الرسول . ولما ذهب هذا لم يعد الدوق يستطيع أن يكتم سروره فأسرع الى القاعة وهو ينادي قائلاً :

— جوسلين ! هرموزا !

فظهرتا ، وكعادتها دائماً ، كانت جوسلين خفيفة مرحة ترتدي الثياب البيضاء ، وكانت هرموزا رصينة غامضة ترتدي ثياباً من المخمل الأسود بسيطة وأنيقة في آن واحد.

فقال الدوق مغتبطاً :

— إن صاحب الجلالة فيليب الثاني ملك إسبانيا ، مليكي الكثير العطف حفظه الله ، قد تفضل ووجّه إليّ هذه الرسائل التي تعيّنني ممثلاً لجلالته في بلاط صاحب الجلالة هنري الثالث ملك فرنسا .

فتلقت جوسلين ذلك النبأ بفرح صبياني لم تحاول إخفاءه وأخذت تصفق بيديها قائلة :

— إنك الآن سفير ، سفير !

فقال سوريانتس وهو ينتصب بكبرياء :

— نعم يا عزيزتي، إنني سفير جلالته الكاثوليكية ، أي أنني ممثل أقوى ملك في الكون لدى ملك أجمل مملكة للمسيحية . إنه أمر لا يستهان به !

فقالت جوسلين بمرحها المعهود : ولكنك لن تكتفي بذلك على ما أظن .

فابتسم سوريانتس ابتسامة غامضة وأجاب قائلاً: لنأمل خيراً، ولا أظنني مخطئاً .

وسكت لحظة ثم أردف قائلاً :

— إن صاحب الجلالة ملك فرنسا أعلمني بأنه سيستقبلني اليوم في قصر اللوفر لأقدّم لجلالته رسمياً أوراق اعتمادي .

وسكت لحظة أخرى وتابع يقول بغبطة شديدة :

— لقد نلنا الثروة المادية وها هي الثروة السياسية تبتسم لنا الآن ، وإذا كانت هذه ستضاهي تلك فلا أعلم عندئذٍ الى أية

ذروة سوف نبلغ .

وقد رفع الدوق والدوقة بذلك الحديث زاوية الستار الذي يغطي نفسيها ومطامعها . أما هرموزا فقد لبثت صامتة لا يسبر غورها ، إنها لم تنبس بكلمة ولم تُظهر سروراً أو استياءً بل كانت على عادتها منكمشة شديدة الغموض لدرجة مقلقة . أهو بغض أم حسد ؟ من يعلم ؟

ولكن الشيء الوحيد الذي فعلته هو أنها انسحبت الى جناحها بخطواتها الجليلة الهادئة المتناهية في اللطف ، وعندما بلغت غرفتها كانت الدموع تسيل ببطء من عينيها الجميلتين اللتين لم تُخلقا للبكاء . لماذا تبكي ؟ من يعلم ؟

وفي تلك اللحظة سُمع صوت البوق يعلن عن زيارة ، فانتفضت الفتاة وتخلصت من الحزن الذي كان يسيطر عليها . ويجب الاعتقاد بأن الزيارة التي يعلن عنها بواسطة البوق هي زيارة بالغة الأهمية إذ أن هرموزا أسرعت بإزالة جميع آثار الاضطراب الذي كان يعتريها وعادت الى القاعة التي تركتها منذ بضع دقائق .

وكانت الزيارة بالغة الأهمية فعلاً إذ أن الشخص الذي يقوم بها كان الدوق هنري دي كيز الذي بدأ الشعب يدعوه منذ الآن بهنري الكبير ، وقد أتى ، على عادته ، يزور الدوق دي سوريانتس صديقه العزيز الحميم .

وتسلق الدوق دي كيز درجات مدخل القصر الرخامية وكان يتبعه ثلاثة أو أربعة من رجاله فقط ، أما الباقون فإنهم لبثوا ينتظرون في الفناء العامّ .

وكان من بين الذين يرافقون دي كيز شخص نعرفه جيداً هو الكونت دي بومبينيان وكان قد بلغ الآن الواحدة والثلاثين من العمر فأصبح الفتى اليافع الطويل النحيل ، الذي وصفناه في أول هذه الرواية شاباً طويل القامة عريض المنكبين ممتلىء الجسم تتفجر ملامحه بجمال الرجولة الحقة . وقد بدت عليه مظاهر الثروة التي سعى في سبيلها واشتهاها بكل قواه حتى أنه لم يتردّد لأجلها في قتل الأمير دي مونكابيه .

وكان الكونت دي بومبينيان يتحدّث بودّ ظاهر مع شاب يضاهيه في فخامة الثياب ويكبره ببضعة أعوام هو البارون دي موليستراك رجل الدوق دي كيز الأول ومنفّذ مؤامراته وأوامره المشبوهة . وكان من يراهما يتحدثان على تلك الصورة يعتقد أن صداقة متينة مخلصة تربط بينهما ، ولكن الملاحظ البصير لا يخفى عليه أن كلاً من هذين الرجلين يبغض الآخر بغضاً شديداً .

وكان الدوق دي كيز يتسلّق درجات المدخل الرخامية بسرعة ووجهه يطفح بشراً وكان من المستحيل على أي كان أن يضاهيه أناقة في ثيابه المخملية الفاخرة ذات اللونين الأبيض والأسود .

وكان البارون دي موليستراك يفسّر رمز تلك الثياب وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى ويهمس في أذن « صديقه » الكونت دي بومبينيان قائلاً :

– الأبيض والأسود هما لونا الدوقة دي سوريانتس الجميلة

وشقيقتها الفاتنة هرموزا ... وأعتقد أن سيدنا هنري الكبير – أي الدوق دي كيز – قد برّح به الغرام حتى كاد يقتله . ولكن يا للشيطان ! الى أي من اللونين سوف يتحول اهتمامه ؟ إلى الأبيض أم الى الأسود ؟ الى جوسلين الجميلة أم الى هرموزا الفاتنة ؟ هذا ما لا يعرفه هو نفسه بعد ... وأنت ما تقول أيها الكونت ؟

فسيطر بومبينيان على نفسه بجهود جبار وأجاب بلهجة المزاح نفسها التي يستعملها زميله قائلاً :

– لا يجدر بالصياد الماهر أن يركض وراء طريدتين في الوقت نفسه ... ويجب على الدوق ألا ينسى ذلك .

وفي الوقت نفسه كان الدوق دي سورياتس يخفّ لاستقبال الزائر الكبير عند باب المدخل وهو يظهر له من الحفاوة ما يليق « بالصداقة » التي تجمع بين النبيلين .

ولما وصل الجميع الى قاعة الاستقبال الكبيرة انبرت جوسلين فوراً، وهي لا تخفي السرور الذي ولّدته في نفسها تلك الزيارة، وصاحت بلهجة تأنيب لطيف قائلة :

– لطالما ساءلت نفسي يا سيدي الدوق عما إذا لم تكن قد نسيتنا ! لا تحمل كلامي على محل اللوم يا صاحب السيادة، ولكن ها قد مضت ثلاثة أيام طويلة لم نرك خلالها .

فاحمرّ وجه الدوق ولمع في عينيه بريق الغرام الحادّ وانحنى بلطف ملكي حقاً على اليد البيضاء الرقيقة التي مدتها له وقال :

– إن نسيانك مستحيل ياسيدتي لأنك من اللواتي لا يستطيع

الإنسان نسيانهن ما لم ينزع قلبه ودماغه بيده ! أما بشأن غيابي القاهر الذي سبّب لي كدراً كبيراً فأنا لا أجرؤ على الإعتقاد حقاً بأنك شرفتني أعظم الشرف بملاحظته .

فصاحت جوسلين قائلة بخفة :

– ولكنها الحقيقة ، لقد افتقدناك كثيراً يا سيدي الدوق .

وصمتت لحظة ثم أردفت قائلة بالخفة نفسها :

– أليس كذلك يا هرموزا ؟

فرأت هذه أن لا مفرّ لها من الكلام فقالت :

– إن مولاي يعلم ، كما أرجو ، أنه يحل دائماً في هذا البيت على الرحب والسعة .

وقد قالت ذلك بلهجة رصينة لم تتخلّ فيها لحظة عن شخصيتها الغامضة ، ولكنها أرفقتها بنظرة نارية خلعت على الكلام الذي تلفظت به معنى عميقاً مختلفاً عن المعنى السطحي الذي يبدو عليه .

فاضطرب دي كيز وتغلغلت نبرات ذلك الصوت الدافىء الرصين الى أعمق مشاعره فنسي لحظة تلك التي أعلن لها منذ قليل أنه لن ينساها وانحنى أمام هرموزا مثلما انحنى أمامها، وطبع على يدها القبلة الحارة الطويلة نفسها التي طبعها على يد جوسلين . وقد شعر بالسرور والغبطة وانتصب راضياً مرتاحاً إذ أنه خُيل له أن هرموزا أيضاً ضغطت بظاهر يدها البيضاء الرقيقة على شفتيه كما فعلت أختها .

وكان الكونت دي بومبينيان يراقب ما يجري بعينين دمويتين يلتمع فيهما بارق الجريمة الوحشي، وكانت نظراته تتنقل

على التوالي بين الدوق وجوسلين وهرموزا . ولا لزوم للقول بأنه لا يزال يحب تلك التي يسميها « فارسته » حباً قوياً عاصفاً لا يمكن أن يزول من نفسه طالما بقي فيه عرق ينبض ، ولكنه لم يكن يعلم مَن من الشقيقتين هي التي يحبها والتي له عليها حق هذا الحب لِمَا فعله في سبيلها . ويذكر القراء أنه كان يأمل أن يتزوج من فارسته ويرث بواسطتها جزءاً من ثروة الأمير دي مونكابيه العظيمة بعد أن قتل ذلك الأمير غيلة وغدراً كما وصفنا . وكان يعتقد أن فارسته هي هرموزا ، ولكنه لمّا أعرب لها عن رغبته في أن يجعل منها الكونتس دي بومبينيان ، أجابته بلهجة قاطعة لا تقبل الجدل بأن ذلك مستحيل لأنها ليست حرة .

وعندئذ ظنّ أن فارسته ليست هرموزا ولكنها جوسلين وهي متزوجة ، فتخلّى عن حلمه في الثروة ولكنه لم يتخلّ عن غرامه المستعر ولا عن حقه في المكافأة الموعودة . وتلك التي جعلت منه قاتلاً ، نفّذت وعدها فاستسلمت له ، ولم يعلم إذا كانت تلك هي جوسلين أو هرموزا ، ذات الرداء الأبيض أو ذات الرداء الأسود ، وكل ما علمه هو أنها كانت تتحلّى بالخاتم الذهبي البسيط ذي الياقوتة الحمراء السداسية الشكل .

وكان يعيش منذ ذلك الحين على ذكرى تلك الساعة الجميلة التي قضاها بين ذراعيها الى أن تجدّدت تلك الساعة فجأة وأصبحت تتكرر في فترات متباعدة ، فكان الكونت ينسى في لذة اللقاء عذاب الحرمان والغيرة خلال شهور طويلة .

وكان كلما تجدد اللقاء يزداد جهله لشخصية التي تسلمه نفسها ،

وكان مجرّد تفكيره في أنه لن يعرفها أبداً ، يكاد يُفقده صوابه . والآن ، وهو يرى الشقيقتين تتدللان على دي كيز ، فلمن من الإثنتين يستطيع أن يوجه اللوم؟ وكان الغضب والحيرة يعصفان به الى حدّ أنه كاد يقدم على ما لا تُحمد عقباه ، ولكن الدوق دي سوريانتس أنقذه مما يتخبط به . فإنه قطع حبل المجاملات وبدأ الحديث في الأمور الجدية فأطلع دي كيز على رسائل ملك إسبانيا ، فهنأه هذا بما يناسب المقام وقال له :

– هيّا بنا الى اللوفر ، وبصفتي سيد فرنسا الأكبر فأنا الذي سأدخلك على الملك .

فانحنى سوريانتس دلالة على الشكر ثم ضرب على لوح نحاسي وأصدر أمراً الى الخادم الذي لبّى النداء .

وبعد أقلّ من دقيقة دخل الى القاعة رجل يضع على وجهه قناعاً أحمر لا يُرى من خلاله سوى عينين تلوح فيهما دلائل الذكاء الشديد وتقدّم ينحني أمام رب القصر وزائره الكبير .

فنظر سوريانتس الى دي كيز نظرة ذات معنى وقدّم له الرجل قائلاً وهو يضغط على الكلمات :

– السيد غاسبار بنياكل . إنه رجل ثمين جداً لي به ملء الثقة وتستطيع يا سيدي الدوق أن توليه ثقتك المطلقة أنت أيضاً . وقد تفضل بقبول وظيفة وكيلي العام ، وهي دون مؤهلاته بكل تأكيد ، واضطلع بأعبائها بذكاء وتفانٍ أرى من واجبي أن أشير اليها . إنه رجل يُعتمد عليه بكل معنى الكلمة .

فانحنى قاتل ديزارشيل وخاطف رولاند دي مونكابيه أمام

الدوق دي كيز بلباقة لا تظهر إلا من كبار النبلاء .

وقد نظر دي كيز بدوره الى سورباتنس نظرة تدلّ على أنه فهم كلامه ، ثم أجاب على تحية بنياكل الممتازة بانحناءة لطيفة من رأسه وقال متعجباً :

– لماذا تضع هذا القناع ؟

فأجاب سورباتنس مفسراً بقوله :

– إن السيد بنياكل تعرّض فيما مضى لحادث شوّه وجهه وهو أمر مؤسف جداً لأن الطبيعة كانت قد خصّته بوجه من أجمل الوجوه .

– ما هو هذا الحادث ؟ هل نستطيع معرفته ؟

وقد وجّه الدوق دي كيز هذين السؤالين الى بنياكل نفسه فأجاب قائلاً :

– إنها طلقة غدارة يا مولاي . طلقة غدارة محشوة بالبارود فقط تلقّيتها عن بعد بوصتين أو ثلاث من وجهي الذي أحرقه البارود. أضف الى ذلك أن الذي عالجني كان يجهل مهنته فأصابني نوع من الآكلة أكمل ما بدأ به البارود ، ولكن عينيّ سلمتا لحسن الحظ . وهكذا فقد تحول الوجه الجميل الى كتلة لا شكل لها ، كتلة مشوّهة منفّرة ، وتحول الشاب الجميل الذي كنته الى مسخ لا يستطيع أحد أن ينظر إليه دون أن يقشعرّ بدنه هولاً . ولهذا فأنا لا أتخلى عن قناعي أبداً .

فقال دي كيز مشجعاً :

– من الممكن أنك تبالغ لأن من كانت له بنيتك لا ...

فقاطعه بنياكل قائلاً بحدة :

– لا يا مولاي ، إنني لا أبالغ فانظر !

ونزع قناعه بحركة عنيفة كأنه ينهال بطعنة خنجر ، ولم يكن يبالغ أبداً فقد كان وجهه كتلة فظيعة لا يمكن وصفها ، وكان في القشعريرة التي انتابت جميع الذين حوله ما يدلّ على ذلك .

ولكن غاسبار بنياكل لم يلاحظ تلك القشعريرة لأن كل انتباهه كان منصباً على الأختين اللتين تجلسان إحداهما الى جانب الأخرى . ولم يكن بنياكل يُظهر للدوق دي كيز وجهه الممسوخ الذي فقد كل معالم الانسانية ، بل لهما ، أو بمعنى أصح لواحدة منهما . ولكن من هي ؟ إنه لم يكن يعلم أكثر مما يعلمه الكونت دي بومبينيان في هذا الشأن. ولكن نظره البارق المعبّر كان يقول بجلاء كلي :

« إن إحداكما تعرف لماذا وكيف شُوّهت هكذا . وسوف أعلم ، نعم سوف أعلم من هي شريكتي ! ... »

ولكن الشقيقتين تحملتا نظراته بهدوء تام ثم غادرتا المكان في الوقت نفسه فسارت إحداهما بخطوات خفيفة رشيقة، وسارت الأخرى بخطوات جليلة رصينة .

وعاد بنياكل يضع قناعه وهو يتنهد تنهد العاجز الكليل بينما كان سورباتنس يقول له :

– إذهب يا سيد بنياكل وضع ثوبك الرسمي لأنك سترافقني الى اللوفر .

فانحنى بنياكل بصمت وخرج من القاعة . ولما وصل الى

رواق مظلم اصطدم فجأة بامرأة لم تكن ذات الرداء الأبيض أو ذات الرداء الاسود ، بل كانت شبحاً ملتفاً من قمة الرأس الى أخمص القدمين بمعطف فضفاض لا لون يميزه ، يلبس في إصبعه الخاتم ذا الياقوتة السداسية الحمراء وقد رأى بنياكل كل ذلك بسرعة البرق وفي الوقت نفسه كان الشبح الخفي يهمس في أذنه جواباً على النظرة التي ألقاها في القاعة منذ قليل ، قائلا :

— يجب ألا تعلم ! وإذا كانت وظيفتك هنا لا تحقق مطامعك فسوف تحصل على وظيفة أخرى تفوقها من جميع النواحي . فلازم الصمت وكفّ عن البحث ، إن ثروتك مؤمنة طالما أنت تجهل ... والويل لك إذا عزمت يوماً !

ولم يكد بنياكل يعود من دهشته حتى كان الشبح قد اختفى دون أن يستطيع أن يعلم أين وكيف . ولما عاد الى القاعة ليضع نفسه تحت أوامر الدوق دي سوريانتس كانت هرموزا تدخل من باب وجوسلين تدخل من آخر في الوقت نفسه .

فاستأذن الدوق دي كيز من المرأتين وخرج متأبطاً ذراع سوريانتس وقد سار وراءهما بومبينيان وموليتراك والنبيلان الآخران اللذان رافقا دي كيز الى القاعة . وكان غاسبار بنياكل يسير بين هؤلاء، وهو يلبس ثوبه الأسود الفاخر ويضع قناعه الأحمر على وجهه . وبعد لحظات ركب الجميع الجياد وغادروا قصر سوريانتس .

وبعد ذهاب الدوق دي كيز مباشرة استقلّت جوسلين وهرموزا عربة فخمة وذهبتا تردان الزيارة للدوقة دي كيز التي

تنتظرهما في قصرها الرحب الكائن في شارع شوم .

سفير إسبانيا

*

نحن الآن في اللوفر، في القاعة التي زينها المهندس بيار ليسكو بمختلف التحف وركّز قناطرها على أربعة تماثيل حجرية رائعة من صنع المثّال جان غوجون فسُميت لذلك قاعة التماثيل .

وفي صدر تلك القاعة دكّة فسيحة مستطيلة الشكل يُرقى إليها ببضع درجات وقد فُرشت بسجادة ملوّنة ثمينة وجلس في مقاعد صُفّت على جانبيها الوزراء وأمناء سرّ الدولة تحت قيادة الكردينال دي بيراغ العجوز مستشار فرنسا العام .

وكان هنري الثالث ، وهو الآن في السادسة والعشرين من العمر ، يجلس منفرداً على عرش مذهّب أقيم تحت رف مزخرف وقد علّق سبحة في منطقته وحمل كتاباً بيده وارتدى ثوباً قاتم اللون بالغ الأناقة فكانت هيئته ملكية حقاً .

وفي ذلك الجو الرائع تقدّم الدوق دي سوريانتس ، يقوده الدوق هنري دي كيز، فوقف أمام الدكّة حيث انحنى باحترام عميق ثم انتصب ولبث ينتظر الى أن قدّمه دي كيز رسمياً بصوت قوي رنّان.

وقد استقبل الملك السفير الجديد بلطف لا مزيد عليه وقال مبتسماً :

– إن أخانا المحبوب فيليب الثاني ملك إسبانيا لم يكن يستطيع أن ينتقي سفيراً ينال إعجابنا ورضانا أكثر منك يا حضرة الدوق . لقد كنتَ من جملة بطانتنا ويسرّنا أن نراك دائماً في عداد أصدقائنا الحميمين فأرجو أن لا تنسى ذلك .

فانحنى سوريانتس وأجاب قائلاً :

– لقد شملتْني جلالتك بعطف عظيم أشكرها عليه بكل إخلاص وسوف أفعل ما هو فوق طاقتي لأكون جديراً بما كلفني به جلالة ملكي ، وأهلاً للصداقة الحميمة التي تربطني بهذه البلاد الجميلة العظيمة التي أصبحت بلادي تقريباً .

وبعد أن قدّم الدوق دي سوريانتس أوراق اعتماده رسمياً نهض الملك هنري الثالث ونزل درجات الدكّة بخطوات جليلة ثم تقدّم من السفير الجديد وأخذ يتحدث معه بودّ ودون كلفة.

وعندئذ اقترب الدوق دي كيز وانحنى يحيي الملك باحترام، فتنازل هذا وشرّفه بابتسامة صفراء قائلاً :

– إنني لن أنسى يا ابن عمي أنك وافقت على القيام بدور تقديم السفراء المتواضع لتشرّف الدوق دي سوريانتس الذي هو من أصدقائي .

وكان من الواجب أن يكتفي الدوق دي كيز بتلك الكلمات التي تدل على رغبة الملك في توسيع الشقة بينهما ، فعض شفتيه ورمق الدوق دي سوريانتس بنظرة طويلة تدل على ما يعانيه من جراء التحقير الذي ناله. فأجابه سوريانتس بنظرة تعني أنه سوف يتأتى له أن يأخذ بثأره. ثم التمس من الملك مقابلة خاصة وقال:

– إن ما ألتمسه يا مولاي لا يحتمل التأجيل لأن الأمر بالغ الخطورة وهو قضية حياة أو موت .

فانزعج هنري الثالث من جراء هذا الكلام ولكنه لم يكفّ عن الابتسام وقد أجاب سوريانتس الى ما يلتمسه وسار أمامه الى قاعته الصغيرة الخاصة حيث دخلا وحدهما ، فتهاوى هنري الى مقعد وسأل قائلاً :

– ما الخبر ؟

فأجاب سوريانتس قائلاً بلهجة خطيرة أزعجت الملك :

– لقد كنت يا مولاي منذ قليل عند جلالة الملكة الأم وكانت قلقة جداً عليك.

فقال الملك : وما الذي تخشاه السيدة كاترين ؟

فقال سوريانتس دون مواربة :

– السمّ يا مولاي ! وحسب معلوماتي الشخصية أعتقد أنها محقة في خوفها .

فوقع هـذا الكلام على هنري الثالث وقع الصاعقة فاصفرّ وجهه وارتخت مفاصله ولكنه حاول أن يتمالك نفسه ، وكان سوريانتس يراقبه باهتمام فعلم أنه يرتعش في داخله عندما أجاب قائلاً بصوت هادىء :

– عندما يروق للديّان الأعظم أن يدعوني إليه فسوف أمثل أمام قضائه الرهيب دون خشية ودون تعب ضمير .

فقال سوريانتس بحدة: يجب أن تدافع عن حياتك يا مولاي.

فقال الملك بقوة : إن هذا ما أريده .

ثم هزّ رأسه وأردف يقول : ولكن كيف أناضل ضد السمّ ، هذا السلاح الفتاك الرهيب ؟

وقد أجال رغماً عنه نظرات خائفة في جوانب القاعة كأنه يحاول اكتشاف ما يرعبه ولكن سوريانتس طمأنه قائلاً :

إن اكتشاف السمّ يا مولاي أمر سهل جداً على الذي يعرفه جيداً ، ويكفي أن تُلحق بخدمتك رجلاً درس السموم درساً عميقاً شاملاً وعرف سبل الوقاية منها ، فإذا كان مثل ذلك الرجل قرب جلالتك فسوف تكون مهمته أن يحلّل كل ما يريد الملك أن يأكله أو يلمسه وعندئذٍ تستطيع أن تعيش آمناً مطمئناً .

فقال الملك باهتمام كلّي :

– على شرط أن لا يستخدم الرجل علمه ضدي وأن لا يسممني هو نفسه !

فأجاب سوريانتس قائلاً : هذا مفهوم .

فسأله الملك فجأة يقول : وأين نجد هذا الرجل ؟

– إنه تحت متناول يدي يا مولاي ، إنه لي ، وسأعطيك إياه إذا أردت ... وهو هنا في اللوفر لأنني أحضرته معي ، فهل تريد أن أدعوه ؟

فقال الملك دون تردّد : ليحضر .

وبعد أقل من دقيقة كان غاسبار بنياكل يدخل القاعة وينحني باحترام أمام الملك ، وكان قناعه المعهود دائماً على وجهه فأثار منظر القناع قلق هنري فسأل قائلاً بحدة :

– ما هذا القناع ؟

ولم ينتظر الجواب بل أردف يقول :

– يجب أن تُكشف جميع الوجوه أمام الملك فانزع هذا القناع أيها السيد .

فأطاع بنياكل وهو يقول بمرارة : لن يستطيع الملك أن يتحمل رؤية وجهي .

وقد تراجع هنري الى الوراء عندما رأى ذلك الوجه وهو يصيح قائلاً برعب شديد : خبىء ذلك بحق الله ، خبىء ذلك !

فأطاع بنياكل أيضاً وهو ينحني كمن يقول: «لقد أنذرتك.»

وقد أثّر منظر الوجه المرعب تأثيراً شديداً على الملك فأخذ يتأمل بنياكل باشمئزاز ظاهر وقد بدا عليه أنه يتردّد في إلحاقه بخدمته ، فلاحظ سوريانتس ما يعمل في نفس الملك فذكّره بالخطر الذي يهدد حياته وأكد له أن هذا الرجل هو وحده الذي يستطيع إنقاذه من ذلك الخطر . وسُئل بنياكل ، فتعهد مقابل رأسه بأنه سيقي الملك من كل محاولة تسميم . فتردّد هنري أيضاً، ولكن خوفه من الموت كان أقوى بكثير من قرفه من رؤية الوجه المرعب فقال أخيراً :

– لقد قررت أن تبقى قربي على شرط أن لا ترفع هذا القناع أبداً عن وجهك .

فأجاب بنياكل قائلاً ببساطة : لقد كنت على وشك أن ألتمس هذا الأمر من جلالتك .

فوافق الملك بإشارة سريعة من رأسه وأدخل بنياكل فوراً الى جناح صغير قرب جناح الملك وبعد أقل من ساعة أصبح

ذلك الجناح مليئاً بالقوارير والأنابيب وكل ما يلزم للدرس والتحليل ، وبدأ بنياكل عمله فأخذ يحلل كل ما يريد الملك أن يأكله أو يشربه أو يلمسه في مساء ذلك اليوم نفسه . وكان هذا الرجل الحقير الذي رأيناه مساعداً للأستاذ لوران ديزارشيل ووكيلاً عاماً لسوريانتس ، يقوم بعمله الآن في اللوفر كأمهر الكيائيين .

وفي ذلك الوقت كان الملك يقول لسوريانتس وقد تجهّم وجهه فجأة :

– ها إنني بفضل إخلاصك مطمئن من هذه الناحية ، ولكن ماذا تخشى عليّ من ابن عمي دي كيز ؟

– كل شيء يا مولاي إذا تركناه وحده ، ولا شيء طالما أنا صديقه !

وقد قال سوريانتس ذلك باطمئنان الواثق . ففكّر الملك لحظة وقال بابتسامة لطيفة :

– إبقَ صديقه إذن ما دامت هي الوسيلة الوحيدة لتظل صديقي .

وامتدّت الحادثة الخاصة بضع دقائق أيضاً عاد الملك بعدها الى القاعة العامة برفقة سوريانتس وكان يظهر له لطفاً زائداً ويباسطه ويمازحه مما جعل جميع الحاضرين يشعرون بأن سفير إسبانيا الجديد يتمتع برعاية خاصة من ملكهم فتألبّوا حوله وهم يتسابقون الى خطب ودّه .

وغادر الدوقان دي كيز وسوريانتس قصر اللوفر وكان يرافق الإسباني بضعة رجال فقط بينما كانت حاشية دي كيز

جديرة بملك ، وقد ضمت ما عدا بومبينيان ومولیستراك والنبلاء المائتين والخمسين المنتقين من أعظم عائلات فرنسا ، ضمت عشرين ضابطاً مرموقين ومشهوداً لهم بالكفاءة والشجاعة مثل شاموا وبوادوفين وسان بول وديشيفول ومنيفيل ومن إليهم . وكان سوريانتس يسير مع دي كيز جنباً الى جنب ، فهمس في إذنه قائلاً :

– لقد تمكنت من وضع جاسوس قرب الملك وسوف نطّلع على كل ما يهمنا ساعة بعد ساعة . قلتُ «جاسوساً» ولكنه قد يكون أفضل من ذلك بكثير لأن أحداً لا يعرف السموم مثله .

فلبث دي كيز لحظة مفكّراً ساهماً ثم ضرب بقوة على مقبض سيفه الثقيل وهو يقول :

– هذا هو السمّ الأفضل !

الدوقة دي كيز

★

لقد قلنا إنه بينما كان سوريانتس ذاهباً الى اللوفر برفقة دي كيز ، سارت زوجته وشقيقتها هرموزا لرد الزيارة الى كاترين دي كليف دوقة دي كيز .

وكانت تلك الدوقة شابة جميلة خفيفة مرحة تنسجم طباعها في بعض النواحي انسجاماً تاماً مع طباع جوسلين دوقة دي سوريانتس ، وقد أدّى انسجام الأذواق والميول بهاتين المرأتين

الى الارتباط بصداقة وثيقة .

أما هرموزا فكانت دائماً كما عهدناها رصينة قليلة الكلام تكتفي في معظم الأحيان بأن تلاحظ ما يجري حولها بصمت .

وبعد أن تعانقت كاترين وجوسلين بحنان جلست هذه في مقعد وصاحت تقول فوراً بخفتها المعهودة :

– لدي خبر سارّ أيتها الدوقة العزيزة ! إن الدوق دي سوريانتس قد عيّن سفيراً لإسبانيا وهو الآن يقدّم أوراق اعتماده للملك .

– وهل أنت سعيدة بهذا التعيين !

– دون شك .

– في هذه الحالة يا جميلتي أهنئك من كل قلبي .

وقد قالت دوقة دي كيز الجميلة هذا القول وهي تمط شفتيها، فلاحظت جوسلين ذلك وقالت :

– إنك تقولين لي ذلك بهيئة مضحكة .

– هذا لأنني لا أرى الفائدة التي تجنينها من ذلك التعيين الذي يسعدك كل هذه السعادة ...

– كيف تقولين ذلك ؟ ألا تعلمين أنه عندما يكون زوجي سفيراً لإسبانيا نصبح من أصفياء الملك هنري الثالث وندعى بالتالي الى جميع الأعياد والحفلات ؟

– إذا كنت تحبين التملق والسير حافية على البلاط الناتىء والشباب والجمال والمزاح والكلام الفارغ ، فهذا شأنك .

وقد قالت ذلك بلهجة أضحكت جوسلين فأسرعت تقلدها

قائلة :

– أنا لا أجهل وجود كل ما تقولينه في بلاط فرنسا ، ولكن الدوق دي سوريانتس بصفته سفيراً في ذلك البلاط ، يستطيع أن يؤدي خدمات كبيرة للدوق دي كيز زوجك .

فصاحت كاترين قائلة :

– أنا لا أحبذ تدخّل المرأة في السياسة ولا أستطيع أن أتحدث فيها ، أما فيما يتعلق بالدوق زوجي فأنا ... أنا لا ...

وأرتج عليها، فقهقهت المرأتان قهقهة طويلة، وكانت هرموزا تسمع تلك السخافات بوجه رصين جامد القسمات لا يُسبر غوره فسألتها كاترين قائلة وهي تضحك :

– وأنت يا جميلتي ، هل تهتمين بالسياسة ؟

فأجابت هرموزا قائلة باقتضاب: نعم. ثم خرجت قليلاً عن جمودها وتابعت تقول :

– إن السياسة مهنة شديدة الخطورة وهي أمتع مهنة في نظري . فما أجمل دفع الرجال الى الخير أو الى الشر والتحكّم بمصيرهم ، كأن ترَي رجلاً أجمعت الآراء كلها على نعته بالرجل العظيم لعبة بين يديك تسيطرين على قلبه وتوجّهينه وفق أهوائك وميولك الى حدّ أنك لو أردت لأقدم ذلك الرجل والسيف في يده على احتلال الكون وطرحه تحت قدميك، ثم إنك بواسطته تسيطرين على الألوف والملايين من الرجال فيخضعون كلهم وفق أوامرك . إن ذلك لا يستهان به على ما أعتقد . فلماذا إذن لا تتدخل المرأة في السياسة ؟ يلوح لي ، أنا شخصياً ، أنها لم تُخلق

إلا لذلك ... ولا بد أن يكون مخترع السياسة امرأة . ألقي نظرة على أحداث التاريخ من أسبازيا الى أنياس سوريل ، تري أن المرأة كانت دائماً شديدة الفعالية في السياسة ، ولطالما حلمتُ وتمنيت أن أكون واحدة من هؤلاء النساء !

– وإلام كنت تدفعين الرجال ؟ أإلى الخير أم الى الشر؟

– لا أعلم ، ولكن ...

وسكتت هرموزا فجأة وعادت الى الانطواء على نفسها فبدت جامدة مقلقة كعادتها .

فقالت كاترين – الدوقة دي كيز – ضاحكة :

– لتذهب السياسة الى الجحيم ! لأن لدينا ولله الحمد وسائل للسيطرة على الرجال ! لدينا الحب يا جميلتي وهو السيد الوحيد المطلق الذي يسيطر ويتحكم بكل شيء ، وهو ليس مزعجاً كالسياسة لأنه يسعد الجميع ، النبلاء والعامة ، سيدات المجتمع وبنات الشوارع.

وبعد هذا الكلام بدأت جوسلين وكاترين تنتقدان بلاط هنري الثالث ، وقد أعلنتا أخيراً أنه مزعج كالسياسة .

وفي تلك اللحظة أتى خادم يعلن قدوم الكونت دي سان ميغرين وقد دخل هذا على الأثر وكان مثال الرجل الأنيق حسب مفهوم ذلك العصر ولكن كان في أناقته بعض التخنث والمبالغة . إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يكون شجاعاً محبوباً .

وقد تقدّم بلطف وحذر كأنه يخشى أن يُفسد انسجام لبسه البديع ، وانحنى فقبّل أولاً يد الدوقة دي كيز ثم يد كل

من جوسلين وهرموزا .

وبعد أن تبادل الجميع المجاملات التي لا بدّ منها عادوا يتابعون الحديث في الموضوع نفسه الذي كانت الدوقة دي كيز وجوسلين تتبادلانه قبل وصول الكونت ، وقد اشترك هذا معهما الآن ويظهر أن الموضوع كان يلذه بمقدار ما يلذ المرأتين .

أما هرموزا فإنها عادت الى صمتها المعتاد مكتفية بالإصغاء والتأمل . ولم يكن بين المرأتين وسان ميغرين أي أثر للكلفة ، وقد بدا على الشاب أنه مغتبط جداً بلقاء الأختين ولم يبدُ على ربة الدار أي أثر للانزعاج أو ضيق الصدر ، ولكن جوسلين كانت حساسة جداً وقد لاحظت أن وجودها ووجود أختها قد يضايق الكونت والدوقة فمكثت هنيهة أيضاً بمقدار ما تقتضيه اللياقة ثم استأذنت بالانصراف وشعرت عندما ودعتها الدوقة وعانقتها أن صديقتها شاكرة لها ذلك الصنيع .

وما إن خرجت الأختان حتى ألقت الدوقة دي كيز بنفسها بين ذراعي سان ميغرين وتعانق العاشقان طويلا .

وقد لبثا متعانقين بضع دقائق لم يكن يُسمع خلالها سوى كلمات متقطعة وتنهدات وزقزقة قُبَل ونسيا في تلك اللحظة كل ما عداهما حتى أن سان ميغرين لم يعد يلقي بالاً الى إفساد ثوبه الفاخر الأنيق الذي حرص عليه كل الحرص منذ قليل .

وعادا من سمائهما ولبثت اليدان في اليدين والعينان في العينين وكانا يتأملان بعضهما برضى وغبطة الى أن نهض سان ميغرين وقد تجهّم وجهه فجأة وقال بمرارة :

– إن الدوق يشكّ فينا ، وأنا على يقين من أنه قد كلّف بعضهم بمراقبتنا ! إن هذه الحياة التي نحياها لا تُطاق ، ومن الظلم أن نرى بعضنا بضع ثوانٍ من بعيد لبعيد بينما لا تكفينا الحياة كلها لتنعم بكامل حبنا . لا يمكن أن يدوم الأمر هكذا وإلا فقد أجلب الويل على نفسي ... فما العمل يا ربي ، ما العمل ؟

وكان يطرح هذا السؤال على نفسه ولكن الدوقة فكّرت قليلاً وأجابت قائلة :

– يجب أن ألحق بخدمتي فتاة تكون لي فيها ثقة تامة . نعم هذا ما يلزمني ! وسوف أبحث عن تلك الفتاة وأجدها .

ولما كان سان ميغرين يسألها بنظره عن غايتها ، فإنها تعلقت بعنقه وهمست في أذنه تقول :

– صبراً يا حبيبي صبراً وثق بي لأن ما تريده المرأة يريده الله كما يقولون . وأنا أريدك بمقدار ما أنت تريدني ، فدعني أعمل وسوف ترى أنك لن تأسف في النهاية .

في ساحة غريف

*

بعد خروج دي كيز وسوريانتس من اللوفر أراد السفير الجديد أن يرافق صديقه الى قصره ، فسار الموكب على أرصفة النهر لغاية الشاتيليه ، وكان الناس يهتفون لهنري دي كيز ويحيّونه بتحية المُلْك وكان هو يجيبهم بلطف يزيدهم حماساً وهتافاً.

ولما أطلّ الموكب على ساحة غريف خفّف الفرسان من سرعة جيادهم لأن الساحة كانت غاصة بالجماهير وقد نُصبت في وسطها محرقة كبيرة لم يكن ينقصها إلا الإشعال ، فأوقف دي كيز جواده وسأل قائلاً :

– ألعلّهم ينفذون حكماً بالإعدام في هذه الساحة ؟

فأجاب نبيل من أتباعه قائلاً :

– نعم يا مولاي ، إنهم يريدون إحراق ساحرة !

فوجّه دي كيز كلامه الى سوريانتس قائلاً :

– يا لله ! بما أن الصدفة قد ساقتنا الى هنا فما قولك في حضور هذه الحفلة؟ لعلّ في ذلك ما يذكرك بمحارق إسبانيا الجميلة!

فانتصب سوريانتس بكبرياء وأجاب قائلاً :

– ومن أين لهذه الشعلة الصغيرة أن تذكّرني بمحارق بلادي العظيمة الهائلة التي لا يمكن لأحد أن يكوّن فكرة عنها ما لم يرها ؟ ولكن لا يهمّ ، فإن فُرصَ اللهو أصبحت نادرة جداً منذ وقت ليس بقليل ، فلنغتنم إذن هذه الفرصة التي عرضت لنا دون أن نبحث عنها.

– إنك لن تنتظر كثيراً ... فها هي الساحرة اللعينة !

وكانت التي لقبها دي كيز بالساحرة اللعينة عجوزاً تعسة مهدّمة تنظر الى ما حولها كالمخبولة وهي لا تفهم أبداً كيف أنهم يكافئون بالموت حرقاً على عمل بعض الخير في مجتمعها.

وكانت فقيرة بائسة حزينة النظرات رثة الثياب ، ولكنها لم تكن تريد أن تموت ، فكانت تقاوم بأفضل ما عندها وبما

تستطيعه قواها الواهية ، وقد انبطحت على الأرض وجعلت تتقلب فكان المحيطون بها يجرّونها جراً وهي تطلق الصيحات المتوسلة والنداءات المؤثرة وكانت من وقت الى آخر تصرخ قائلة :

– إليّ يا جيل ! النجدة يا ولدي !

وكان حول المحرقة ، في الصفوف الأولى وهنا وهناك بين الجماهير ، وجوه رهيبة مقلقة كما يوجد دائماً في الظروف المماثلة . وفي الصف الأول ، أمام المحرقة تماماً ، كان يوجد أحد تلك الوجوه وهو متشرد مخيف يُدعى « جيل الذئب » وهو ابن الضحية التي تستحثه على نجدتها بتلك الصيحات المؤثرة التي لم تكن تصل الى مسامعه بسبب الضجة الهائلة التي تهدر حواليه وصيحات الموت التي تشق عنان الفضاء .

وكان وجه « جيل الذئب » في تلك اللحظة ينضح بأسى مرير ولوعة مؤثرة وكانت الدموع الغزيرة الحارة تسيل دون انقطاع على خدّيه المكسوين بآثار الجراح وتضيع في لحية كثّة قاسية كأنها شعر خنزير بري ، وكان يتكلم بنوع من الهدوء المتمرّد المحتقر قائلاً للذين حوله :

– ماذا ؟ أتريدون أن تدعوها تُشوى أيها الجبناء الأنذال ؟ إنكم كلكم ما تزالون أحياء بفضلها لأنها اعتنت بكم وشفتكم حين لم يكن لديكم ما تدفعونه أجرة للطبيب ... أهذه هي معرفة الجميل ؟ وماذا فعلت العجوز المسكينة طيلة حياتها إلا الخير ؟ فهل عمل الخير جريمة ؟

وصدف أن كان قرب « جيل الذئب » في تلك اللحظة شاب تلوح في وجهه الجرأة النادرة بأجلى معانيها ، وقد سمع حديث

المتشرّد المؤثر فظهرت على محياه النبيل علائم الشفقة والرثاء .

وكان هذا الشاب الفارس هوبير دي راكستان ... وقد بدا عليه أنه لم يحصل على الثروة في باريس فكانت ثيابه لا تزال رثة بالية ولكنه كان يرتديها ، على عادته دائماً ، بفخر واعتزاز ولامبالاة لم تكن تدع أحداً يفكر في انتقادها وخاصة بعد النظر الى وجه صاحبها الذي يفيض شجاعة ونبلاً والى عينيه المرحتين اللتين تتحديان جميع الأخطار ، والى تلك القامة الطويلة الرشيقة التي تشبه نصلة من أصفى أنواع الفولاذ ، وأخيراً الى السيف الطويل الماضي الذي يخبط جنبيه إن مشى ، والذي لا يمكن أن يتقلده إلا من كان طويل النجاد مثله .

ولما رأى هوبير أن جميع الذين خاطبهم جيل الذئب يلازمون الصمت عصفت به النخوة فسأل قائلاً :

– أتقول إنها لم تفعل الشرّ أبداً ؟

فارتعش جيل الذئب وقد شام من خلال لهجة الشاب بارقة أمل وأجاب قائلاً ببساطة :

– إسأل هؤلاء .

وأشار الى الذين يحيطون به مباشرة وكان بينهم متشرّدون مثله وبعض التجار والأغنياء .

فقال أحد المتشرّدين : إنني مدين لها بحياتي ، وأدعى بوتوا لاتيس .

وقال ثانٍ : أنا أدعى ماكلو الصاعقة ، وقد شفتني من حمّى خبيثة .

وقال ثالث : وأنا أدعى ريبو لاردور ، وقد شفتني من طعنة خنجر خطرة جداً .

فقال الفارس دي راكستان بحزم : إذن ، يجب ألا تُحرق !

وقد قال ذلك وهو يضحك كأنما الأمر الذي يدعو إليه من أبسط الأمور ، فأثّر هدوؤه في المحيطين به تأثيراً كبيراً حتى أن جيل الذئب نفسه بدأ ينظر إليه بإعجاب وإكبار .

ولكن راكستان لم يبدِ ما يدلّ على أنه لاحظ التأثير الذي أحدثه بل وقف على أصابع قدميه وألقى نظرة سريعة شاملة من فوق الرؤوس فرأى المحكوم عليها بالحرق على بعد مائة خطوة تقريباً من المحرقة ، فقال يخاطب نفسه :

— حسناً ، إنهم لن يبلغوا المحرقة قبل دقيقة أو دقيقتين فيما إذا لبثوا سائرين بتلك الخطوات .

ثم استدار على نفسه وكان وراءه رجلان يرافقانه وقد سمعا كل ما قاله . ولم يكن من لزوم للنظر مرتين للتحقق من أن هذين الرجلين مبارزان رهيبان، وكان أحدهما عملاقاً ضخم الجثة فوجّه راكستان إليه الحديث قائلاً :

— ما قولك في ذلك يا ميلورد جندارم ؟ تكلم .

فقال العملاق وهو يلقي الى ما حوله نظرات هائلة :

— أنا لا أقول شيئاً ... ولكن ليأتوا وسوف نرى .

فابتسم راكستان قائلاً : هذا جليّ تماماً .

ثم التفت نحو الرجل المعتدل القامة وقال : وأنت يا ماراسكين ، ما تقول ؟

فقال ماراسكين بلهجة ذات معنى : أقول إننا نتحدى الموت؟

ثم أردف فوراً : ولكننا برفقتك قد ننجو منه .

ولبث الرجلان متأهبين للنزال، وعندئذٍ سُمع صوت يقول :

— أقسم بالسيدة العذراء أنني سوف أسحب أمعاء كل من تسوّل له نفسه أن يعترض طريق عدالة الملك بالسهولة نفسها التي أدعى بها سبارتيموسكا .

وكان الذي نطق بهذا الكلام رجلاً أشبه بالمهرّجين ، وكان يتكلم وهو يجيل حوله عينين بارقتين ويفتل شارباً طويلاً كثيفاً ويضرب الأرض برجله فيحدث ضجة تفوق ضجة أربعة رجال مجتمعين. ولكن سوء حظه شاء أن يكون قرب ميلورد جندارم وقد مدّ العملاق ذراعه ليزيح المعطف عن كتفيه قليلاً فاصطدمت قبضته الهائلة بفم ذلك الذي يدعو نفسه سبارتيموسكا فسقط المهرج على الأرض والدم يتدفق من أنفه .

فأنّب راكستان العملاق قائلاً بلهجة صارمة :

— يا لك من فظّ غليظ ! ما حاجتك بضرب هذا المهرج الشجاع الذي يحافظ على عدالة الملك؟ وها إنك قد آذيته وجرحته .

فاعتذر العملاق قائلاً : ولكني لم أفعل ذلك قصداً يا سيدي. لقد كنت أصلح من وضع معطفي ...

فقال راكستان باسماً : إذن فأنت معذور .

ثم التفت الى جيل الذئب وقال له :

— سنحاول أن نخلّص أمك من المحرقة ولكن لا بدّ أن يكون لك بعض الرفاق الشجعان بين الجمهور ، أليس كذلك ؟

– لدي بوتوا لالتيس وماكلو الصاعقة وريبولاردور وهم رجالي الأخصاء الذين يتبعونني دون أي تردّد ، وقد ينضمّ إليّ بعض الرفاق المخلصين أيضاً عند بدء المعركة .

فألقى راكستان على الذين سمّاهم جيل الذئب نظرة فاحصة فأشرق وجهه بابتسامة رضىً وقال بلطف : لن تُحرق أمك أبداً !

فقال جيل الذئب بصوت مختنق : إذا فعلت هذا معي فإنني لن ...

فقاطعه راكستان قائلاً في هدوء : من عادتي أن أحافظ على وعدي .

فكرّر جيل الذئب قوله : إذا فعلت هذا معي ...

فابتسم راكستان وقاطعه قائلاً بلطف : لقد فهمت ما تريد قوله فلا تحاول المزيد ...

وأردف يقول بلهجة آمرة :

– والآن هذه هي الخطة : ستأخذ أنت رفاقك الثلاثة ويظلّ باقي الرجال معي . وعندما تصل أمك أمامنا ، وها هي تقترب ، نهاجم نحن الحرس فلا تهتمّ بنا بل اجعل هدفك الوحيد أن تأخذها وتغادر الساحة ونكون نحن ذلك الوقت مشتبكين مع الحرس ولن يلقي أحد بالاً إليكم ، وسوف نصمد الى أن تبتعدوا عن نطاق الخطر .

فتردّد جيل الذئب وقال متأثراً :

– ولكنك ستموت دون شكّ في سبيلي وأنت لا تعرفني يا سيدي .

– إنك ولد يريد إنقاذ أمه البريئة وهذا يكفيني . أما ما يتعلق بموتي فلا يهمني إن كان هنا أو في أيّ مكان آخر .

فظلّ المتشرد على تردّده . فقال راكستان بلهجة أكثر لطفاً :

– إذا كنت تريد إنقاذ أمك حقاً فعليك أن تفعل ما قلته لك دون أن تهتمّ بأي شيء آخر .

فرمقه جيل الذئب بنظرة لا يمكن تحديد ما فيها من عاطفة الامتنان والإعجاب ثم قال بصوت متهدج :

– حسناً ، هيا بنا !

وساد الصمت بين الفارس ورفاقه بضع ثوانٍ . وكانت العجوز التعسة قد وصلت في ذلك الوقت الى قرب المحرقة حيث كان راكستان ينتظرها .

وعندئذٍ انقضّ الفارس على الرجال المحيطين بالعجوز كأنه الصاعقة . ومن المدهش حقاً أنه لم يكن أحد يستطيع أن يعرف في هذا الأسد الوثاب المشتعل العينين ، ذلك الشاب المرح البسيط المتواضع الذي كانه في اللحظة السابقة .

وقد انقضّ على الحرس وفعل رفيقاه مثله وصحّ ما توقعه جيل الذئب فوراً فإن متشرّدين آخرين انضموا بسرعة الى الفارس عندما رأوه يهاجم الحرس وهم سعداء في نفوسهم بالهجوم على رجال السلطة .

وكانت الصدمة هائلة بمقدار ما هي مفاجئة ، وقد اعترى الحرس ذهول شديد فتخلوا عن فريستهم . وصحيح أن ذلك لم يكن لوقت طويل ، ولكنهم عندما عادوا الى نفوسهم

وانتظموا في صفوف متراصة ليجابهوا السيوف التي تخترق أجسامهم بسرعة البرق ، كانت العجوز قد اختفت، وكان مساعدا الجلاّد اللذان يمسكانها مطروحين على بلاط الشارع دون حراك. وهناك، في مكان بعيد عن المحرقة ، كان بوتوا لالتيس وماكلو الصاعقة وريبولاردور يطعنون ويضربون في صدور الجماهير وأقفيتهم ويفتحون طريقهم أمام جيل الذئب الذي كان يحمل أمه .

وقد حصل عندئذٍ ما توقعه راكستان ، فإن الحرس والجنود والجمهور ساءهم أن يتعرّض بعض الرجال لعدالة الملك... فأرادوا أن يسترجعوا فريستهم مهما كلف الأمر، فحملوا بدورهم على المهاجمين .

فتلقى راكستان الصدمة بمساعدة ميلورد جندارم وماراسكين وحوالي عشرين متشرداً ، وكان قد وعد بالصمود وقتاً يسمح لجيل الذئب أن يبلغ بأمه مكاناً أميناً ، فكان أهون عليه أن يُقطّع إرباً في مكانه من أن يخلّ بوعده ، فحمل حملة جبارة على رجال السلطة وكان يظهر بسيفه الطويل الماضي الذي أصبح الآن كأنه جزء لا يتجزأ من الذراع الفولاذية التي تطعن هنا وهناك فتخترق الصدور وتفلق الجماجم ، كان يظهر بسيفه هذا في كل مكان في آن واحد ! وكان المهاجمون كيفما توجهوا وأينما حلوا يرون أمامهم ذلك الشيطان الرهيب الذي يلذعهم بذبالة سيفه ويحطم رؤوسهم بقبضة يده اليسرى .

وعندما رأى الفارس أنه قاوم وصمد وقتاً كافياً وقدر أن جيل الذئب قد ابتعد بأمه عن الساحة بدأ عندئذٍ يفكر في

نفسه ورفاقه وعدّل خطته من الهجوم الى القتال مع الانسحاب، وكانت ثيابه قد تمزقت شذر مذر والدم يكسوه من رأسه الى قدميه ، وقد بدا رائعاً مخيفاً الى حدّ أن كل الذين كانوا في الساحة نسوا المحكوم عليها التي كانت قد ابتعدت الآن بحيث لا يمكنهم إدراكها وانقضّوا عليه غاضبين ناقمين وهم يصيحون صياح الموت .

وكان هوبير راكستان في تلك اللحظة ، قد انتحى في زاوية من الساحة ولم يبق معه إلا تابعاه فقط ، لأن المتشرّدين الذين ساعدوه هربوا في مختلف الجهات . ومع ذلك فقد ظلّ الرجال الثلاثة صامدين بشجاعة لا توصف وكان من الممكن أن ينجحوا في تحقيق أعجوبة نجاتهم لو لم يتدخل الدوق دي كيز في تلك اللحظة ويأمر رجاله بمساعدة الذين يهاجمونهم .

وكان أتباع الدوق يتحرقون شوقاً لخوض المعركة فانقضّوا ، شاهرين السيوف ، على الفارس وتابعيه وهم يصيحون قائلين :

— أقتلوا ! أقتلوا !

وكان الكونت دي بومبينيان راكستان — شقيق هوبير — في الطليعة والى جانبه البارون دي موليستراك، فانقض الكونت على هوبير وتشابك السيف بالسيف وانزلقت النصلة على النصلة الى المقبض وكادا يتطاعنان الطعن المميت عندما عرف كل منهما الآخر فانطلقت عندئذٍ صيحة هائلة خرجت من الفمين المتقلصين في الوقت نفسه :

— أخي ! ... أخي ! ...

منزل لابواس

*

عرفنا أن ترومبافيور انقضّ على ريون دور فحملها بين ذراعيه القويتين ووثب بها الى منزل تلك المرأة الرهيبة المدعوة لابواس ، وقد دخلت هذه وراءه فأغلقت الباب بسرعة وأقفلته وخبّأت المفتاح . وعندئذ فتح ترومبافيور ذراعيه وترك الفتاة التي كان يضمها بقسوة حتى تلك اللحظة .

ولم تكن ريون دور قد فقدت وعيها ، فرأت نفسها على ضوء سراج ضئيل في شبه مخزن كبير مكتظ بجميع أنواع البضائع من ثياب وأحذية ومقاعد وأسرّة وحلى وأسلحة وأشياء أخرى مختلفة الأشكال والأحجام ، وكان كل ذلك نظيفاً جداً ومصفوفاً بترتيب وعناية .

ولكن تلك البضائع كانت جميعها مسروقة إذ أن جميع لصوص حيّ « الهال » كانوا يبيعون ما يسرقونه للابواس التي كانت تشتري البضائع بأبخس الأثمان وتبيع بأغلاها حتى ولو كان الشاري هو اللص نفسه الذي باع ما يشتريه !

وكانت ريون دور لا تعلم شيئاً عن باريس ولصوصها فلم تشتبه أبداً في حقيقة مصدر تلك البضائع المكدّسة بل ظنت أن لابواس تاجرة شريفة مستقيمة ، وبدأت تلوم نفسها على خوفها منها . ولكن ذلك لم يكن يعني أنها كانت تريد أن تبقى تحت تصرف تلك العجوز التي لا تعرفها ، فهزّت رأسها سلباً وقالت

بحزم :

– لن أذهب الى أبعد من هنا طالما أن الباب مقفل ، وإنك لا توضحين لي بصدق عن سبب إدخالي الى هذا المكان بالقوة .

– لقد أردت أن أجنبك رجال الشرطة الذين سيلتقطونك دون شكّ ويقودونك الى السجن . أما إذا كنت تفضلين ذلك فإنني أفتح لك الباب فوراً .

فقالت ريون دور بخوف : لماذا يسوقونني الى السجن ؟ إنني لم أرتكب أي عمل مخالف للقانون .

– أعرف ذلك ، ولكن القانون في باريس يقضي بحبس النساء اللواتي يصرفن الليل في الشارع . فإذا دخلت السجن وجاء من يسأل عنك فإنك لن تلبثي فيه طويلاً ، أما إذا لم يكن لك أحد فإنك لن تخرجي منه أبداً . إن لك أقارب وأصدقاء دون شكّ سيقلقون عليك ويخرجونك ، وبما أنك لا تريدين أن تبقي في منزلي فعليّ أن أفتح لك الباب .

وقد قالت العجوز تلك الكلمات ووضعت المفتاح في القفل وهي تراقب الفتاة من طرف خفي ، فحدث ما كانت تتوقعه إذ أن ريون دور صاحت تقول برعب شديد :

– ولكنني وحيدة في الوجود وليس لي أقارب أو أصدقاء !

– إنك تثيرين شفقتي ، ولذلك أكرّر ما عرضته عليك منذ قليل وهو أن تبقي في منزلي الى صباح الغد .

– إنك مثال الكرم يا سيدتي ، ولكن بولو وفرنغو ، وهما كلبي وحماري ، قد يقع لهما ما يكدّر فيما إذا لبثا وحدهما في

الشارع ، ولذلك فإني لا أريد أن أتخلّى عنهما . إسمعي نباح بولو الطبيب يا سيدتي ، لقد شعر دون شكّ بأنني هنا وها هو يئنّ ويتألم في الجهة الثانية من الباب، فأتمي جميلك واقبلي رفيقيّ الطيبين في ضيافتك أيضاً وإلا فأنا أفضل الذهاب الى السجن ولا أتخلى عنهما.

وقد قالت ذلك بعزم وتصميم ، ففهمت لابواس أنها لن تتردّد في تنفيذ قولها فأسرعت تطمئنها قائلة :

– إن منزلي كبير ولدي زريبة صغيرة تلائم حمارك جداً فلا تقلقي .

وكانت السهولة التي قبلت بها العجوز أن تضيف الكلب والحمار قد أثّرت في ريبون دور تأثيراً عميقاً فشكرتها وهي تكاد تطير فرحاً ، وعندئذ سار ترومبافيور فأدخل فرنغو الى الزريبة ، تاركا ريبون دور مع لابواس .

وكان الخوف قد تبدّد في نفس الفتاة فلبثت هادئة مطمئنة ولكنها لاحظت في نهاية القاعة غرفة صغيرة تنام فيها مضيفتها ، وكان في تلك الغرفة درج ضيّق يؤدي الى الطابق الأول الذي لم يكن له مدخل آخر سواه ، وقد لفت نظر ريبون دور أمر غريب وهو أن سرير لابواس كان موضوعاً عند أسفل ذلك الدرج بطريقة تجعل الصعود والنزول مستحيلين دون إزاحة ذلك السرير ، أي أنه عندما يكون أحد في الطابق الأول فإنه لن يستطيع الخروج إذا رفضت لابواس إزاحة سريرها .

وقد لاحظت ريبون دور ذلك الترتيب الخاص ولكنها لم

تعلق عليه أهمية كبيرة .

وحاولت لابواس أن تضع بولو في الزريبة مع فرنغو ، ولكن الكلب الشجاع النبيه كان شديد الحذر وقد أبطل بمهارته حِيَل العجوز كلها فكفت عن محاولاتها خوفاً من إغضاب الفتاة ، وقد نتج عن ذلك أن بولو تبع سيدته الى الطابق الأول حيث يجب أن تنام وكان في هذا الطابق غرفة كبيرة مجهزة ببضعة أسرّة ، فلم ترق الغرفة كثيرة لريبون دور المعتادة على العيش وحدها ، ولكن نظافة المكان جعلتها تتغاضى عن الاهتمام بمثل تلك الأمور ، فاندست بين الشراشف البيضاء في السرير الصغير الذي عينته لها لابواس ولم تلبث أن استغرقت في النوم تحت حراسة بولو الذي تمدد بدوره عند أسفل السرير .

وقد أوت لابواس الى فراشها في الطابق الأرضي وكانت إبتسامة الظفر تلوح على شفتيها المزمومتين وهي تفكّر في المبالغ الكبيرة التي سوف تدرّها عليها تلك التي بدأت تسميها «الأميرة» دون أن تدري أنها تقول الحقيقة !

حول منزل لابواس

*

قلنا إن موسكاد وسافير وبرغاموت فتيات جميلات ، ولا بد لنا أن نضيف الى ذلك بعض الإيضاحات .

كانت موسكاد ذات عينين سوداوين جميلتين شديدتي اللمعان ،

وخدين بلون الدم القاني . وكانت فخورة جداً ببريق عينيها وحمرة خديها وهي تجهل أنها من تأثير الحمّى، فإن الفتاة المسكينة كانت مصابة بإحدى الحميات الخبيثة دون أن تعلم . وكانت كثيرة اللطف رصينة حالمة، وكانت خطيبة جيهان جيهني حفّار القبور في تربة الأبرياء .

وكانت سافير قصيرة القامة كثيرة الحيوية والدلال ، مرحة وثارة طائشة لا تفكر إلا في الضحك واللهو ولكنها طيبة القلب جداً تخدم أصدقاءها بكل قواها .

أما برغاموت فكانت ممتلئة الجسم قوية البنية تميل الى المشاغبة ، وهي شجاعة تجيد القتال حتى أنها تستطيع مقاومة رجل ، ولكنها لم تكن فظة غليظة بل تستطيع عندما تريد أن تكون متناهية اللطف والرقة .

ويذكر القراء أن موسكاد وسافير قد نصحتا ريون دور بعدم الذهاب مع لابواس وأنهما أشفقتا على مصيرها عندما تدخّل ترومبافيور .

وقد أظهرت برغاموت وحدها جفاء شديداً تجاه ريون دور ، وكان جلياً أن الفتاة لم ترق لها وقد تكون وقفت منها هذا الموقف لأن جمالها الأخاذ ولّد في نفسها شيئاً من الحسد والغيرة .

وبعد أن حمل ترومبافيور ريون دور الى منزل لابواس وأغلقت هذه الباب وراءها لبثت موسكاد وسافير تنتظران هنيهة في الشارع كأنما تأملان حدوث أعجوبة تنقذ الفتاة المجهولة التي استلطفتاها جداً من براثن العجوز الرهيبة . فلم تحاول برغاموت

أن تدعوهما لمغادرة المكان بل لبثت تنتظر معهما وتصيخ بسمعها كما تفعلان ، الى أن قالت لهما أخيراً بابتسامة ساخرة :

– إنكما تضيّعان وقتكما دون جدوى ، إنها لن تصرخ ... ولن يُفتح الباب ...

ولم تنطلق فعلاً أية صرخة أو ضجة تدلّ على العراك . وكان يظهر أن ريون دور قبلت بسهولة عروض العجوز ، فقالت موسكاد مدهوشة :

– من كان يعتقد ذلك ؟ !

فقالت سافير متعجبة :

– كان من يراها يظنّ أنها تستطيع المناولة دون اعتراف لما يبدو عليها من مظاهر الطهر والبراءة ... فلنحذر بعد اليوم أن نثق بالظواهر !

فقالت برغاموت منتصرة :

– لقد قلت لكما إنها محتالة خبيثة وسوف نرى منها نحن الثلاثة ولابواس نفسها كل غريب مدهش . يالله ! كأنها لم تكن تريد إلا دخول المنزل !

ثم أعربت عن فكرتها رغماً عنها عندما أردفت قائلة: سوف تكون الحياة جحيماً مع مثل هذه الرفيقة .

فغيّرت موسكاد مجرى الحديث وسألت قائلة : الى أين نذهب ؟

وأجابت نفسها قائلة : الى حانة غراندوق ، عند موفيت غول دور .

فاحتجّت سافير قائلة :

– لا ، إن موفيبت غول دور مزعجة جداً ، فلنذهب الى حانة « تروي فيديل » عند ليونارد بانكال ، لأن هذه لا تخشى من أن تشرب كأساً مع زبائنها .

فأيّدت برغاموت اقتراح رفيقتها وقالت :

– نعم لنذهب الى تروي فيديل ، وإن لم يلائمنا الجوّ فلن يفوت الوقت للذهاب الى حانة غراندوق .

ثم اتّجهت الفتيات الثلاث صوب الهال ، ولكنّهن لم يذهبن بعيداً فعند وصولهن الى محل الفاكهة على مقربة من بيت لابواس ، سمعن من يناديهن في الظلام ، فوقفن مدهوشات . وكان باب المحل مشقوقاً فسمعن امرأة تطمئنهن قائلة :

– لا تخفن ، أنا الأم بينيات بائعة الثمار .

فدفعهن الفضول الى الاقتراب ، وعندئذ ُفتح الباب على مصراعيه ، فرأين داخل المخزن المكتظ بسلال الفاكهة والبقول عجائز أربعاً يجلسن في الظلام . ولما كانت صاحبة المحل قد سمّت نفسها الأم بينيات ، فإنها تابعت تسمّي الثلاث الباقيات قائلة :

– جاراتنا الفضليات : السيدة كورج المرابية ، والسيدة بونيون بائعة اللبن ، والسيدة توماس الحائكة ، وكلهن من شارع تريانذري مثلنا .

فحيّت العجائز الفتيات وقلن بصوت واحد :

– هكذا ... إذن ؟ !

فقالت الفتيات مدهوشات : ماذا ؟ !

فانطلق عندئذ سيل من الكلام الرخيص الخبيث فقالت السيدة كورج :

– لقد رأيتها منذ دخلت الشارع مع حمارها وكلبها وقد أتيت مسرعة الى هنا . هل نظرتن الى زيها ؟ إنه من الحرير والساتان .

فقالت السيدة بونيون :

– لقد سمعت أنها أقامت شارع موغارتر وأقعدته بواسطة حمارها وكلبها ، وقد خرجتُ مسرعة أنا أيضاً وتبعتها لأرى الحرير والساتان عن قرب .

– أهي الآن عند لابواس ؟ أتريد أن تسكن معكن ؟

– إنه عار لا يمكن التغاضي عنه فماذا يفعل رجال الشرطة؟

– يا للصغيرات المسكينات ! إنني أرثي لحالكن مع مثل هذه الرفيقة !

– يا لها من حسناء لعينة ! سوف تستأثر بجميع أصدقائكن..

– إنها حسناء ، كما تقولين ... ولكنني لو كنت رجلاً لما اخترتها أبداً ...

– إنها مسألة ذوق ! أما أنتن يا صغيراتي ، فاصمدن جيداً .

– غجرية لا يعرف أحد من أين أتت تريد السيطرة عليكن! إنه أمر لا ُيطاق .

وانطلقت بعدئذ سيول من الشتائم واللعنات والاتهامات . ولكثرة ما أفرغن من تلك البضاعة انتهى الأمر بالفتيات الثلاث الى ترك المكان فجأة دون أية كلمة مجاملة ، مما هاج العجائز

الشرّيرات وحرّك الغضب في أنفسهن .

وقد حدث لسوء الحظ أن كلامهن البغيض أثّر في برغاموت تأثيراً كبيراً ، وكانت لا تحب ريون دور كما قلنا ، فلم تكفّ طيلة الطريق الى «تروي فيديل» عن القدح بحق الفتاة . وكانت موسكاد وسافير تتظاهران بأنهما لا تسمعان شيئاً وتحرصان على عدم إثارتها .

وما إن ابتعدت الفتيات عن محل الفاكهة حتى انفجرت العجائز الأربع يتكلّمن بحقهن ، فقالت بينيات :

– لقد أضعنا رؤوسنا في البحث عن الخير عند فتيات مثل هؤلاء .

فقالت السيدة كورج :

– إن هذا الكعك من ذلك العجين، وقد أخطأنا في التحدّث إليهنّ .

وقلن جميعهن بصوت واحد :

– هذا جزاء المعروف والطيبة !

فقالت كورج المرابية :

– إن تلك النورية الصغيرة ، على ما هي عليه من الجمال ، سوف تدرّ الثروة على تلك الساحرة لابواس !

فغمغمن جميعهنّ قائلات: إن تلك الثروة ليست لنا مع الأسف.

وقد افترقن بعد ذلك لأن مثل شارع ترباندري لا يكون آمناً في الليل ، وكنّ يعرفن ذلك جيداً ، ولكنهنّ نسينه في فورة أحاديثهنّ « الممتعة » . أما الآن فقد عادت إليهن الذاكرة

واستولى الخوف عليهنّ فانسحبن الى الشارع وانطلقن راكضات في ظلال الجدران .

سجينة

*

صرفت لابواس ترومبافيور بشيء من الحدّة لتطمئنّ ريون دور ، فخرج الرجل غاضباً لأنه كان مفلساً وكان يريد أن يستلف من العجوز بعض المال فلم تدع له الوقت للكلام في هذا الشأن. وقد التقى صديقه سبارتيموسكا في الطريق فاستقبله بوجه عبوس وسأله قائلاً :

– ألديك شيء من المال ؟

– أنا ؟ إنني لا أملك درهماً واحداً .

فغمغم ترومبافيور قائلاً بيأس : يا للشيطان ! أكاد أموت عطشاً .

فقال سبارتيموسكا باللهجة نفسها: إن نيران الجحيم تتأجّج في حلقي ولا أتورّع عن قتل رجل في سبيل كأس من الخمر .

ففكّر ترومبافيور لحظةً ثم قال : هيّا بنا نبحث عن برغاموت وسافير وموسكاد لعلّنا نجد معهنّ ثمن عشائنا على الأقل.

وسارا يقصدان حانة غراندوق حيث دخلا الى القاعة العامة يبحثان عن الفتيات الثلاث، فاقتربت منهما صاحبة الحانة وقالت:

– ماذا يريد السيدان ؟ أتعلمان أن الدفع مقدّم هنا ؟

فأجاب رومبافيور قائلاً : إننا نبحث عن برغاموت وموسكاد وسافير ...

فقاطعته صاحبة الحانة قائلة : لسنا هنا .

وكأنها علمت الغاية من ذلك البحث فأردفت تقول بلهجة آمرة : سوف تعودان عندما يحضرن .

وأشارت بيدها الى الباب . ومن الغريب حقاً أن المتشرّدين خرجا دون أن ينبسا بكلمة . وعندما بلغا الشارع أطلقا العنان لغضبهما فكانت لعناتهما تنصبّ على صاحبة الحانة هادرة صاخبة .

وقصدا حانة « تروي فيديل » ولم يكن حظّهما هناك أحسن منه في حانة غراندوق لأن الفتيات الثلاث كنّ قد غادرن المكان . ولكنهما لم يفشلا فشلاً تاماً إذ أن صاحبة الحانة ليوثارد بانكال دعتهما الى بعض الشراب وجلست تشاركهما إياه بطريقة أخوية .

وعند الفجر دخلت سافير وبرغاموت وموسكاد الى منزل لابواس وكانت العجوز لا تزال في فراشها ، وقد قلنا إن سريرها كان يسدّ مدخل السلّم الوحيد المؤدي الى الطابق الأول . فلم تنهض العجوز بل مدّت يداً معروقة وهي تنظر الى الفتيات الثلاث نظرة ذات معنى ، وكنّ يعرفن جيداً معنى هذه الحركة وهذه النظرة ، فتقدّمت برغاموت ووضعت في تلك اليد بعض القطع الفضية ، فبشّت العجوز في وجهها وابتسمت لها ابتسامة لطيفة ثم تقدّمت سافير وكوفئت بدورها بابتسامة لطيفة .

أما موسكاد فإنها تقدّمت وهي مرتبكة ارتباكاً ظاهراً وكانت العجوز ترمقها ببصرها التائه الرجراج وهي تقول بصوت قاسٍ : إنك لم تسددي حسابك .

فاعتذرت موسكاد قائلة وفي لهجتها أثر الخوف . إنني لم أحصل على شيء من المال .

— لقد قلت لي البارحة القول نفسه . إنك تعرفين ما ينتظرك ، أليس كذلك ؟

فضمّت موسكاد يديها في حركة توسّل ، ففكّرت العجوز لحظةً وهي ترمقها بقسوة ثم انفجرت قائلة : لعلّك تسرقينني لتعدّي جهاز عرسك !

— لا يا لابواس ، لا تظنّي ذلك .

— إياك أن تلعبي معي هذه اللعبة لأنها تكلّفك غالياً ... غالياً جداً .

وكان هذا التهديد ، على ما يبدو من غموضه ، مخيفاً جداً بالنسبة الى الفتاة المسكينة ، فبدأت ترتعش وقد شحب وجهها حتى حاكى وجوه الموتى .

وتابعت العجوز قولها :

— ها أنا قد أنذرتك فلا تنسي ذلك. والآن أصغي إلي جيداً واعلمي أنني ما كنت سلّفتك مرة أخرى لو لم أكن في حاجة إليك. فإذا كنت لا تريدين أن أغضب فاخدميني جيداً في المهمة التي سوف أكلفكنّ بها أنتنّ الثلاث وبصورة خاصة أنتِ ، لأنك لطيفة جداً وراجحة العقل .

وقد أشارت إليهنّ فاقتربن منها وانحنين حتى كادت رؤوسهن تلامس رأسها فهمست قائلة :

– سوف تجدن باجيلاني رفيقة لكنّ فوق... وهذه الرفيقة الجديدة تبدو لسوء الحظ على قدر كبير من السذاجة ... إنكن تفهمنني ، أليس كذلك ؟ وأنا أعتمد عليكنّ في تحويل تلك الفتاة البريئة الساذجة الى فتاة ظريفة لطيفة مثلكنّ تماماً .

فقالت برغاموت بلهجة ساخرة : أنا أعتقد أنها لا تحتاج الى درس وأنها تعلم أكثر مما نعلم بكثير .

– أتعتقدين ذلك أنتِ ؟ إنك مخطئة تماماً وأنا أخبر منك بهذه الأمور ، فيجب إذن إعداد الفتاة للمهنة الجديدة ...

فوعدت برغاموت قائلة : حسناً ، سوف نعدّها للعمل ... فكوني مطمئنة .

أما سافير وموسكاد فانهما اكتفتا بإحناء رأسيهما دلالة على الموافقة ، فاطمأنّت لابواس وسمحت لهن بالمرور .

وأفاقت ريون دور في الصباح الباكر فرأتهن ينمن نوماً عميقاً ، فنهضت من سريرها دون ضجة ، ولبثت تنتظر أن يستيقظن وهي تعجب لنومهنّ الى ذلك الوقت المتأخر بينما تصحو هي دائماً قبل طلوع الشمس ، ولكنها ظنّت أن هذه هي العادة في باريس .

وقد حاولت لابواس في ذلك اليوم أن تفصل بولو عنها ، ولكن الكلب الأمين أطلق زمجرة مخيفة جعلتها تنكص عن محاولتها . ولبث بولو سيد الموقف ، وقد سُرّت ريون دور

بذلك وخاصة عندما رأت موسكاد وسافير قد بدأتا فوراً بملاطفته ومداعبته والتحبّب إليه وإطعامه .

وكان في حركات ريون دور وكلامها ما يوحي بالاحترام وبفرض الطاعة . وكانت الفتاة لا تشعر بذلك ، ولكن لابواس شعرت به فكانت تتهيّب مخاطبتها باللهجة التي تخاطب بها برغاموت وسافير وموسكاد . وكان الفتيات الثلاث قد أحسسن هنّ أيضاً بتفوّق ريون دور الطبيعي عليهنّ فخضعت موسكاد وسافير الطيبتان وسلّمتا بذلك التفوّق ، ولكن برغاموت لم تفعل فعلهما وقد بدأت تشاغب قائلة بصوت ساخر قاسٍ :

– يا لله! أنظرا إليها وقولا لي، ألا يظنّ من يراها أو يسمعها تتكلم أنها أميرة ؟

فأجابت ريون دور قائلة وهي تبتسم. وما أدراك إن لم أكن أميرة فعلاً ؟

ثم أضافت تقول ممازحة : وسوف ترين يوماً ما سيدة كبيرة تأتي للبحث عني لتأخذني الى قصرها .

وقد أضحك كلامها الفتيات الثلاث، ولكنهنّ لبثن رغم ذلك يلقّبنها دائماً بالأميرة .

ومضت بضعة أيام ظلّت ريون دور خلالها سجينة في منزل لابواس كأنها في أحد تلك السجون التي هدّدتها بها العجوز .

وفي مساء اليوم الأول رأت برغاموت وموسكاد وسافير يتزيّن زينة كبيرة قبل الخروج ، فكانت تنظر إليهنّ بسذاجة وهي تعجب للعناية الدقيقة التي يمارسن بها تلك العملية . وكانت

الأصباغ والمساحيق المختلفة التي يطلين بها وجوههن تثير اهتمامها بصورة خاصة ، فقالت لهنّ :

– لماذ كل هذه الزينة ؟

ولما زاد عجبها في سكوتهنّ وارتباكهنّ بادرت موسكاد ، وهي ألطفهنّ وأرجحهنّ عقلاً ، الى الجواب فقالت بلهجة طبيعية :

– يجب أن نتجمّل للخروج ، فأي عجب في ذلك ؟

فقالت ريون دور بكل ما في نفسها الطاهرة من الصدق والإخلاص !

– ولكنكن أجمل كثيراً دون هذه الأصباغ التي لم تتمكن من تبشيعكن ! وما السبب الموجب للتجميل كما تقولين ياموسكاد؟

– إننا نتجمّل لنشتغل .

– ماذا تفعلن ؟

وكان السؤال محرجاً جداً فارتبكت موسكاد والتفتت الى سافير بنظرة تدعوها فيها الى نجدتها فأسرعت هذه تجيب على السؤال قائلة بشجاعة :

– إننا نشتغل في الخارج .

– أعلم ذلك ... ولكن أين ؟

– أحياناً في الشارع ... وآناً في الحانات !

– بماذا ؟

– بما ... بما ... سوف تفعلينه أنت !

– يا لله من هذه المناورات ! أنا كنت أصنع سلال القش أو أعرض بولو وفرنغو على أنظار الجماهير . فلماذا لا تقولين لي بمثل

صراحتي عن نوع العمل الذي تمارسنه ؟ ألا تريدين أن تقولي ؟

– يجب أن نؤمن معيشتنا وندفع للسيدة لابواس مالاً لأنها لا تطعمنا وتلبسنا وتسكننا إكراماً لعيوننا الجميلة على حدّ قولها ...

وكانت ريون دور من الذكاء بحيث فهمت أنهنّ يخفين عنها شيئاً . ولكن ما هو ؟ ومن المعلوم أن فتاة بريئة طاهرة مثلها لا يمكن أن تشتبه في الحقيقة الرهيبة ، فكفّت عن الإلحاح وهي على يقين من أنهن سوف يتكلمن يوماً ما .

وكان جفاء برغاموت يتزايد يوماً بعد يوم الى أن انفجر حقدها أخيراً وأصبحت تلوم نفسها علناً على ضعفها تجاه فضيلة تلك الفتاة الطاهرة . وقد بلغت الأمور حداً رأت معه موسكاد وسافير أن تتدخلا فوراً قبل وقوع ما لا تحمد عقباه فقالتا لها بصوت خفيض :

– لم نكن نعرفك شريرة الى هذا الحد .

فسمعت ريون دور قولها وكانت هي التي أجابت قائلة :

– إنها ليست شريرة بل عصبية لأنها تعسة جداً ولكنها طيبة في قرارة نفسها .

فلبثت برغاموت هنيهة وكأنها فقدت صوتها وفجأةً زمجرت قائلة :

– إنك مخطئة فأنا لست طيبة جداً ، إنني شريرة وشريرة جداً ... وأنت أيتها الأميرة أقلعي عن إظهار شفقتك عليّ ، أتسمعين ؟ لست بحاجة الى شفقة أي إنسان !

وبعد يومين سقطت برغاموت عن الدرج فجرح وجهها جرحاً بليغاً ولكنه ليس خطراً ، ومع ذلك فقد كانت تبكي وتصرخ وتندب حظها بيأس خوفاً من أن يترك التئام الجرح أثراً يشوّه جمال وجهها النضر ، وكانت تقول ذلك ودموعها تنهلّ كالمطر .

فلم تقل ربون دور شيئاً بل أخذت تفتش في أمتعتها حيث أخرجت مرهماً غريب اللون فوضعت قليلاً منه على قطعة قماش نظيفة ناعمة واقتربت من المومس الجريح وهي تبتسم قائلة :

— دعيني أعالجك ، وخلال بضعة أيام لن يبقى أي أثر لهذا الجرح !

وقد وضعت الضمّادة على جرحها بمهارة وخفة مدهشتين . ولبثت ثلاثة أو أربعة أيام تعالج برغاموت بدقة وعناية فائقتين ، وكانت هذه تستسلم ليديها اللبقتين ، ولكنها ظلّت على جفائها وعبوسها . وعندما رفعت الضمّادة الأخيرة لم يكن في استطاعة أحد مهما بلغ من حدة البصر أن يلاحظ أثراً للجرح أو يعرف مكانه من وجه برغاموت .

ومع ذلك فلم تُبدِ برغاموت شكرها لربون دور أو تلطّف من تصرّفها تجاهها. وبعد بضعة أيام أحضرت لابواس للفتاة ثوباً مماثلاً لأثواب الفتيات الثلاث واقتربت تضعه أمامها وهي تبتسم ابتسامة ذات معنى ، فقالت ربون دور .

— لن ألبسه .

— بل تلبسينه رغم أنفك ، وإذا كنتِ تظنّين أنني سوف أحتفظ بك هنا وأقدّم لك الطعام والمسكن دون أن تفعلي شيئاً

فأنت مخطئة. وقد روضتُ فتيات أشدّ منك بنية وعناداً، فإما أن ترضخي لما أريد أو أحطّمك تحطيماً .

واقتربت من الفتاة حتى كادت تلامسها وكان الغضب قد عصف بها فرفعت يدها وحاولت أن تنقض بها على وجهها ، وإذا ببرغاموت قد وقفت فجأة بين الاثنتين قبل أن تهوي الصفعة على خد الفتاة وقالت بغضب شديد :

— لقد طفح الكيل يا لابواس فدعي هذه الطفلة وشأنها وإياك أن تلمسيها .

فدهشت لابواس وتراجعت خطوتين الى الوراء وهي تقول لبرغاموت :

— وإذا راق لي أن ألمسها فماذا تفعلين ؟

— لا أعلم، ولكنني أنصحك بأن لا تلمسيها... وهي نصيحة لصالحك .

— أتجرئين على تهديدي ؟ إحذري لنفسك يا جيلي .

— أنا لا أهددك بل أحذرك وهذا كل شيء . إنك تستطيعين أن تفعلي بي ما تشائين وذلك لا يهمّني . ولكن هذه الطفلة .... هيّا يا لابواس إذهبي من هنا.. صدقيني واذهبي فوراً.. قبل أن..

وكان الغضب قد أعماها فاشتعلت عيناها ببريق رهيب وأخذت الكلمات تخرج من فمها كحمم البركان ، وقد فهمت لابواس أن حياتها معلّقة في تلك اللحظة بخيط من القطن ، ومن جهة ثانية كانت برغاموت قد بدأت تسير نحوها وهي تتكلم وكان وجهها محتقناً مخيفاً الى حد أن العجوز تراجعت وهي تقول : يا يسوع !

أظنني مائتة لا محالة ! ثم تدحرجت على الدرج وهي لا تصدّق بالنجاة .

ولما اختفى وجه العجوز الكالح التفتت برغاموت الى ريون دور وقالت لها بصوت لم تعرفه رفيقاتها فيها أبداً :

ـ لا تخشي شيئاً ، فطالما أنا هنا أقسم لك أنه لن ينالك أي أذى .

فاقتربت ريون دور منها وقبّلتها في خديها رغم ممانعتها وقالت لها بابتسامتها اللطيفة :

ـ لقد قلت لك إنك لست شريرة ... وها أنت ترين أني لم أخطىء !

النبوءة

*

ومنذ ذلك اليوم أصبحت برغاموت شديدة التعلّق بريون دور فكانت تبدي نحوها من اللطف والإخلاص والمحبة ما فاق كثيرا جفاءها وبغضها السابقين .

وانصرمت أيام أخرى ، وطُلب من ريون دور في إحدى الأمسيات أن تخرج برفقة الفتيات الثلاث ، وكانت على وشك أن ترفض الطلب عندما أشارت لها برغاموت إشارة خفية فهمت منها أنه يجب عليها القبول ، فنزلت الى الشارع بصحبة رفيقاتها.

ومن المرجّح أن هدف برغاموت من تلك الإشارة كان

ينحصر في أن تغتنم الفرصة في إحدى تلك الأمسيات لتنقذ الصبية من براثن العجوز الرهيبة .

فاعتادت الفتاة على الخروج بصحبة رفيقاتها الطيبات ولم تكن المسكينة الصغيرة ترتكب إثماً ، ومع ذلك فقد كان من الممكن لومها على ظهورها في الشارع مع هؤلاء الفتيات السيئات السمعة ، ولكنها كانت معذورة حقاً لأنها لبثت تجهل تماماً مهنة رفيقاتها المنكودات الطالع وكان عملها ينحصر في السير معهن ذهاباً وإياباً في شارع ترياندري. ومضت بضعة أيام وهي مواظبة على الخروج برفقتهنّ فلم تسنح الفرصة لبرغاموت لتنفيذ خطتها طيلة تلك الأيام .

وفي مساء ذات يوم ، وكان ذلك قبل معركة ساحة غريف بأسبوع ، قرّرت لابواس اللعينة أن تنتهي من أمر الفتاة . فدعت ترومبافيور وأعطته تعليماتها سراً وكانت ريون دور قد خرجت الى الشارع مع رفيقاتها الثلاث ، فسار ترومبافيور وسبارتيموسكا وراءهنّ وسارت العجوز وراء الجميع لتراقب ما سوف يحدث . ولا لزوم للقول بأن بائعة الثمار والمرابية وبائعة اللبن والحائكة كنّ في مركز المراقبة المعتاد وكنّ يتابعن ما يجري باهتمام قد يفوق اهتمام لابواس نفسها .

وفجأةً وجدت ريون دور ورفيقاتها أنفسهن أمام جمهور من الأشقياء السكارى وقد أحاط هؤلاء ببرغاموت رغم احتجاجها وهم يعربدون ويمزحون ، ثم قبض بعضهم عليها فحملها واختفى بها بأسرع من ارتداد الطرف ، وتبعه باقي الجمهور . فوجدت

ريون دور نفسها مع موسكاد وسافير وقد ذهبت رفيقتها الوحيدة التي تستطيع الدفاع عنها .

فحاولن أن يتابعن طريقهن ، وعندئذ ظهر ترومبافيور وأمرهن بالسير الى حانة « تروي فيديل » ولم تكن رفيقتا ريون دور تستطيعان مجابهة ذلك المتشرد الشجاع فأطاعت الأمر وأخذتا معها الفتاة .

ووصلن الى باب الحانة وكان الليل قد أرخى سدوله فأشار ترمبافيور الى موسكاد وسافير إشارة خاصة مهددة ، فخافت الفتاتان وأسرعتا تحاولان إدخال رفيقتها الى الحانة . وقد رفضت ريون دور الدخول بدافع غريزي وهي لا تدري لماذا ، فأثار رفضها المتشرد الشرير فانقض عليها وحملها بين ذراعيه وهو يزمجر قائلاً :

– وحق قرون الشيطان سوف أدخلك رغماً عنك ما دمت ترفضين الدخول بمطلق إرادتك .

فتخبّطت ريون دور في قبضته وحاولت أن تتملّص ولكنها أدركت فوراً عدم الجدوى من المقاومة فكفّت عنها وصاحت بكل قواها :

– إليّ ! إليّ !

وقد فُتح باب الحانة في تلك اللحظة وظهر على عتبته شاب نبيل الطلعة ، ولنقل فوراً إنه الفارس هوبير دي راكستان ... وكان وراءه العملاق ميلورد جندارم الذي كان يتخطاه برأسه كله ، وقف الى جانب رفيقه ماراسكين .

واتفق أن ظهور راكستان حدث في اللحظة نفسها التي كانت فيها ريون دور تطلق استغاثتها اليائسة ، فوثب الفارس وثبة هائلة تخطّى بها درجات المدخل كلها ، ونزل وراءه ميلورد جندارم . أما ماراسكين فانه لبث مكانه على عتبة الباب المفتوح وكان النور يتسرب الآن من داخل الحانة الى الخارج فينير الفسحة التي أمام المدخل ، وكان راكستان قد بلغ بوثبته مكان المتشرّد فرأت ريون دور ذلك الوجه الذي يطفح جرأة ونبلاً وصاحت تقول بصوت يهزّه الأمل :

– أيّاً كنتَ يا سيدي ، ساعدني وأنقذني من هذا اللعين .

وشاءت الصدفة أن يكون رأس ريون دور في الظلمة فلم يرَ الفارس وجه الفتاة التي تستنجد به مباشرة ولكنه أحسّ برعشة عنيفة تهزّه من قمة رأسه الى أخمص قدميه وقد أخذ قلبه ينتفض حتى كاد يخرج من صدره فكان يحاول أن يرى تلك التي أثر صوتها فيه هذا التأثير الغريب ولكنه مع ذلك لم يتأخر عن نجدتها قبل أن تتاح له رؤيتها فقال بصوته الجهوري الساخر مخاطباً ترومبافيور :

– ألم تسمع ؟ أترك هذه الفتاة وشأنها !

فزأر ترومبافيور قائلاً :

– يا للشيطان ! بماذا يتدخل هذا المخلوق ؟

– إنني أتدخّل في ما يروق لي ، فاترك هذه المرأة أيها السافل الحقير !

وقد قال راكستان ذلك ببرودة وصوت خفيض ، ولكنه

قبض في الوقت نفسه على ذراع ترومبـافيور فأحسّ المتشرّد بالأصابع الفولاذية تكاد تحطم ذراعه وفهم فوراً أنه أمام خصم لا يُستهان به ، فترك ريون دور ليحرّر يديه ، وعندئذ رأى راكستان وجهها فشعر مجدداً بالتأثير العنيف نفسه الذي ولـّده فيه صوتها ولكنه لم يحوّل مع ذلك انتباهه عن المتشرّد وكان هذا قد جرّد خنجراً هائلاً عريض النصلة وانقضّ عليه وهو يهدر قائلاً :

– سوف أقتلك !

فلم يتنازل راكستان الى تجريد أي سلاح بل لبث ينظر الى المتشرد وهو يبتسم ابتسامة رهيبة . ولما أوشكت نصلة الخنجر أن تخترق صدره وصرخ ميلورد جندارم وراءه صرخة يائسة ، صاح هو يقول بصوت ساخر :

– خذ هذه على الحساب !

وفي اللحظة نفسها وبسرعة البرق كانت قبضته الفولاذية تهوي كأنها الصاعقة على خدّ المتشرّد المجرم الذي طاش صوابه من شدة الألم وسقط الخنجر من يده وقد عاجله راكستان بضربة على خده الآخر ثم قبض عليه من وسطه ورفعه كأنه الريشة وقذفه على مسافة بضعة أمتار حيث سقط على الحضيض مغمياً عليه .

ولما انتهى الفارس من مهمته استدار بسرعة صوب تلك التي أظهر في سبيلها تلك الشجاعة النادرة فاعترته دهشة شديدة لأنه لم يجدها لا هي ولا رفيقتها كأنها تبخـّرتا بسحر ساحر .

وعندما بدأ البحث عن ريون دور كان الوقت قد فات . وبيان ذلك أن لابواس اللعينة التي كانت تتبع المتشرّد والفتيات عن بعد، اغتنمت فرصة انهماك راكستان بتأديب خصمه فأخذت الفتاة بمساعدة موسكاد وسافير اللتين كانتا ترتجفان من الخوف . وسار النساء الثلاث بها في اتجاه منزل العجوز . وعندما انطلق راكستان يطاردهنّ كنّ قد دخلن المنزل وأقفل الباب عليهنّ ، وقد مرّ الفارس أمام ذلك الباب دون أن يشتبه في أن التي يبحث عنها كانت وراءه .

ففتش شارع تريباندري كله ، وكان ميلورد جندارم وماراسكين يتبعانه على بضع خطوات ، ووصل الى شارع سان دينيس حيث وقف وأخذ يلوم نفسه قائلاً:

– لقد أضعت صوابي دون شك ! ماذا ؟ أأطوف الشوارع لا لشيء إلا لأنني ظننت أن صوت تلك الفتاة غير مجهول لدي ، وأريد مها كلف الأمر أن أراها وأجعلها تتكلم ؟ !

ولكنه مع ذلك تابع سيره وهو منشغل البال . وكان يقف بين وقت وآخر وهو تائه البصر كمن يفتش في ذاكرته ويتساءل قائلاً :

– هذا الصوت ! ... أين سمعته يا ترى ؟ ... إنني على يقين تام من أنني سمعته فيما مضى ... ولكن أين ؟ ومتى ؟

وفجأة ، وكأن حجاباً كثيفاً قد انزاح عن مخيلته ، صاح قائلاً وهو يرتجف :

– رولاند ! ... إنه صوت رولاند !

وقد لبث وقتاً طويلاً مسمّراً في مكانه وهو غارق في تفكيره المؤلم الى أن قال أخيراً وهو يكاد يبكي :

– ولكن رولاند ماتت ! .. ماتت منذ اثنتي عشرة سنة .. فلأقلع عن التفكير فيها !

غير أنه لبث مع ذلك دائم التفكير فيها . وبعد ساعتين من التفكير المضني ضرب جبهته بيده وهو يقول :

– لقد ماتت رولاند ... وقد سبق لي أن قلت هذا ! ... ولكنها كانت حية عندما خرجتُ بها من الماء ومدّدتها على ضفة الواز ... وبعد ذلك ... لم يعثر عليها أحد !

وبعد أن قال ذلك لاحظ فجأة بعض الأمور فتابع يقول :

– لم أرَ جيداً تلك الفتاة التي أنقذتها ، ولكن يلوح لي أنها في السن نفسها التي كان المفروض أن تبلغها رولاند فيما إذا بقيت في قيد الحياة ... أما شعرها فإنه يشبه تماماً شعر رولاند الذهبي ... وعيناها اللتان تحاكي زرقتها زرقة السماء في يوم صحو جميل ! ... وإذا كانت رولاند نفسها ...

وانتفض كأنما لسعته أفعى وأخذ قلبه يدق بعنف لأنه بعد أن قال : « وإذا كانت رولاند ؟ ... شرع يقول « إنها هي نفسها ! » وعندما عاد الى منزله محطماً حزيناً كان قد أقسم على أن التي أنقذها هي رولاند نفسها ، وبدأ غرامه الطاهر بتلك التي كان يدعوها « صديقته الصغيرة » يستيقظ من سباته أشد عنفاً مما كان عليه في ذلك اليوم البعيد عندما أعطته رولاند الطفلة وردة برية وهي تقول له : « سوف تكون فارسي وأكون أنا

سيدتك . »

وعاد في اليوم التالي يجوب شارع تريالدري فلم يرَ ريون دور لأنها لم تخرج في ذلك اليوم ، وكان الخجل المعهود في العشاق الصادقين يقعده عن الاستعلام عنها . وقد لبث طيلة ثلاثة أيام متوالية يقوم بالعمل نفسه دون جدوى ، فقرّر في نهاية اليوم الثالث أن يستعلم عنها مهما كلف الأمر ، فطرح خجله جانباً واستجمع شجاعته بكلتا يديه ودخل الى محل الأم بينيات ليشتري بعض الفاكهة في الظاهر ويستعلم عن ريون دور في الحقيقة . وقد فرحت بائعة الثمار بالصدفة السعيدة فقالت له قبل أن يتم سؤاله :

– إن حسن طالعك هو الذي قادك إليّ يا سيدي النبيل لأنني أعرف ريون دور أكثر من أي شخص في باريس ، فإن محلّي ملاصق لمنزل لابواس حيث كانت تسكن .

فقال راكستان بحزن :

– أتقولين إنها تدعى ريون دور ؟

– إنها كانت تدعو نفسها هكذا وأنت ترى جيداً أن اسم ريون دور ليس اسماً مسيحياً ومن المرجّح أنها لا اسم لها فهي غجرية !

وكان راكستان يسمع قول العجوز باهتمام كليّ وهو يقول في نفسه :

« إنها رولاند دون شكّ ! إن رولاند لم تمت والمفروض أن النوَر خطفوها وذهبوا بها الى بلاد بعيدة ... وأنا أتذكر جيداً أنني سمعتهم يقولون ، عندما اختفت رولاند ، إنهم

رأوا عائلة من النورَ الرحّل ترود في جوار بونتواز وهي تعيش في عربة . ولا شك في أن هؤلاء الرحّل قد خطفوا رولاندا!..»

وأفاق من تفكيره على صوت العجوز وهي تقول :

– أما بصدد القضية التي تهمك يا سيدي فيؤسفني أن أقول لك إن الحظّ قد خانك ، واعلم أن سيدة كبيرة قد جاءت أمس الى منزل لابواس وأخذت ريون دور معها . وقد قيل لي إن الفتاة قد تنبأت بذلك وكانت تقول إنها أميرة وإنه سوف تأتي في يوم من الأيام سيدة كبيرة لتأخذها الى قصرها. وأنا أعتقد أنه يوجد سحر في هذه القضية .

فأضاعت الضربة صواب راكستان وأراد أن يعلم اسم السيدة الكبيرة والمكان الذي أخذت إليه تلك التي كانوا يسمّونها ريون دور ، ولكن العجوز لم تستطع أن تجيب على هذين السؤالين ، فذهب الفارس يائساً حزيناً لا يلوي على شيء .

وكانت الأم بينيات صادقة في كلامها إذ أن سيدة كبيرة كانت قد أتت نهار أمس الى منزل لابواس وأخذت معها ريون دور ، وإليك بيان ذلك :

بينما كان ترومبافيور وسبارتيموسكا في حالة سيئة جداً من جرّاء الضربات التي كالها راكستان للأول ، والضربة التي أصابت الثاني من قبضة ميلورد جندارم عندما كان يصلح من وضع معطفه ، رأت لابواس أن تحتاط للأمر فمنعت ريون دور من الخروج خشية أن تغتنم برغاموت فرصة غياب الرجلين فتساعد الفتاة على الفرار .

وفي اليوم التالي أعلن ترومبافيور ورفيقه أن حالتهما قد تحسنت وأنهما يستطيعان أن يتابعا المراقبة ، فخرجت الفتيات الأربع وسرن الى شارع كونت دارتوا المتفرّع من شارع مونتورغويل وشاءت الصدفة أن تمر في ذلك الوقت من زاوية الشارعين عربة فخمة يخفرها ستة من الخدم ، وكانت تلك العربة خالية من الشعارات ولم يكن في ملابس الخدم ما يدلّ على السيد الذي يخدمونه ولكن تلك الملابس كانت ثمينة جداً بحيث يتبيّن أن سيدهم من أهل الغنى .

وقد وقفت الفتيات الأربع يظهرن إعجابهنّ بالمشهد الجميل ، وهنا شاءت الصدفة أيضاً أن تقف العربة على بضع خطوات منهنّ ، فالتفتت ريون دور الى رفيقاتها وقالت بلهجة بين الهزل والجد :

– من الممكن أنها السيدة الكبيرة المفروض أن تأتي لتأخذني معها .

ولم تكن الفتاة تدري أنها نطقت صواباً ، فقد كان في العربة فعلاً سيدة كبيرة ، كبيرة جداً لأنها لم تكن سوى كاترين دي كليف دوقة دي كيز ، وكانت قد رأت ريون دور فبهرها جمالها ولطفها وأنفتها الطبيعية فأعطت أمراً بإيقاف العربة وأخذت تتفحص الفتاة من وراء ستار مقعدها بعد أن رفعت زاويته قليلاً ، بنظرات رصينة عميقة تتنافى مع خفتها المعهودة التي أشرنا إليها في غير هذا المكان . وفجأة وضعت نقابها على وجهها ونزلت من العربة وتوجّهت رأساً الى الفتيات الأربع .

فشعرت ريون دور بقلبها يثب في صدرها والتفتت الى

رفيقاتها الثلاث المشدوهات إعجاباً وقالت بابتسامة لطيفة :

– ماذا قلت لكنّ : إنها آتية لتأخذني !

واقتربت الدوقة منهنّ وأشارت إشارة آمرة ومتناهية اللطف في آن واحد ، ففهمت برغاموت وموسكاد وسافير فوراً معنى تلك الإشارة وانتحين جانباً ، فانتظرت الدوقة الى أن ابتعدن ثم خاطبت ريون دور قائلة بلطف جذاب :

– ما اسمك يا ابنتي ؟

– ريون دور يا مولاتي .

فابتسمت الدوقة وقالت : إنه اسم جميل ويليق بك جداً . ولكنه ليس الاسم الذي أريد أن أعرفه .

– أنا لا أعرف لي اسماً سواه يا مولاتي !

– ولكن أباك وأمك كانا يحملان اسماً على ما أظنّ ، أليس كذلك ؟

وكانت الدوقة تعلّق أهمية كبرى على هذا السؤال إذ أنها كانت تنتظر الجواب بلهفة شديدة .

– ليس لي أب ولا أم يا مولاتي .

فلاحظت ابتسامة رضىً على شفتي الدوقة وبدأت تستجوب الفتاة استجواباً دقيقاً عرفت بعده كل شيء عنها من حين استفاقت في عربة ماتالينا العجوز لغاية التقائها بها في هذا الشارع . ولا بد من القول بأن تصرّفات الفتاة والمعلومات التي أعطتها عن نفسها قد جاءت طبق مرام الدوقة ، فقالت :

– لقد أعجبت بك منذ أول نظرة . أما الآن وقد عرفتك

فقد ازداد إعجابي أيضاً . فهل تقبلين أن تأتي معي ؟

فضمّت ريون دور يديها بطريقة تثير الرثاء وقد اختنق صوتها فلم تستطع جواباً ، فظهر السرور جلياً على وجه الدوقة وقالت :

– انتبهي جيداً فإنني أعرض عليك الثروة والجاه . أنت لا تعرفين عائلتك ولكنني أرى بوضوح أنك فتاة كريمة المحتد ومن الممكن أن تكون كبرياؤك الطبيعية تأبى عليك الانخراط في خدمتي . فإذا كان ذلك فاعلمي أنني من هؤلاء السيدات الكبيرات اللواتي تتشرّف بنات أعظم الأسر بالانخراط في خدمتهنّ . وبما أنك تعجبينني أكثر فأكثر كلما تأمّلت فيك ، فإنك لن تكوني من وصيفاتي بل ستكونين رفيقتي وصديقتي وصفيّتي .

فقالت ريون دور :

– ثقي يا مولاتي بأنني أتبعك حتى ولو كنت تريدين أن تجعلي مني مجرد خادمة بسيطة ، ولكن لدي بولو وفرنغو اللذان لا أتخلّى عنهما في سبيل مال الدنيا فاعذريني يا مولاتي فانك كريمة الى حد أنني ...

فقاطعتها الدوقة قائلة :

– بولو وفرنغو ! هما الكلب والحمار اللذان كلّمتني عنهما ؟

– نعم يا مولاتي، إنهما الصديقان الوحيدان لي !

– وإذا رفضت أن أجيء بحمارك و كلبك الى عندي فهل ترفضين الثروة التي أعرضها عليك ؟

– نعم يا مولاتي ، وسوف أكون آسفة جداً ليس على

الثروة بل على عدم تشرّفي بخدمتك .

وكانت الدوقة تتفحّصها بدقة متناهية فرأت عينيها مبتلتين بالدمع ، ولكنها رأت أيضاً أنها لن تتراجع عن قرارها ، فقالت في نفسها :

« حقاً لقد وضعت يدي على جوهرة نادرة المثال . فاذا كانت هذه الفتاة تقدم على التضحية بنفسها في سبيل حيوانين ، فأي شيء لا تفعله في سبيلي عندما تحبّني ؟ ولكن المهمّ أن تحبّني ، وسوف أحملها على أن تحبني ! »

ثم قالت بصوت مرتفع وهي تضحك :

– لو لم نكن في الشارع لقبّلتك لأجل ما قلته . إن رفض الثروة في سبيل عدم التخلّي عن رفيقيّ شقاء ، ليسا إلا حيوانين، عمل جميل جداً فلا تخشي شيئاً وسوف يتبعك صديقاك وأقسم أنهما سيُعاملان معاملة جيدة ، فهل يوجد عائق آخر ؟

– نعم يا مولاتي ، إن لابواس لن تتركني هكذا .

فقالت الدوقة بحزم :

– أين هي تلك العجوز اللعينة التي تسيء معاملتك ؟ خذيني إليها لأنني أريد أن أنهي هذا الأمر .

ولم تكن لابواس بعيدة عن موقف المرأتين بل كانت تتابع ما يجري بدهشة تفوق دهشة الفتيات الثلاث المتنحيات جانباً .

ولكنها عندما رأت السيدة الكبيرة تتوجّه نحوها مع ريبون دور أسرعت لملاقاتها وقد انفرج فمها عن ابتسامة تكاد تبلغ أذنيها وانحنت انحناء عميقاً وهي تدعو السيدة لتشرّفها بزيارة

بيتها المتواضع القريب من ذلك المكان ، فتردّدت الدوقة لحظة ولكنها دخلت أخيراً مخزن العجوز حيث طرقت الموضوع رأساً فقالت بلهجة متعالية :

– لقد أعجبتني هذه الصغيرة وقررت أن ألحقها بخدمتي وقد قبلت وسآخذها .

فقالت لابواس وهي تنتحب :

– أيتها العذراء القديسة ! ولكن في ذلك خرابي يا مولاتي.

فقالت الدوقة باحتقار هائل :

– سأعوّض عليك .

وأخرجت كيساً مليئاً بالقطع الذهبية ألقت به على الأرض بغير اكتراث ، فانقضّت عليه العجوز وأخفته في صدرها وهي تقول بابتسامة عريضة :

– تستطيعين بهذا الثمن أن تأخذي مع الفتاة جميع ما في المخزن .

فقالت الدوقة من أطراف شفتيها :

– لقد ذكّرتني بأمر فانظري إذا كان لديك ثوب يلائم فتاة جميلة من عائلة محترمة .

والتفتت الى ريبون دور وقالت بابتسامة لطيفة : أنظري بنفسك يا حلوتي .

فانتقت ريبون دور بسرعة ثوباً أبيض بسيطاً أنيقاً يلائم تماماً الفتاة التي وصفتها الدوقة . وغابت لحظة ثم عادت وهي ترتديه. وكانت الدوقة تنتظر واقفة في وسط المخزن فتأمّلتها قليلاً

وقالت ممتدحة :

– إنه ممتاز ، وأرى أن ذوقك يضاهي جمالك . ولكنه ثوب للطريق من هنا الى قصري فقط وستجدين هناك كل ما يلزمك . فلنذهب .

وعندما بلغت الدوقة عتبة الباب استدارت نحو لابواس وقالت منذرة مهددة :

– إذا كانت حياتك تهمك فاحفظي لسانك ولا تحاولي ابداً أن تتظاهري بمعرفتنا لا أنا ولا هذه الفتاة .

وقد قالت ذلك بلهجة شعرت معها لابواس بالرعدة تسري في بدنها .

وكانت برغاموت وموسكاد وسافير ينتظرن أمام البيت ، فتوجهت ريون دور نحوهنّ وقبلتهنّ على التوالي وهي تهمس قائلة : لا تخشين شيئاً فسوف أعود لآخذكنّ .

وهكذا تحققت نبوءة ريون دور التي كانت تقول دائماً إن سيدة كبيرة لا بد أن تأتي يوماً وتأخذها الى قصرها .

وفي قصر دي كيز اختلت الدوقة بالفتاة ريون دور فوراً وأفهمتها ما تريد أن تجعل منها في ذلك القصر ، وقالت لها :

– سوف تُدعَين من الآن فصاعداً الآنسة دوربيريف . إن أرض دوربيريف هي ملكي الخاص وقد وهبتك أياها وبذلك ستكونين آمنة غوائل الدهر الى آخر أيام حياتك . ستجدين جميع ألقاب الملكية في غرفتك . إنك الآن قريبتي يا سيدة دوربيريف ، قريبة الدوق دي كيز ، أي أنك أصبحت تعادلين

أكبر السيدات . أما ما يتعلّق بقواعد السلوك والمصطلحات التي تفرض عليك مكانتك الجديدة أن تتقيّدي بها ، فأنا لا أخشى عليك من هذه الناحية . وفي جميع الأحوال ، إذا لم تكوني واثقة من نفسك في أي شيء فلا تخشي أن تستشيريني فأنا ابنة عمك وأكبر منك سناً .

وكانت ريون دور تعتقد أنها تحلم حلماً أسطورياً ، فاستوضحت قائلة :

– وماذا يجب أن أعمل يا مولاتي ؟

– لا شيء أبداً . ستعيشين هنا كما تعيش قريبة عند قريبة لها أكبر منها سناً .

– وكيف أظهر امتناني تجاه كرمك ومروءتك ؟

– بأن تحبيني كما أحبك .

فأخذت ريون دور يد الدوقة الجميلة الحريرية الملمس وقبلتها بخشوع وهي تقول : إذا أتى يوم يجب عليّ فيه أن أريق دمي قطرة قطرة في سبيلك يا مولاتي ، فسوف أموت عندئذٍ مسرورة قريرة العين .

وقد قالت ذلك بتأثر وانعطاف صادرَين عن قلب نبيل لا يعرف الرياء والمداهنة . فسرّت الدوقة بما سمعت وتنهّدت ارتياحاً وهي تقول في نفسها :

« أعتقد أنني وجدت في شخص هذه الفتاة من كنت أريدها . »

ولنعد الآن قليلاً الى الوراء فنقول إن الدوقة دي كيز لم تكن وحدها في العربة عندما جاءت ريون دور الى القصر ، بل كانت

هرموزا وشقيقتها جوسلين ترافقانها. ولم تعر الشقيقتان الفتاة التي جلست قبالتهما أي اهتمام في بادىء الأمر ، ولكنهما بعد قليل ركزتا انتباههما كله عليها دون أن تتظاهرا بذلك ، وكانتا بين وقت وآخر تتبادلان النظرات المتسائلة خفية .

والمفروض أن تكون ذات الرداء الأسود وذات الرداء الأبيض قد ظنتا ، كما ظنّ الفارس دي راكستان ، أنهما تريان في ملامح الفتاة الجميلة الدقيقة ما يشبه ملامح شخص عرفتاه جيداً.. فبدأتا تبحثان في ذاكرتهما ، وفجأة ، وفي الوقت نفسه تقريباً ، نطقت كل منهما في حديثها مع الأخرى بهذين الإسمين : الأمير دي مونكابيه ... رولاند دي مونكابيه !

نهاية معركة ساحة غريف

*

– أخي ! ... أخي !

يذكر القراء أن هاتين الصيحتين اللتين انفجرتا كأنهما صيحة واحدة ندّتا عن الأخوين : ريشار كونت دي بومبينيان راكستان ، وشقيقه هوبير الشيفالييه دي راكستان ، عندما اشتبك سيفاهما في ساحة غريف وعرف كل منهما الآخر بعد ذلك .

وقد تراجع كلاهما في الوقت نفسه بدافع غريزي ولبث الكونت هنيهة مذهولاً قلقاً من تأثير تلك المصادفة . وكانت

المعركة في ذلك الوقت قد بلغت ذروة العنف. فإن الطعنات الرهيبة كانت تتساقط من كلا الجانبين وكان راكستان قد اشتبك الآن مع موليستراك واثنين أو ثلاثة من أتباع الدوق دي كيز الذين كانوا يهاجمونه دون هوادة . ومن الإنصاف للكونت دي بومبينيان أن نقول إنه لم يعد يفكّر في تلك اللحظة إلا في إنقاذ أخيه من الموقف الرهيب الذي يتردّى فيه وهو يراه محاطاً بالرجال من كل جانب ، فانقض يدفع عنه موليستراك ورفاقه وارتمى عليه وهو يردّ عنه الضربات بسيفه ويصيح قائلاً :

– دعوه ، دعوه فإنه لي . لا يلمسنّه أحد أو يكون لي معه شأن وأي شأن .

وكان في الوقت نفسه يحتضن أخاه ويهمس في أذنه قائلاً :

– سلمني سيفك يا هوبير لكي أتمكن من إنقاذك من موقفك الحرج .

وكان يتحتّم على الشيفالييه هوبير دي راكستان ، أن يجابه مائة نبيل من أتباع دي كيز وقد أطبقوا عليه من كل جانب ، فضلاً عن الجمهور الذي كان يساندهم وهو يطلق صيحات الغضب والحقد والموت ، ورجال الشرطة والحرس الذين كانوا يهاجمونه بدورهم . كان ينبغي على راكستان أن ينتصر على كل هؤلاء لينجو مع رفاقه ... وقد شعر بخطورة الموقف وأحس بقرب النهاية الرهيبة .

وفجأة رأى الدوق دي كيز يتقدّم نحوه واضعاً يده على خصره. وكان المتشرّدون العشرون الذين ساعدوه في إنقاذ والدة

جبل الذئب وهربوا بعد ذلك قد عادوا إليه الآن وقد تبيّنوا فظاعة عملهم وكبر عليهم أن يتركوه وحده بعد الذي فعله في سبيل زعيمهم ، ورأى الشيفالييه ذلك أيضاً فالتمعت عيناه وطفت على شفتيه ابتسامة دهاء تدلّ على أن خطة ناجحة قد ومضت في ذهنه بسرعة البرق ، فألقى ببضع كلمات الى ماراسكين الذي كان يقف الى جانبه ثم احتضن أخاه بدوره وهو يقول له بصوت ساخر :

— أتطلب من رجل من آل راكستان أن يسلّم سيفه ؟! لا شك في أنك لا تعني ما تقول يا سيدي !

وفي الوقت نفسه جذب أخاه إليه بقوة هائلة ودفعه الى ذراعي ميلورد جندارم اللتين أطبقتا عليه كالقضاء والقدر ، فشعر الكونت بنفسه يرتفع في الفضاء كأنه الريشة ثم تتناقله الأيدي بسرعة وقوة الى خارج نطاق المعركة حيث وضعته جانب الجدار وراء رفيقَي أخيه .

وكان دي كيز يتقدّم دائماً وإذا برجال كأنهم الأبالسة يحيطون به من كل جانب على شكل حلقة فولاذية محكمة عزلته تماماً عن رجاله وجعلته في مواجهة راكستان الرهيب الذي كان ضمن تلك الحلقة بدوره ، والذي كان ينظر إليه ويبتسم . وكان الشجعان الذين فعلوا تلك الأفعال العجيبة هم المتشردون العشرون . ولا لزوم للقول بأنهم فعلوا ذلك بناء على أمر راكستان الذي نقله إليهم ماراسكين كما أشرنا .

وقد استدار هؤلاء الشجعان فوراً فأصبحت ظهورهم الى دي

كيز ووجوههم الى المهاجمين وقد أشهروا السيوف والخناجر ووقفوا متراصين تقدح عيونهم شرراً ، وكان تصرّفهم هذا يدل بجلاء على أنهم يمنعون أياً كان من الاقتراب من الدوق .

فلم يفهم دي كيز ما وقع له ، ولكنه رأى نفسه وجهاً لوجه أمام راكستان الذي كان يبتسم بدهاء من غير أن يكون في ابتسامته ما يدل على الشر . وقد رفع الفارس يده وصاح قائلاً :

— لا يتحركنّ أحد !

وعندئذٍ فقط عرف الدوق دي كيز أنه تحت رحمة هذا الشاب الذي كان ينظر إليه وقد أشرق وجهه بنور الشجاعة التي لا مثيل لها ، فطغى إعجاب الدوق به على كل شعور آخر وقال له ممتدحاً :

— إنك حقاً رجل شديد البأس يا سيدي !

فانحنى راكستان بذلك اللطف الفخور الذي لم يكن يجاريه فيه أحد وأجاب قائلاً :

— كلام ثمين سوف يبقى محفوراً في ذاكرتي ما حييت !

فزاد إعجاب الدوق به عندما رآه يخاطبه بتلك اللهجة التي يفتقر إليها الكثيرون من نبلاء البلاط وابتسم له ابتسامة لطيفة ، فتابع راكستان يقول بابتسامة ساذجة :

— إن هذا العطف الذي تتنازل لإظهاره يا مولاي لشقي مثلي ، يشجعني على أن أعرض عليك بكل احترام شرطاً معقولاً جداً ألا وهو أن تتنازل وتشرّفنا ، رفيقي وأنا ، أعظم الشرف بمرافقتك إيانا لغاية شارع المورتيليري ... إنه على خطوتين من

هنا يا مولاي .

– أي أنك تريد أن أوصلكم الى حيث تتمكنون من الهرب ؟

فابتسم راكستان قائلاً : يا لله ! ضع نفسك مكاني يا مولاي ..

فابتسم دي كيز بدوره وانتصب بعظمة وهول يقول :

– لا حاجة لمرافقتك فأنت حرّ في الانسحاب وأعطيك كلمتي على ذلك .

– أعتقد أن كرمك يشمل رفيقيّ أيضاً ، أليس كذلك يا مولاي ؟

فتردّد دي كيز لحظة ثم قال ضاحكاً :

– لن أهينك باعتقادي في أنك تتخلّى عن رفيقيك في المعركة ، فلك ما تريد .

ثم رفع صوته وأمر رجاله قائلاً : دعوا هؤلاء الشجعان يذهبون .

فدقّ راكستان كعبيه وحيّا الدوق بسيفه تحيّة لائقة ثم أغمد سيفه واقتدى به رفيقاه وهما لا يصدقان ما يريان ويسمعان .

وعندئذٍ اجتمع رجال الدوق حول سيدهم وكان بومبينيان في أول صف فرآه راكستان ولكنه تظاهر بأنه لا يعرفه ، وقد انحنى الفارس أمام الدوق وذهب على مهل يتبعه رفيقاه ، وما إن استدار على عقبيه حتى قال دي كيز بصوت مرتفع :

– إن لم يرَ هذا الشجاع نفسه أكبر جداً من أن ينخرط في

خدمتي ، فإن ثروته أصبحت مؤمّنة !

وسمع راكستان كلامه فابتسم ولكنه تابع سيره دون أن يلتفت الى الوراء . ولما وصل الى شارع المورتيليري قرب دير الهودريات وقف ينتظر. ولم يطل الوقت حتى ظهر الكونت دي بومبينيان فتعانق الاخوان بحرارة وقال الكونت :

– لقد خشيت أن تكون ذهبت !

– كنت أعلم أنك ستأتي للبحث عني وها أنا أنتظرك كما ترى .

فقال الكونت وهو يتأبّط ذراع أخيه : لنبتعد أولاً وسنتحدث أثناء السير .

ولم يكن الشيفالييه راكستان يريد أن يظهر عليه أنه يفرّ مهما كلف الأمر ، ولكنه قَبِلَ أن يسير مع أخيه البكر وهو يتنهّد تنهّد الارتياح . ومشيا في شارع مونو وكان الشيفالييه أول من تكلم فقال :

– كيف اتفق أن أجدك تمارس تلك المهنة الحقيرة وأنا الذي كنت أظنّ أنك حصلت على الثروة بشرف ؟

– فانتفض بومبينيان قائلاً : أية مهنة ؟

فقال الشيفالييه وهو يبتسم ابتسامته الساذجة :

– مهنة الشرطي ! ولا تحمل كلامي على محمل اللوم يا عزيزي فقد أردتّ أن تضع يدك في طوقي ... وأنا أعلم أن هذه المهنة غير جديرة برجل من آل بومبينيان – راكستان !

فقال الكونت دي بومبينيان مغتاظاً ؟

– ولكنك أحمق يا هوبير ، فكيف تلومني على قيامي بواجبي كسيد نبيل بينا أجدك أنا على رأس عصابة من المتشردين وترتكب عصياناً مسلحاً ؟ ألا تقدّر أيها الشقي عاقبة عملك ؟

– وهل الأمر خطير الى هذا الحدّ ؟ .. وتقول إنه عصيان ؟ .. عصيان ضدّ من ؟ قل لي ، أرجوك ..

– عصيان ضد الملك !

– يا للشيطان ! لقد كنت أعتقد أنني قمت بعمل شريف عندما منعت زبانية قائد الدرك من شيّ عجوز مسكينة لم تفعل في حياتها إلا الخير ، وها أنت تقول إن عملي عصيان مسلّح .

فقال بومبينيان بحدّة :

– إسمع يا هوبير ، يجب أن أتحدّث معك في غير هذا المكان ، فما قولك في أن تتغدى وتتحدث الى الطاولة ؟

– أريد ذلك من كل قلبي ولكن على شرط أن أكون أنا صاحب الدعوة .

فتردّد الكونت بومبينيان لحظةً ولكنه خشي أن يغيظ أخاه إذا رفض ، فقال بصراحة :

– ليكن لك ما تريد . أنت تدعوني غداً وسوف أدعوك أنا بعد ذلك ، فأين أجدك ؟

– غداً في الساعة العاشرة صباحاً في حانة تروي فيديل بشارع ترياندري .

– سوف أكون هناك في الوقت المعين .

وتعانق الأخوان وافترقا ، أو بمعنى أصح ، انطلق بومبينيان

بخطوات واسعة ولبث راكستان في مكانه يتابعه بنظرة طويلة ساهمة وقد شابت وجهه المرح سحابة من الحزن وغمغم قائلاً :

– إنه أخي ... ومع ذلك فقد شاء سوء الطالع أن يشتبك سيفانا ! ولكنه لم يقل لي كلمة في هذا الموضوع .

وكان بومبينيان من جهته يسير وهو يقول في نفسه :

– « إن أخي أحمق بما يفعل ، وهو عملق دون شك . وسوف يصبح سعيداً جداً بالدخول في خدمة مولاي ، وسأساعده بكل قواي ... إنه أخي ... وسوف أجد به الى جانبي إخلاصاً حقيقياً وسيفاً ربما لا يوجد مثله في المملكة كلها ! ... »

الذئب والكلب

*

وحافظ بومبينيان على الموعد بدقة متناهية ، وعندما دخل القاعة المنخفضة السقف العابقة برائحة الخمر الرخيص ، المتلبدة بسحب الدخان حيث يسود جوّ معتم غامض ، لم يستطع أن يخفي اشمئزازه . ولكنه كتم ما في نفسه تحت ستار ابتسامة مصطنعة ، حرصاً على أن لا يغيظ أخاه .

وقد مُدّت المائدة على طاولتين مختلفتين إحداهما للأخوين والأخرى على بعد ثلاث خطوات ، لماراسكين وميلورد جندارم.

وكانت أواني المائدة ، بما فيها الأغطية ، نظيفة جداً ، فأعجب بها راكستان أيما إعجاب ، بينما رمقها بومبينيان بنظرة احتقار .

وجلس الأخوان وجهاً لوجه على مقعدين من خشب السنديان المدهون وبدأ الحديث في استعادة ذكريات الطفولة . وبعد ذلك طرق بومبينيان الموضوع الذي يهمه فسأل أخاه قائلا :

– ماذ تفعل في باريس وكيف تعيش ؟

وسكت لحظة ثم أردف يقول بتأثر :

– إذا لم تخدعني الظواهر فإن ثوبك البالي وبطنك الخاوي وخدّيك الهضيمين وأسنانك المشحوذة تدلّ يا أخي على أن الثروة لم تبتسم لك .

فقال راكستان ضاحكاً :

– إنني أعيش هنا كما كنت أعيش في أوفير في بيتنا ! لقد كنت أعيش هناك كالذئب واستطعت دائماً أن أحصل على قوت يومي ، ولكن ذلك لم يكن يأتي عفواً بل إن الطريقة كان لها علمها ... وقد تعلّمت تلك الطريقة وأستطيع الآن أن أفتخر بأنني بتّ أعرفها جيداً . وفي ذات يوم مللت كل شيء وجئت الى باريس ...

– وأنا أيضاً وصلت الى باريس خاوي الجيب والبطن ، وقد لاحظت ما لاحظته أنت ومررت بما مررت به فلم أتردّد لحظة فتركت ذئبيّتي وانحزت الى صفّ الكلاب السمينة . فانظر الى نفسك وانظر إليّ .

وقد قال ذلك وانتصب واقفاً فتأمّل راكستان ثوبه البالي وعاد يتطلع الى ثوب أخيه الفاخر ثم قال :

– أرى من ظواهرك أنك حصلت على الثروة .

فقال بومبينيان بتواضع :

– لم أحصل عليها بعد ولكنني في الطريق السويّ . لقد أردت أن تدعوني الى وليمة وقد أظهرت سخاء كبيراً وقدّمت أصنافاً كثيرة . ولكن الزبدة فاسدة واللحوم كذلك . أما الحلوى والخمر فمن أردأ الأنواع . أنا لا أقول هذا لأخجلك ، فالغلطة ليست غلطتك ، بل لأبيّن بعض نقاط سوف تحسها بنفسك عندما تعيش الحياة المترفة الناعمة التي أحياها أنا والتي تستطيع أن تحياها بدورك عندما تريد .

فقال راكستان وهو يبتسم: يا للشيطان ! إنك دقيق الملاحظة جداً يا أخي !

– سوف تصبح مثلي .

– ولكن كيسي خاو .

فقال بومبينيان بجدة : ليس لك إلا أن تريد فيمتلىء ، فإن مركزك مؤمّن بيننا وأنا على خير حال مع مولاي وسوف أساعدك بكل قواي مع العلم بأنني لن أتكبّد كثيراً من العناء لأن الدوق معجب بك جداً .

فقال راكستان مبتسماً : رغم الدور الذي لعبته معه أمس ؟

– بل بسبب ذلك الدور بالذات ، هذا الدور الذي ما انفكّ الدوق يروي أخباره على من يجالسه .

– إنه رجل كيّس إذن ، وذلك ما يجعلني أقرر تقريباً ...

– أتنضم إليها إذن ؟

– لا أقول لا ... ولكنني سأعطيك جوابي غداً .

فصاح بومبينيان قائلاً بغبطة : حسناً، وأظنّ أنني أستطيع أن أبشّر مولاي بأنك أصبحت منا .

وافترق الأخوان بعد أن حدد الكونت لأخيه مكان الوليمة المقبلة .

وفي اليوم التالي ذهب راكستان في الوقت المعيّن الى فندق « ليس » الواقع في شارع سان مارتين وكان من أشهر وأفخم فنادق باريس . وكان الكونت قد أمر بإعداد مائدة حوت كل ما لذّ وطاب من المآكل والمشرب ، فجلس الأخوان يأكلان وبدأ راكستان الحديث قائلاً :

– لقد فكرت يا أخي في كل ما قلته لي أمس فبدا لي أنك على حق وأن مخاوفي كانت كلها أوهاماً لأنني أعرفك رجلاً لا تسمح لأحد بأن ينتقص من قدرك حتى ولو كان دوقاً أو ملكاً . وقد قررت قبول ما عرضته عليّ إذا كان سيادة الدوق دي كيز لا يزال يكنّ لي ما أخبرتني به أمس !

– إنه لا يزال على ما كان عليه فكن مطمئناً . إن قرارك هذا قد ملأني غبطة وسوف يجتمع شملنا أخيراً كما كنا في الماضي فنعيش معاً عيشة رضية مترفة ولا نفترق عن بعضنا أبداً .

وبعد أن أنهى الأخوان تلك القضية الرئيسية على خير ما يرام ، انصرفا الى متابعة الأكل والشرب حتى ساعة متأخرة ، وقد شربا كثيراً من الخمر وهما يستعيدان ذكريات الماضي .

وكان السكر قد بلغ بالكونت مبلغاً كبيراً بينما كان الفارس ما يزال محتفظاً بكامل وعيه . وشاءت الأقدار في تلك اللحظة

أن يتذكّر راكستان رولاند ، وقد أصبح منذ أن رأى ريون دور يتذكّرها بصورة دائمة تقريباً ، فأحسّ برغبة قاهرة في التحدث بأي موضوع يمتّ إليها بصلة فقال :

– هل تتذكّر الأمير دي مونكابيه ، جارنا ؟ إنك لم تكن تحبه يا ريشار وأنا أتذكّر ذلك تماماً . ومن المؤسف حقاً أنهم لم يكتشفوا الى الآن قاتل ذلك التعس ؟

فقال بومبينيان وهو لا يعي ما يقول من تأثير السكر :

– أنا الذي قتلته ! لقد طعنته بسكين في قلبه فمات دون أن يفوه بكلمة .

فقفز راكستان وهو ينتفض من تأثير العار والغضب وألقى بيده على كتف أخيه وزأر قائلاً :

– أنت ؟ أنت الذي قتلت الأمير ! وتجرؤ على أن تقول لي هذا ؟ !

فلاحظ بومبينيان التأثير الهائل الذي ولّده اعترافه في نفس أخيه ، فصحا من سكره فجأة وحاول أن يصلح ما صدر منه فقال :

– رويدك يا أخي من الذي يكلمك عن القتل ؟

– لقد قلت لي إنك قتلته بطعنة سكين .

– سكين صيد يا أخي، سكين صيد ... فهل ترى في مجابهة سيف طويل متين بسكين صيد ، مبارزة شريفة ؟

فتنهد راكستان مرتاحاً ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من استعظام ذلك المصاب فعاد يجلس ويقول بصوت متهدّج : لماذا

تقاتلتما ؟

– لقد تكلم عن والدنا بكلام مهين، ولو كنت مكاني لفعلت ما فعلتُه .

– ولماذا لم تقل لي شيئاً يومذاك ؟

– لقد وقعت المعركة دون شهود فلم أجرؤ على ذلك. ولكنك تتذكّر مع هذا أن جثة الأمير وُجدت وهي لا تزال تمسك السيف بيدها المتشنّجة .

وكان راكستان يتذكّر ذلك فعلاً . ومن جهة ثانية فإنه لم يكن يشك في شرف أخيه ، فتنهد قائلاً : لقد كان ذلك قدراً محتوماً فلننهِ الكلام في هذا الموضوع .

وكان على وشك أن يقصّ على أخيه أنه صادق ريبون دور وأنه يظنها رولاند فيقوده هذا الكلام حتماً الى ذكر هرموزا وجوسلين والدوق دي سوربانتس الذين ورثوا ثروة الأمير دي مونكابيه العظيمة ، والذين يتحتم عليهم الآن أن يتنازلوا عن تلك الثروة لرولاند ، ولكنه ، دون أن يعلم لماذا ، تمالك نفسه ولزم الصمت .

وكان بومبينيان قد صحا الآن من سكره تماماً فشعر بغم شديد وأخذ في سرّه، يلوم نفسه على الغلطة التي ارتكبها. وكان راكستان يفكّر في ريبون دور التي يأمل أن يجدها بين يوم وآخر . وافترق الأخوان بعد أن تواعدا على اللقاء في اليوم التالي وقد قبل راكستان نهائياً أن ينضم الى رجال الدوق دي كيز الى جانب أخيه .

الآنسة دور بيريف

*

اغتبط الدوق دي كيز بانضمام الفارس دي راكستان إليه فاستقبله استقبالاً منقطع النظير وتكلم كثيراً عن معركة ساحة غريف ، وبعد أن هنأ راكستان أمام الجميع قال له ضاحكاً :

– أريد أن أسألك سؤالاً أيها الشيفالييه وأرجو أن تجيبني عليه براحة ضمير ، ماذا كنت تفعل لو رفضت أن أستجيب الى الشروط التي عرضتها عليّ؟ إذ أنك كنت تضع شروطاً دون شك.

فابتسم راكستان وقال بجرأة نادرة :

– لطالما حلمت يا مولاي بأن أثب الوثبة الكبرى برفقة عظيمة ، فأية رفقة أعظم من رفقة ذاك الذي يدعونه هنري الكبير ؟

فابتسم هنري وقال: وهذا يعني أنك كنت أغمدت خنجرك في عنقي ؟ !

– بأعظم القنوط وأشدّ الأسف يا مولاي .

فقال دي كيز للذين حوله !

– كان من المؤكد أن يفعل ما يقوله .

وقرّر أن يكون راكستان ملحقاً بالدوق نفسه مباشرة ، وفي هذا ما يجعله من خاصة رجال دي كيز وأصفيائه ومختاريه ، وقد استلم الفارس مهامّ منصبه في ذلك اليوم بالذات وقدّمه الدوق الى الدوقة ممتدحاً شجاعته ونبله .

وكان الى جانب الدوقة في تلك اللحظة فتاة عرف فيها راكستان الفتاة التي أنقذها من المتشرّد ترومبافيور ، والتي قيل له إنها تدعى ريون دور ، وكانت تلك الفتاة لا تبرح مخيّلته منذ اللحظة التي رآها فيها واعتقد أنه عرف في شخصها صديقة طفولته الصغيرة رولاند دي مونكابيه .

وقد اعتراه ذهول شديد عندما قدّمت له الدوقة تلك الفتاة باسم الآنسة دور بيريف وقالت إنها قريبتها وإنها يتيمة . والذي أضاع صوابه أكثر فأكثر هو أن تلك الآنسة دور بيريف التي حيّته بكل لطف لم يبدُ عليها أنها تعرفه .

ولكنّ ريون دور كانت قد عرفته جيداً رغم الظواهر . ومنذ اللحظة التي دخل فيها جناح الدوقة لم تكن ترى سواه ، وكان قلبها يخفق في صدرها كما لم يخفق من قبل .

وتفرّق الحاضرون ، هنا وهناك ، في جماعات صغيرة تمرح وتتحدث ، ولم يكن أحد يلقي بالاً الى ما يفعل جاره .

وعندئذٍ نهضت ريون دور وتوجّهت رأساً الى راكستان الذي أخذ قلبه يقفز في صدره فقالت له بصوت خافت عذب :

– إنني أبارك الصدفة التي سمحت لي يا سيدي بأن أعبّر لك عن شكري وامتناني للخدمة التي أدّيتها لي . كما أنني أشعر شعوراً خفياً بأنك عرفت فيَّ تلك المجهولة التي لم تتردد في أن تعرّض حياتك للخطر في سبيلها .

فأشرق وجه راكستان وصاح قائلاً :

– لم أكن مخطئاً إذن . وإنك حقاً تلك التي خلّصتها من

يد ذلك الفظّ الذي كان يسيء معاملتها ، أليس كذلك ؟

فابتسمت ابتسامة لطيفة وأحنت رأسها إيجاباً . ثم تحدثا لحظة قصيرة جداً لم تزد على ما يلزم ريون دور لتشكر منقذها . وبعد ذلك عادت الفتاة الى مكانها .

وقد طغى الفرح على الفارس والفتاة في ذلك اليوم أكثر من أي يوم مضى مع العلم بأنهما لم يكونا من أصحاب الطبائع الكئيبة .

وكان مصدر الفرح لدى راكستان أن وظيفته كانت تسمح له عندما يريد بالمثول أمام الدوقة دي كيز حيث يستطيع أن يرى دائماً الآنسة دور بيريف ، فكان يغتنم الفرصة لرؤيتها ومحادثتها ولكن في حدود المعقول ، وقد تمكّنت العلاقات بين الإثنين الى حدّ بعيد ، فأصبحا يتبادلان الأحاديث العاطفية بين حين وحين . وكان راكستان كلما رأى الآنسة دور بيريف وكلما سمع صوتها يزداد اقتناعه بأنها ليست إلا رولاند دي مونكابيه .

وذات يوم تذكّر الفارس بائعة الثمار في شارع تريواندري التي بدت له مطّلعة تماماً على كل ما يتعلق بريون دور ، فقصد محلها ، وكان عندها في ذلك اليوم رفيقاتها الثلاث كورج وبونيون وتوماس ، وكانت العجائز الأربع قد اجتمعن ينفثن سموم ألسنتهن كالعادة ، فما إن رأين الفارس حتى بدأن حديثاً طويلاً تخلّلته الإتهامات الشنيعة بحقّ الفتاة ، ووردت فيه أسماء لابواس وموسكادو وبرغاموت وسافير وترومبافيور وسبارتيموسكا كشهود . وقد سبكت العجائز الشريرات كلامهنّ سبكاً

محكماً الى حدّ أن راكستان صدّق كل ما قلته واليأس يعصر قلبه .

وخرج من عند بائعة الثمار وهو فريسة للألم واللوعة فكان يسير على غير هدى الى أن بلغ قصر دي كيز كأنه جسد بلا روح . وقد قرّر أن ينزع من قلبه ذلك الحبّ الذي يشينه ويكسوه بالعار وانقطع عن الذهاب الى جناح الدوقة .

وكانت ريون دور تبدو طيلة ذلك الوقت قلقة مضطربة وكانت تجد نفسها أكثر الاحيان تبكي وتنتحب دون سبب ظاهر ، فإنها هي أيضاً كانت تتألم لغياب الفارس .

ولكن راكستان لم يكن يستطيع قطع زياراته هكذا عن الدوقة بعد أن أظهر من الحماس والتفاني في خدمتها والتردّد على جناحها كما وصفنا ، دون أن يثير الأقاويل ويتعرّض لأسئلة يرتبك جداً في الجواب عليها دون شك . وقد فهم الفارس ذلك فعاد الى الظهور بعد بضعة أيام وكان قد عزم عزماً وطيداً على أن لا يطيل مدة زياراته ، وعلى أن يباعد بين هذه الزيارات الى أن يتمكن من قطعها نهائياً دون أن يثير الشكوك .

ولما رأته ريون دور زالت كآبتها فوراً وظهر المرح في عينيها الجميلتين وعاد الاحمرار يكسو خدّيها والابتسامة تطفو على شفتيها . وكان راكستان قد أتى يقدّم احترامه للدوقة ويعرض عليها خدماته وكان يبتسم ابتسامة الفتى اللامبالي الذي يسخر من نفسه ومن الجميع وحتى من الحياة نفسها . ولكنه كان شاحب الوجه تلمع عيناه ببريق الحمّى. لقد كان كمن يعاني انهياراً عاطفياً

تاماً .

وقد حيّا الدوقة دون أن يظهر عليه أنه لاحظ وجود الآنسة دوربيريف التي كانت على بضع خطوات منها . فلاحظت ريون دور ذلك الإهمال المتعمّد ، وعندما سنحت لها الفرصة للاقتراب منه دون أن يثير الإنتقاد سارت إليه وقالت بلهجة يشوبها القلق :

– ربّاه ! ما لي أراك هكذا يا سيد دي راكستان ؟ هل حدث لك ما يكدّر ؟ هل أنت متعب ؟

فأجاب راكستان قائلاً بلهجة باردة كالجليد :

– لم يحدث لي ما يكدر ولست متعباً أبداً .

ثم حيّاها بعدم اكتراث وأدار لها ظهره .

– كلمة واحدة يا سيدي ، أرجوك .

وطرقت الموضوع رأساً دون مقدمات أو مناورات فقالت :

– لقد أبديت نحوي الى هذا اليوم تقديراً خاصاً على الأقل ، إن لم أقل انعطافاً ، وها إنك اليوم تعاملني معاملة مهينة . ولما كان من حقي أن أعرف السبب فأرجو أن تقول لي ما الذي جعلني أسقط من عينيك الى حد لا تكاد معه أن تتنازل لتحيتي.

– إسألي صديقاتك برغاموت وموسكاد وسافير ...

فقاطعته ريون دور قائلة : هل تعرف هؤلاء الفتيات الطيبات ؟

– لم أنل هذا الشرف .

فلبثت ريون دور لحظة تفكر ساهمة ، ثم تطلّعت مباشرة في عينيه وقالت :

ـ إن هؤلاء الفتيات الثلاث قد خدمنني خدمة لا أستطيع تحديدها ولكنني أشعر شعوراً صادقاً بأنها خدمة لا تُنسى . وأحسّ بأن التبدّل الذي ألاحظه في تصرّفك نحوي ناجم عن معرفتي بهؤلاء الفتيات ولا أعلم الآن ما إذا كانت تلك المعرفة لسعادتي أو لشقائي .

وكان الفارس قد بدأ يلاحظ أن كلاً منهما ضحيّة لسوء تفاهم فظيع إن لم يكن لبعض المناورات السافلة ، فلطّف من وضعه رغماً عنه وأجاب قائلاً وهو يبتسم ابتسامة عذبة :

ـ إنك مخطئة في ما قلته .

ففكّرت هنية وقالت : أتريد يا سيد دي راكستان أن تسمح لي بأن أطلعك على الظروف التي عرفت فيها هؤلاء الفتيات الثلاث ؟

ـ كنت على وشك أن أرجوك ذلك يا سيدتي .

وعندئذٍ قصّت عليه ربون دور بكل بساطة تاريخ حياتها ابتداءً من اللحظة التي وجدت نفسها فيها وحيدة في الوجود ، وقد شرحت هذه النقطة ببضع كلمات مقتضبة ثم دخلت في التفاصيل عندما أخبرته عن كيفية وصولها الى منزل لابواس وحياتها فيه وخروجها منه .

ولما انتهت من كلامها واطّلع راكستان على ما يريد معرفته ، انحنى أمامها باحترام عميق وأخذ يدها البيضاء المرتعشة فرفعها الى شفتيه وقال بصوت يرتجف تأثراً وهو لا يدري ما يقول لشدة فرحه :

ـ إنك أنقى وأشرف نساء الكون وأجدرهنّ بالاحترام والعبادة ، وأنا شقي حقير لأنني ظننت ... يجب أن أجثو على ركبتيّ وأتوسّل إليك أن تصفحي عني ... ولكنني سأنتقم لك وسأعاقب الشقيات اللواتي شوّهن ...

وكان سكران لشدة فرحه . أما هي فكانت مغتبطة راضية ترمقه بنظراتها الصافية البريئة المخلصة ، وقد نسي الإثنان مكان وجودهما ونسيا الجميع والكون كله فلبثا ينتظران هنيهة وكلاهما في أعلى درجات الغبطة وشرخ الشباب وأوج الجمال .

وكان ذلك إعلان حبهما . لم يقولا شيئاً ولكنهما علما أن كلا منهما يعبد الآخر ويستطيع الاعتماد على إخلاصه ووفائه حتى الموت .

وأخيراً انحنى راكستان أمامها مرة أخرى وغادر المكان.

ذات الرداء الأبيض أم ذات الرداء الأسود ؟

★

وذهب راكستان فوراً الى شارع تريباندري وقد التقى في الطريق ميلورد جندارم وماراسكين اللذين دبّ إليهما السأم بدونه ، وكانا يرودان في جوار قصر دي كيز على أمل أن يصادفاه . فلم يحتج الى أن يشير إليهما لأنهما تبعاه حسب العادة .

ووصل الفارس الى محل الأم بينيات حيث كان العجائز الأربع مجتمعات كالعادة ، فدخل كالعاصفة ورآه العجائز مشتعل

العينين متجهم الوجه فأيقن بحلول الساعة الأخيرة وقد جرد راكستان خنجره وقال لهن بصوت رهيب :

– أريد أن تقلن الحقيقة وإلا قطعت ألسنتكن الأربعة وألقيتها للكلاب .

ولم يحتج الى زيادة إيضاح لأن اللعينات أدركن فوراً أنه عازم على تنفيذ وعيده فبدأن يتكلمن جميعاً في وقت واحد وقد ظهر مما قلنه أن كلامهن السابق لم يكن إلا محض اختلاق من أوله الى آخره .

وكانت جميع شكوك الفارس في براءة ريبون دور قد زالت عندما تكلم مع الفتاة في جناح الدوقة دي كيز ، ولكنه أراد من مجيئه الى محل بائعة الثمار أن يلقي درساً على العجائز الأربع لا ينسينه أبداً . ومع ذلك فإنه لم يضع تهديده موضع التنفيذ بل دعا ماراسكين وميلورد جندارم وأمرهما قائلاً :

– سوف تراقبان هؤلاء الساحرات الأربع وإذا سمعتما أنهن يقلن كلاماً شريراً في واحد من الناس فاقطعا ألسنتهن وألقياها للكلاب ، أفهمتما ؟

فقال ماراسكين ببرودة :

– كن مطمئناً يا سيدي .

فخرج راكستان الى الشارع حيث نظر الى باب لابواس وقد فكر هنيهة في الدخول إليها وإعطائها درساً قاسياً، ولكنه هز كتفيه وهو يغمغم قائلاً : « ما الفائدة ؟ »

وكاد يتابع سيره عندما فُتح باب العجوز وخرجت منه

برغاموت وموسكاد وسافير وقد عرفهن فوراً وتقدم منهن فظنن أنه زبون ساقته إليهن الصدفة السعيدة وبدأن يحيينه بظرف ولطف وكن يردن الذهاب الى حانة غراندوق عند موفيتت غول دور ، فقادهن الى هناك حيث طلب لهن ما أردن. وعندما جلسن الى الطاولة قال لهن :

– إن ريبون دور هي التي أرسلتني إليكن .

فصاحت الفتيات الثلاث في وقت واحد قائلات :

– الأميرة ؟ !

وبدأت الأسئلة تنهال كالمطر: أهي سعيدة؟ أفلا تزال كما هي طاهرة نقية بريئة ؟ هل تفكر فينا ؟ هل يُقدر لنا أن نراها يا ترى ؟ أين هي ؟

وقد أجاب الفارس على جميع تلك الأسئلة بلطف وكياسة . ولكن كلمة « الأميرة » التي قلنها بتعجب أثارت اهتمامه فحملهن على الكلام في هذا الموضوع وعلم منهن أن ريبون دور كانت على يقين من أنها أميرة فقال في نفسه : « يا لله ! ولماذا لا تعتقد ذلك وهي الأميرة رولاند دي مونكابيه ؟ إنها هي دون شك وأنا متأكد الآن تماماً من ذلك ! » ، ومكث مع الفتيات ساعتين وهو يستمع إليهن يتحدثن عنها. وكانت السعادة تبدو واضحة على ملامحهن وهن يقمن بذلك وقد طابق حديثهن قصة ريبون دور في جميع النقاط. وأخيراً نهض الفارس للذهاب، وبعد أن سدد الحساب أعطى الفتيات كيسه المنتفخ وهو يقول بلطف متناه :

– لقد كلّفتني ربون دور بأن أعطيكن هذا وأؤكد لكنّ أنها لن تنساكن أبداً . وهي لا تستطيع أن تعطفكن بمكانها ولكن صبراً فلا بد من أن يأتي يوم تجيء فيه وتأخذكن فتتركن نهائياً هذه المهنة التي لم تخلقن لها على ما أرى .

وذهب وهو يكرر قوله بينه وبين نفسه :

« لم يبق هنالك شك في أنها رولاند بنفسها ! »

★

ولكنه لم يكن وحده الذي يقول ذلك . ففي أحد الأيام سألت جوسلين شقيقتها وهي تضحك بخفّتها المعهودة وقالت :

– قولي لي يا هرموزا ، ألا يلوح لك أن الآنسة دور بيريف تذكّر الناظر إليها بشخص عرفناه جيداً فيما مضى ؟

إنها تشبه الأمير دي مونكابيه الذي ورثناه .

– يا لله ! وهل لاحظت أنت أيضاً هذا الشبه ؟

– لو عاشت رولاند دي مونكابيه لكانت تشبه الآنسة دور بيريف شبهاً تاماً .

وانتهى الحديث عند هذا الحد دون أن تضيف إليه الشقيقتان كلمة واحدة .

وفي غد ذلك اليوم كان النذل بنياكل في اللوفر ، في الجناح الصغير الذي حوّله الى مختبر كيمائي لخدمة الملك ، فأحضر أحد الخدم إليه ورقة مطوية بطريقة ذات مغزى معيّن ومختومة بخاتم عريض من الشمع الأحمر طُبع عليه ، كشعار ، أحد وجهي قطعة من العملة . ففض بنياكل تلك الورقة فلم يجد فيها

أي أثر للكتابة . وبعد أن أدارها آلياً في مختلف الأوضاع قال مندهشاً :

– لا شيء ! لا شيء !

ثم فكّر لحظة وقال : يا لله ! لقد قلت دائماً إنها أقوى مني ، أقوى بكثير ! ... ومع ذلك فيجب أن أتوصّل الى أن أعرف من هي من الاثنتين تلك التي أرسلت لي هذا الأمر .

وأحرق الورقة وعاد الى عمله . وعند المساء التفّ بمعطفه وأحكم وضع قناعه الأحمر وخرج من اللوفر قاصداً قصر الدوق دي سوربانتس ، وكانت جوسلين وهرموزا مع الدوق عندما أدخل بنياكل الى القاعة فقال له رب القصر : هل من جديد ؟

– لا شيء حتى الآن يا مولاي .

وكان هذا كل ما تبادله الرجلان من الحديث وقد بدا على الدوق أنه اكتفى بجواب بنياكل فأذن له بالانصراف ، فخرج هذا من القاعة ، ولما وصل الى رواق مظلم انتفض انتفاضة جزع وقد وقف شعر رأسه فإنه سمع صوتاً يعرفه تماماً يقول له همساً :

– لا تجهد نفسك بالبحث فإنك لن تعلم أبداً .

فشعر بنياكل برعب لا يوصف رغم رجاحة عقله وشجاعته ولبث مسمّراً في مكانه وقد شحب وجهه وشلّ الخوف قواه وكان يبحث بعينيه في كل مكان علّه يستطيع رؤية شيء يعرف منه ما يحيط به من الأسرار الرهيبة ولكنه لم يرَ شيئاً .

وفي تلك اللحظة شعر بيد تمس كتفه ، فاستدار كتلة واحدة وأسنانه تصطك فزعاً فشاهد الشبح ينتصب على مقربة منه دون

أن يعلم من أين طلع عليه . فأخذ يتطلع فيه مذعوراً ويمر بيده آلياً على جبينه الذي يتصبّب منه العرق البارد فلم يرَ أمامه، هذه المرة أيضاً، لا ذات الرداء الأبيض ولا ذات الرداء الأسود، بل رأى كالعادة شبحاً ملتفاً بمعطف طويل لا لون يميزه وقد اعتمر بقبعة تخفي رأسه ووجهه، وكان في أحد أصابع اليد التي لمست كتفه الخاتم الذهبي البسيط ذو الياقوتة الحمراء، وقد قال له الشبح بصوت مهدد جليدي النبرة :

– إنه الإنذار الأخير الذي أوجهه إليك .

فانحنى بنياكل باحترام وقد أحسّ بالضعف وخوار العزيمة، وعندئذٍ سأله الشبحُ قائلاً : هل أنت واثق من أنها غرقت في مياه النهر ؟

– تمام الثقة يا مولاي !

– ألا يمكنُ أن تكون مخطئاً !

– يستحيل يا سيدتي . لقد قلت لك إن الطفلة كانت مغمياً عليها ونصف مخنوقة عندما ألقيتُها في الواز .

– نعم، ولكن الفارس الصغير ظل مصراً على قوله بأنه انتشلها من النهر وجاء بها الى الضفة .

– لقد كان حالماً وأؤكد لك أنه لا يوجد ما يقلقك في هذا الشأن .

– وإذا قلت لك إنني رأيتها حيّة ؟

– أوهام وتخيّلات محضة يا سيدّتي ! إن الأموات أموات ولا يخرجون من قبورهم أبداً ! ومن الممكن أن تكوني رأيت

شخصاً يشبهها وهذا كل شيء .

وسكت هنيهة ثم أضاف قائلاً ببرود رهيب :

– إذا كانت تلك الشبيهة تقلقك فليس لك إلا أن تعطيني إشارة ...

– كن على استعداد لكل شيء وانتظر أوامري .

فانحنى دلالة على الخضوع . ولما انتصب كان الشبح الذي يلبس في إصبعه الخاتم ذا الياقوتة الدموية اللون قد اختفى .

المهمة الاولى

*

بعد أن تأكد راكستان من أن الآنسة دوربيريف هي رولاند أميرة دي مونكابيه قال في نفسه فوراً :

« من واجبي الآن أن أسعى لأردّ لها اسمها ولقبها وثروتها التي اغتصبها الدوق دي سوريانتس وزوجته جوسلين وشقيقتها هرموزا. هكذا سأفعل وإلا فلن أكون جديراً بالاسم الذي أحمله ! »

وكان ذلك يعني النضال ضد الدوق دي سوريانتس سفير إسبانيا لدى ملك فرنسا ابتداء من تلك اللحظة . ولكن ماذا يمكن أن يفعل فارس فقير عديم النفوذ ضد شخصية قوية ذات نفوذ واسع مثل الدوق ؟ وقد فكـّر ملياً في الموقف ثم ما لبث أن صاح فجأة وقال :

– بحق السماء، أليس الدوق دي كيز هنا ؟ ! يا لله ! وبما

أني اتخذته سيداً لي فإن أقل ما يجب عليه هو أن يفعل شيئاً لأجلي !

وعندما قرر أن ذلك « السيد الذي اتخذه » مفروض فيه أن يخدمه في بعض الشؤون ، أقام ينتظر بفارغ صبر أن يكلفه دي كيز بالمهمة الأولى ، وكان يتمنى من كل قلبه أن تكون تلك المهمة بالغة الأهمية محفوفة بالأخطار والصعوبات ، أي أن تكون من تلك المهات الرئيسية التي تُكسب من ينجح في تنفيذها ثقة سيده المطلقة واحترامه وعطفه .

ولا لزوم للقول بأن راكستان كان على يقين تام من أن تلك المهمة سوف تكون من أشرف المهات . وكان يعتقد أنه يهين الدوق إهانة لا تغتفر بمجرّد أن يفترض فقط أنها قد تكون غير ذلك ، حتى أن تلك الفكرة لم تمر بباله مطلقاً وكان موقناً من أنه سينال غايته قريباً .

وكان الدوق دي كيز يفكّر فعلاً بأن يكلّفه بمهمة حتى أننا لنستطيع القول بأنه لم يضمّ الفارس الى خدمته إلا لأجل ذلك . ولكن المهمة التي سيوكلها إليه هائلة رهيبة لا تخطر في بال ، فإن دي كيز كان يريد أن يضرب الضربة الكبرى وأن يخاطر برأسه ورؤوس أتباعه في سبيل رأس واحد هو رأس هنري الثالث ملك فرنسا ، على نحو ما كان يفكر من قبل في قطع رأس شقيق الملك الحالي ، الملك شارل التاسع (١) .

١ – راجع رواية « باردليان » و« حب وحرب » التي صدرت عن « دار الروائع » لتقف على أخبار دي كيز مع شارل التاسع .

وقد دعا راكستان في ذلك اليوم وانفرد وإياه في قاعته الخاصة وأخذ يتأمله بنظرة فاحصة دقيقة . وبعد أن مرّ بيده على جبينه المندّى بالعرق بدأ يتكلم ببطء وروية مباعداً ما بين الكلمات كأنه يبلو الفارس ولا يجرؤ على التعبير عما يريده بصراحة الى أن قال أخيراً :

— سوف أحتاج إليك أيها الفارس في تنفيذ مهمة خطيرة ... خطيرة جداً ... أو بمعنى أصح ، وحيدة فريدة في خطورتها .

— ألعلها معركة يا مولاي ؟ وحق الشيطان إن خوض المعارك أفضل من هذا الخمول ! لقد كاد يقتلني الضجر وأنا قابع هنا لا أفعل شيئاً . لقد مللت يا مولاي وعلا الصدأ سيفي . فإلى المعركة ، الى المعركة !

فهدّأه دي كيز بإشارة وتابع كلامه قائلاً بتردّد :

— نعم ، إنها معركة ... معركة فاصلة ... إنها معركة الحياة أو الموت التي تتضمّنها المهمة التي سوف أكلفك بها .

— حسناً ، إن حياتي ملكك فتصرّف بها كما تشاء ولن أموت سوى مرة واحدة رغم كل شيء . وأرجو أن تعتبرني مخلصاً في قولي يا مولاي .

— أنا على يقين من أنك سوف تنجح مهما كانت المهمة خطيرة كما أنك الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يضطلع بها على خير وجه ، ولذلك فقد اخترتك وفضلتك على الجميع . إن مصيري بين يديك ولكنني أكاد أكون مطمئناً الى النتيجة ، وسوف أكون مديناً لك بحياتي ، ولا لزوم للقول بأنك ستكافأ مكافأة

لا تخطر ببال أحد .

فأطرق راكستان برأسه وقد احمرّ وجه خجلاً، وكان صوته مختنقاً عندما اعترف بصراحة قائلاً :

– إنك تراني خجلاً يامولاي لأن الحقيقة ترغمني على الاعتراف بأنني كنت أهدف سلفاً الى غاية شخصية من وراء الاضطلاع بأعباء مهمتي .

ورأى دي كيز احمراره وارتباكه فتعجّب من ذلك ولكنه قال في نفسه :

– « يلوح لي أن هذا الشجاع لم يعتدْ بعد على طلب المكافآت وقبولها . ولكن قد يكون ذلك من باب اللباقة ليظهر نفسه بمظهر الرجل الحساس الكريم ، فإذا كان خجلاً حقاً فيجب ألا أزيد ارتباكه ، وإن كان الأمر لباقة فلأكن ألبق منه . »

ثم عذره قائلاً : ليس هنالك ما يوجب الخجل لأنني لو كنت مكانك لفعلت ذلك .

وقد قال ذلك بشكل لطيف وظهر اقتناعه بقوله واضحاً جلياً الى حد أن راكستان زايله حرجه وارتباكه فصاح قائلاً :

– لك الحمد يا مولاي فإنك قد رفعت عن ضميري عبئاً ثقيلاً وأعترف لك بأنني كنت أخشى أن أسقط من عينيك ، وأقسم أنه ليس من عادتي أن أظهر نفسي مسوقاً هكذا وراء غاياتي الشخصية، وعندما تعلم الأسباب القاهرة التي جعلتني أتصرف على هذا النحو فإنك ...

فقاطعه دي كيز قائلاً بالطيبة نفسها :

– على مهلك يا صاحبي ولا تدافع عن نفسك هكذا . أعيد عليك أن الذي تفعله يبدو طبيعياً جداً .

ثم أردف يقول بصراحة : وبما أنك تريد تحديد المكافأة بنفسك فحدّدها ولا تتردّد وأقسم لك بشرف آل لورين أنني سأمنحك تلك المكافأة كائنة ما كانت .

فكاد راكستان يعلن فوراً عن المكافأة التي ينتظرها، ولكنه فكر هنيهة وقال في نفسه :

– « إن أول ما سيطلبه مني هو أن أقدم له البرهان على أن الآنسة دوربيريف هي الأميرة رولاند دي مونكابيه ، وأنا لا أستطيع تقديم هذا البرهان لأنني لم أحصل عليه بعد . ولذلك فإنه سيؤجل النظر في القضية الى وقت آخر . ولكن من الممكن أن ينسى وعندئذٍ يتحتم عليّ تذكيره ، وبذلك أعود الى الارتباك نفسه الذي يستولي عليّ الآن . »

وقال بصوت مرتفع :

– إسمح لي يا مولاي أن لا أتقدم بطلبي إلا عندما أرى ذلك مناسباً مع الاحتفاظ بكامل حقوقي في ما أعطيتني كلمتك على منحي إيّاه !

– ليكن . ولك كلمتي الدوقية .

فقال راكستان وهو ينحني : شكراً يا مولاي .

ثم انتصب وتطلع مباشرة في عيني الدوق وهو يقول: لتسنح الفرصة وسوف اظهر لك أنني لن أكون أبداً صاحب غايات شخصية كما هي الحال هذه المرة .

فأتى دي كيز بحركة تعني أنه لا يعلّق أية أهمية على مثل تلك الأمور . وقد شعر كل منهما بالراحة والغبطة بعد أن قالا ما كان يثقل عليهما قوله وصُفّي كل شيء على ما يرام ، فانقلب الدوق الى ظهر مقعده العريض المزيّن بشعارات آل لورين وأخذ ينقر بأصابعه على حافة الطاولة الموضوعة أمامه ثم قال بلهجة جدية :

– لنتكلم الآن بشأن مهمتك وأظن أن لديك بعض الرفاق المخلصين الشجعان الذين يستطيعون مساعدتك بقوة مقابل مكافأة شريفة ، أليس كذلك ؟

– لدي فعلاً يا مولاي رجلان أعتبرهما بمثابة ذراعيّ وهما يتمتعان بقوة هرقلية ومهارة تفوق التصور ، وأستطيع أن أضم إليّ بعض الرجال الشجعان إذا اقتضت الضروره ولكنني لن أكون مسؤولاً حقاً إلا عن نفسي وعن ذراعي .

ففكّر دي كيز لحظةً وقال:

– إذهب مع بطليك هذين الى شارع فياي كوريري ، ويجب أن تكونوا هناك قبل الساعة الرابعة بقليل ، وستجدون في زاوية شارعَي فياي كوريري وأوبري لوبوشيه بيتاً يبدو مهجوراً وله مدخلان أحدهما من شارع أوبري لوبوشيه ، والآخر من شارع فياي كوريري ، فتأتون أنتم الى هذا المدخل الأخير . لا تطرقوا الباب فإنهم سيرونكم من البيت ويفتحون لكم ، فتدخل وحدك وينتظرك رفيقاك في الشارع مستترين . وسأعطيك هناك تعليماتي الأخيرة .

فقال راكستان : سأكون في شارع فياي كوريري قبل الساعة الرابعة بربع ساعة .

وعندئذٍ صرفه الدوق وهو يقول بلهجة لطيفة : حسناً ، وبما أنك حدّدت مكافأتك بنفسك فلا تنسَ أنني أعطيتك كلمتي فاذهب الآن أيها الفارس الشجاع !

فانحنى راكستان وقال : لن أنسى ذلك يا مولاي !

وخرج بخطوات ثابتة حازمة .

شارع فياي كوريري

*

لم يذهب راكستان بعيداً ليجد رفيقيه اللذين سماهما ذراعيه ، فإن شارع « شوم » ، حيث يقع قصر دي كيز كان يتبدل اسمه ، ابتداءً من شارع المعاطف البيضاء لغاية شارع بريتونيري ، شارع الرجل المسلح . وقد وجد الفارس الرجلين في إحدى حانات هذا الشارع .

ولما رآياه يتفحّص سلاحهما وعدّتهما بنظرة سريعة فهما أنه أتى ليأخذهما في مهمة ، فهبّا واقفَين فوراً وهما يُصلحان من وضع حمالتَي سيفيهما ، فابتسم الفارس وغادر الحانة دون أن يشير إليهما وقد تبعاه على الأثر كالعادة .

وسار راكستان الى شارع فياي كوريري عن طريق شارع أوبري لوبوشيه ، وذلك ليتفحّص جيداً واجهتَي المنزل ، فألقى

نظرة وهو سائر على الباب المنخفض السميك المصفّح ، ورفع عينيه الى البيت فاستنتج أنه مهجور ، وكانت جميع أبوابه ونوافذه مقفلة .

فترك ماراسكين وميلورد جندارم اللذين وجدا للحال فجوة في أحد الجدران فاختبآ فيها ، وتابع سيره الى شارع فيباي كوريري حيث كانت أبواب المنزل ونوافذه جميعاً مقفلة في تلك الجهة أيضاً ، فتقدّم ببطء ووقف أمام الباب في الساعة المعيّنة تماماً .

وقد فُتح الباب أمامه دون ضجة ، فدخل بهواً معتماً وجد نفسه فيه أمام رجل ملتف من الرأس الى القدمين بمعطف لا يميّزه ، ومعتمر بقلنسوة فضفاضة تخفي وجهه تماماً ، وكان هو الذي فتح الباب للفارس وقد أشار إليه أن يتبعه دون أن ينبس بكلمة .

ولما وصل راكستان ودليله الى قاعة تطل على الشارع ، أسقط هذا المعطف والقلنسوة فإذا هو الدوق دي كيز بنفسه ، فدهش الفارس لذلك وبدأ يتوقع حدوث أمور رهيبة مشبوهة. وقد خمدت فجأةً جذوة الحماسة التي أثارتها في نفسه محادثته مع الدوق في الصباح ، فأخذ يراقب ما يجري أمامه بذهن نيّر وانتباه كلي .

ولم يكلّمه الدوق بل ذهب فوراً الى النافذة فألصق عينه في ثغرة فيها وجعل يراقب الشارع ولم يلبث أن انتصب بعد قليل وهو يغمغم قائلاً : إنه لم يحضر بعد ، ولا يزال لدينا متّسع من

الوقت !

وكان وجهه متقلّصاً بالحقد الهائل ، وفي صوته المتهدّج نبرة تهديد رهيبة مما جعل راكستان يقطّب حاجبيه ويقول في نفسه : « يظهر أننا ننتظر شخصاً معيناً ! أنا لا أعلم من هو ولكنني لا أتمنى أن أكون إياه ! ومع ذلك فإنني أريد أن أعلم ماذا نفعل هنا ! »

وكان دي كيز على عجلة من أمره وكان يعتقد أنه يستطيع الاعتماد على راكستان بعد المحادثة التي دارت بينهما في الصباح ، وقد خُيّل له أن الأمور قد صُفيت كلها وأن لا فائدة من العودة إليها فبدأ يُظهر نيته فوراً وقال :

– يجب أن تعلم أيها الفارس بأن لي عدواً هائلاً رهيباً قوياً جداً ... بل هو أقوى رجل على وجه الأرض ... وأن بيني وبينه صراعاً مميتاً لا هوادة فيه. أي أنه، عاجلاً أو آجلاً، يجب على أحدنا أن يقتل الآخر .

ففهم راكستان هذه المرة موضوع المهمة التي سيكلفه بها الدوق وقد بدرت منه حركة احتجاج عنيفة ، ولكنه تمالك نفسه فوراً وقال بسخرية خفيت على دي كيز :

– ومن الطبيعي أنك تفضل أن تقتُل على أن تُقتَل. لقد فهمت تماماً ، كما أن تصفية هذه القضية من السهولة بمكان ، أي أنك تتحدى عدوّك فتتبارزان وتطعنه في صدره طعنة هائلة . وهكذا ترى أن الأمر بسيط جداً .

– إن لم يكن سوى ذلك فالأمر سهل كما تقول ، ولكنني

لسوء الحظ لا أستطيع مبارزة ذلك العدوّ، ويجب عليّ إذن أن أكلف شخصاً آخر بهذه المهمة الشريفة .

– ولقد فكّرت بتكليفي بها ... فكن على يقين من أنني أقدّر هذا « الشرف » حق قدره .

وقد نسي الفارس نفسه لحظةً فقال ذلك من أطراف شفتيه، فقال دي كيز متعجباً :

– ماذا ؟! ألعلك تتردّد ؟

فكاد راكستان ينفجر ، ولكنه كان يريد الآن أن يعرف الشخص الذي يعرض عليه الدوق أن يقتله ، وكان قد اشتبه في أنه ملك فرنسا منذ أن وصفه الدوق بأنه « أقوى رجل على وجه الأرض ! » ولما كان يريد أن يتأكد تماماً من هوية الرجل المطلوب قتله ... فإنه تمالك نفسه مرة أخرى . إلا أنه قال بلهجة غير واضحة :

– والنتيجة أنك تعرض عليّ ارتكاب جريمة قتل!

– من الذي كلمك عن القتل؟ إنها مبارزة شريفة سيفاً لسيف وصدراً لصدر وليس هناك شيء آخر.

وكان راكستان قد عرف الكثير فلم يعد كلام الدوق ينطلي عليه فقال متظاهراً بالتردّد: ما دام الأمر كذلك فلماذا أوصيتني بأن أحضر معي رفيقيّ ؟

– لأن الرجل قد يكون مصحوباً ببعض رفاقه وفي تلك الحالة يتدخل رفيقاك بدورهما .

– أي أنه إذا كان الرجل وحده فإن رفيقَيّ لن يتدخلا ،

أليس كذلك ؟

فقال الدوق بسرعة: تماماً ، لأنك تكون عندئذٍ أهلاً لتنفيذ الأمر بمفردك .

إذن كان ذلك فإن الأمر مختلف ... مختلف تماماً .

– أتقبل إذن ؟

فقال راكستان بعزم : أرني الرجل أو سمّه لي .

وقد ظن الدوق أنه قبل ، فتنهد ارتياحاً وأشار بيده الى ثغرة النافذة وهو يقول : أنظر الى عدوّي الذي سيقتلني إن لم أقتله ... فانه الآن في الشارع .

فاقترب الفارس من النافذة بسرعة ونظر الى الشارع وقد عرف في عدوّ الدوق ملك فرنسا رغم بساطة ثيابه ، فانتصب ببطء ، وأشار بسبّابته الى النافذة وهو يقول للدوق الذي كان يراقبه مراقبة شديدة :

– إنه الملك !

– نعم .

فصفر راكستان صفرة إعجاب شديد وكان يبدو هادئاً راضياً الى حدّ أن الدوق خدع بمظهره وأحس بالاطمئنان يثلج صدره .

ولكن الفارس هزّ رأسه سلباً وقال :

– سوف يرفض القتال !

– أرغمه عليه .

– كيف ؟

– إن هذا شأنك ...

– سوف يعلن عن نفسه ...

– قل له إنه كاذب !

– ولكن إذا أصرّ على عدم تجريد سيفه ، فماذا أفعل ؟

– تضع رأس سيفك على عنقه فيضطر عندئذٍ الى الدفاع عن نفسه .

– وإذا لم يدافع ؟

– تقتله عندئذٍ كأنه كلب كَلِب ويكون هو الذي أراد ذلك . وفي جميع الأحوال ماذا يعنيك من أمره ما دمت ستكافأ بما تريد ؟

ورأى راكستان أن اللعبة قد تعدّت حدّها ، فألقى القناع بدوره وقال بصوت خفيض ولهجة ساخرة مرحة :

– يا للشيطان ! إنك ماهر جداً في حبك جرائم القتل ، ويبدو أنك معتاد على هذا النوع من المؤامرات . لقد رأيتُ في حياتي أشراراً لا يتراجعون عن تنفيذ أية مهمة مهما كانت سافلة بشعة ولكن هؤلاء يعدّون نماذج للشرف والفضيلة إذا قيسوا بك أيها الدوق !

فزمجر دي كيز هائلا :

– أيها الشقي الحقير !

فلم يتنازل راكستان حتى الى أن يغضب ... بل نظر إليه بعجب شديد وقال :

– شقي ! ولماذا ؟ ألأنني أرفض قتل الرجل الذي تريد أن

تسرقه ؟ إذ أن هذه هي غايتك في الواقع : الكيس أو الحياة ، ولا شيء سوى ذلك ! أي أنك تماماً كهؤلاء المتشردين الذين يكنون لضحاياهم في الغابات أو في الزوايا المظلمة من الشوارع . ولكنك أنت أشدّ جشعاً من هؤلاء المساكين فان الكيس الذي تطلبه هو مملكة كاملة مترامية الأطراف . يا للشيطان ! إنه لأمر مؤسف أن يكون للإنسان مثل تلك المطامع وأن يُدعى هنري الكبير وهو لا يجرؤ مع ذلك على إنجاز مهمته بيده بل يحقّر نفسه باللجوء الى شيطان مسكين مثلي لينفّذ له تلك المهمة. أتعلم أن ذلك من العجب العجاب ؟ ! أتريد قتل الملك ؟ أقتله بحق الشيطان... ولكن إفعل ذلك بنفسك ! ما الذي يمنعك من مبارزته وجهاً لوجه ؟ أتريد أن أذهب وأجيئك به ؟ نعم ، أنا بنفسي ... ولماذا لا ؟ فانني في غاية الفضول لأرى ما سوف تفعله ، وقد استبد بي فضولي الى حدّ أنني سأذهب الآن لآتيك به .

شارع فياي كوربري أيضاً

*

لم يكن الدوق قد عاد من دهشته عندما خرج الفارس الى الشارع ، ولكنه تمالك نفسه تماماً بعد ذهابه فقدّر خطورة الموقف . وكانت أول فكرة عنّت له هي أن راكستان لا بد أن يشي به ويفضحه ، فانقض على النافذة وقد فتح عينيه وأذنيه بانتباه كلي .

وتقدّم راكستان من الملك فرفع قبّعته. وانحنى أمامه بلطفه المزهوّ المعهود، فتعجّب هذا ووقف في وسط الشارع وقد قطّب حاجبيه في بادىء الأمر كأنه نسي أنه متنكّر بزي نبيل عادي، ولكنه تذكر دوره بسرعة فتمالك نفسه. ولما رأى الفارس يتصرّف نحوه بكل ذلك التهذيب رفع قبّعته بدوره وردّ التحية بلطف لا يقلّ عن لطف راكستان ولبث ينتظره.

فأعجب راكستان بتصرفه، وخاصة بذلك الهدوء الممتاز الذي ينمّ عن شجاعة حقيقية، فقال برصانة:

– هل أجرؤ يا سيدي على أن ألتمس منك قضاء حاجة؟

وكان هنري الثالث قد تفحصه من جهته بنظرة سريعة فأعجبه جداً، فلطّف من جوده وقال له بابتسامة لطيفة:

– إن لك يا سيدي طريقة في تقديم نفسك للناس والكلام معهم هي من الظرف واللطف بحيث لا يمكن لي أن أرفض طلبك. وإذا كان ما تريده في إمكاني فانني أجيبك إليه بملء السرور.

فقال راكستان وهو ينحني:

– إنك تخجلني يا سيدي. ومن جهة ثانية فان ما أطلبه تستطيع أن تجيبني إليه دون عناء، إذ أنني لا أطلب إلا أن تشرّفني بمرافقتك إياي الى ذلك البيت الذي تراه في زاوية الشارع...

– لعلّك تريد أن نشرب معاً بعض الزجاجات، أليس كذلك؟

فقال راكستان بأسف ظاهر: كلا يا سيدي، بل لأضعك وجهاً لوجه أمام نبيل تركته هناك وهو يتحرّق شوقاً لمبارزتك..

فقاطعه الملك قائلاً وهو يرفع قامته:

– لا شك في أنك أحمق يا سيدي!

وفي تلك اللحظة ظهر نبيل يرتدي زياً بسيطاً كأنما الأرض قد انشقّت عنه وتقدّم يقف قرب الملك في وضع ذي معنى خاص. وكان هذا هو لوان رئيس فرقة الخمسة والأربعين فعرفه الفارس فوراً، كما أن وضعه المهدّد لم يخفَ عليه ولكنه تظاهر بأنه لم يلاحظ شيئاً وتابع يقول للملك:

– وقد جئت لأسألك إذا كنت تتفضل بقبول دعوتي وتأتي معي لمبارزته.

فالتفت هنري الثالث الى لوان وهو يبتسم ابتسامة حادة ثم عاد الى راكستان وقال له:

– من المؤكد أيها السيد أنك إما أحمق وإما ممازح سمج.

وكان دي لوان قد أخرج خنجره من غمده وأخذ يلعب به بلا مبالاة، ثم تدخل وقال وهو يبتسم:

– إن الحمقى يُعالجون ولكن الممازحين السمجين...

فقاطعه راكستان قائلاً بلهجة جافة:

– إنني لا أوجّه إليك الكلام يا سيدي دي لوان بل أتشرف بالكلام مع حضرة السيد.

وقد سمّى الفارس دي لوان باسمه ليُفهم الملك أنه عرفه رغم تنكّره، ففهم هنري، كما تأكّد للحال من أن الأمر ليس

مزاحاً سمجاً بل إنه جدّي تماماً ويجب أن يُوضّح دون تأخير .

فأشار الى دي لوان يأمره بالصمت ، وقال لراكستان :

– أعذرني أيها السيد ولكنني لا أستطيع الاعتقاد بأنك تتكلم جدّياً .

لقد كلّفني منذ هنيهة وفي البيت الذي دللتك عليه ، شخص بأن أتحداك وأقتلك .

فقال الملك بكل هدوء ؟ إذن لقد عرضوا عليك أن تقتلني مقابل مكافأة محترمة ، أليس كذلك ؟

– هو هذا .

– وكيف ؟

– بالسيف أو الخنجر .

فقال الملك باشمئزاز : جريمة قتل !

فقال راكستان بلهجته المطمئنة : لقد كان هذا هو جوابي . وبعدئذ سألت ذلك الشخص عن سبب عدم قيامه بتلك المهمة بنفسه ، ولما لم يقنعني جوابه فقد أتيت لآخذك إليه .

فقال الملك بجفاء : حسناً ، هيا بنا .

فابتسم راكستان وقال: لا فائدة الآن ياسيدي لأن العصفور قد طار .

فقال هنري متعجباً : وكيف ذلك ؟

فأوضح راكستان قائلاً : إن للبيت مدخلاً آخر من شارع أوبري لوبوشيه ، وبينما كنا نتحدث سمعت صوت باب يُغلق بحذر ، وقد فرّ الرجل نفسه من ذلك الباب . وكن على يقين

من أن البيت خالٍ الآن .

ولم يكن راكستان مخطئاً في قوله لأن الدوق دي كيز الذي تركناه يراقب من ثغرة النافذة قد رأى وسمع كل شيء ، فغادر المنزل من شارع أوبري لوبوشيه وأطلق ساقيه للريح .

أما الملك فإنه قال لراكستان بلهجة اللائم : ولماذا لم تنبهني؟

فأجاب راكستان قائلاً بلهجة باردة : لقد جئت يا سيدي لأعلمك بأن عدواً يتآمر على حياتك ، وأعتقد أنني فعلت ذلك بطريقة جديرة بنبيل مخلص. أما أن أشي بالرجل أو أسلمك إياه فان ذلك بعيد جداً لأنني لست واشياً أو ممونّاً للجلاد .

قال الفارس ذلك وهو ينتصب بكبرياء وقد أشرق وجهه بنور الشجاعة التي لا مثيل لها ، فلم يسع الملك إلا أن يُعجب به إعجاباً شديداً ويقول له بكل بساطة :

– أعذرني يا سيدي .

فقال راكستان ببساطة تضاهي بساطته : إنني لست حاقداً عليك .

ففكّر الملك لحظةً ثم قال فجأة: إنك تعرف من أنا ، أليس كذلك ؟

فانحنى راكستان بلطفه الفخور الذي لا يجاريه فيه أحد وقال : أعرف أنني أنال الشرف العظيم بالتحدّث مع الملك !

فوضع الملك عندئذ قبّعته على رأسه وقال : ما أسمع ؟

– هوبير ، الشيفالييه دي راكستان يا مولاي .

فقال الملك ممتدحاً : إنه اسم ذو قيمة كبيرة ، ولكنها مع

ذلك لا تضاهي قيمة الذي يحمل هذا الاسم .

فانحنى راكستان وهو يسمع هذا المديح بينما تابع الملك يقول وهو يبتسم بعطف :

– لقد أدّيت لي أيها الفارس دي راكستان خدمة لن أنساها أبداً .

ثم استدار نحو دي لوان الذي كان يسمع الحديث صامتاً وقال له :

– إن هذا الشاب يعجبني جداً ، فقل لي يا لوان ماذا نستطيع أن نفعل لأجله ؟

فأجاب لوان قائلاً : خذه في فرقة الخمسة والأربعين ، وعلى ما أراه من ظواهره فسوف يكون له شأن وأي شأن في تلك الفرقة .

ثم قال لراكستان : ما قولك في هذا أيها الفارس ؟

فأجاب قائلاً : يا لشقائي وسوء حظي ، فأنا لا أستطيع الانضمام الى تلك الفرقة اللامعة .

فقال لوان متعجباً : لماذا ؟

– لأنها لن تبقى عندئذ فرقة الخمسة والأربعين .

– سوف تصبح فرقة الستة والأربعين .

– تماماً ، ولكن الستة والأربعين يا سيدي غير الخمسة والأربعين . وقد كانت غايتي أن أشكل عضواً من الخمسة والأربعين ، ولكن إذا أصبح الخمسة والأربعون ستة وأربعين لا يبقى لي مجال للانضمام إليها ، فاعذرني يا سيدي .

ورغم أن لوان فهم أخيراً أن راكستان يهزأ به ، فقد كان يريد أن يتابع إلحاحه ليرضي الملك ، وعندما يصبح الفارس تحت إمرته يكون لكل حادث حديث . ولكن الملك قال له وهو يضحك :

– كفى يا لوان ، كفى .

وقال لراكستان: وإذا ألحقتك بي شخصياً ، فهل ترفض أيضاً؟

فأجاب الفارس بصراحته وجرأته المعهودتين قائلاً :

– نعم ، إني أرفض أيضاً الشرف الكبير فأنا أعتقد أنني سوف أكون أكثر فائدة لك وأنا بعيد ، مني وأنا قريب .

وكانت صراحة الشيفالييه وجرأته وتصريحاته تنال إعجاب الملك ورضاه أكثر فأكثر ، وخاصة تصرفه الأخير فانه أثّر فيه تأثيراً كبيراً ، فقال له بلطف متناهٍ .

– أريد أن أسهّل لك مهمتك ، ولذلك ففي أي بيت أو قصر خاضعين لسلطة الملك ليس لك إلا أن تلفظ اسمك ، راكستان ، فتُفتح أمامك جميع الأبواب . فاذهب الآن يا سيدي... ولكن مهلاً خذ هذا تعويضاً عن الخسارة التي لحقتك من جراء رفضك أن تقتلني.

وكان « هذا » كيساً حريرياً يحمل اسم الملك وشعاراته مطرّزة بالذهب وهو مملوء بالقطع الذهبية . فأخذ راكستان الكيس وأفرغه فوراً ثم انحنى أمام الملك قائلاً :

– إنني أحتفظ بالكيس تذكاراً على العطف السامي الذي أراد الملك أن يشرّف به نبيلاً فقيراً مثلي . أما الذهب فإني لا

أستحقه ولكن بما أن الملك لا يسترجع ما وهبه فاسمح لي يا مولاي أن أفرّقه على هؤلاء الشياطين المساكين الذين أراهم هناك .

ثم التفت الى السابلة والفضوليين والفقراء المجتمعين في الشارع وناداهم قائلاً :

– هؤلا ! خذوا من قِبَل هذا السيد النبيل الذي يريد أن يسمعكم تهتفون : « ليحيَ الملك . »

ونثر عليهم الذهب فأسرعوا يلتقطونه ويهتفون بملء حناجرهم: « ليحيَ الملك . »

وكان ميلورد جندارم ومارسكين قد خرجا من الحفرة حيث كانا مختبئين . وبعد ذهاب الملك رآهما راكستان الى جانبه وكانا يبتسمان ابتسامتين عريضتين . وقال مارسكين مستعلماً : ونحن يا سيدي أين حصتنا ؟

فقال راكستان ضاحكاً: سننال نحن حصتنا في المرة القادمة.

فتبادل المسكينان نظرات تبعث على الرثاء. ثم أطلقا تنهدتين تذيبان الصوّان وسارا وراء سيدهما .

نهوض الملك من النوم

★

وفي صباح اليوم التالي ، في قصر اللوفر ، فتح خادم غرفة الملك ، السيد دي هالد – بيار دي سورهويت دي هالد ، بارون دي لونغ فيه ، سيد دار مينفييه ، ضابط ورئيس وحاكم مدينة

وقلعة إيتابل – باب غرفة مولاه على مصراعيه ، ثم فتح النوافذ فتدفّق النور الى داخل الغرفة .

وكان يقف على أقدام سرير الملك خدم الغرفة العاديون ، مساعدو دي هالد ، وهم منتصبون يخيم عليهم الصمت والخشوع.

وعلى أثر إشارة من دي هالد أزاح أحد هؤلاء الخدم ستائر السرير فخرج الملك من بين الشراشف الناصعة البياض المزيّنة بالتطريز الدقيق الثمين وجلس في الفراش فوضع خادم على كتفيه معطفاً صغيراً من الساتان الأبيض المبطّن بالحرير ، ونزع ثانٍ عن وجهه قناعاً ناعماً مكسواً من الداخل بطبقة من المساحيق المعطّرة كان يضمّ جميع أجزاء الوجه التي تكسوها اللحية ، وخلّصه ثالث من القفازين المعطّرين اللذين قضى الليل وهو يلبسهما .

وعندئذٍ أدار الملك وجهه صوب الحاضرين وقال في كثير من المرح : صباح الخير أيها السادة ، صباح الخير .

وجاء خادم رابع يحمل منشفة مبلّلة قدّمها للملك فغسل هذا بها أطراف أصابعه ، ثم اقترب آخر وهو يحمل طاسة من الذهب الخالص ، على صينية من الذهب أيضاً تحوي شراب الصباح.

ولكن الخادم لم يقدّمها بل لبث واقفاً ينتظر ، فألقى الملك نظرة الى ما حوله فتهافت الجميع صوبه وكل منهم يحاول أن يظفر بلفتة منه أو كلمة ولكنه نادى قائلاً :

– لوان !

فتقدّم لوان مغتبطاً وهو ينحني انحناءات متواصلة وقد

انصبّت عليه ، وهو سائر ، نظرات الحسد والحقد من أولئك الذين يتمنون أن يكونوا في مثل موقفه ، فأخذ الصينية الذهبية من يدَي الخادم وطوى ركبته وانحنى وقدّم الطاسة الى الملك ، فأخذها هذا وشكره بابتسامة زادت من نقمة الحاضرين عليه...

وبينما كان الملك يتجرّع شرابه ببطء وهدوء دخل غاسبار بنياكل الى الغرفة الملكية ، فتوقّف الملك عن الشرب وقال له بابتسامة عطف : أنا سعيد برؤيتك يا سيد بنياكل .

فانحنى بنياكل بتحية ممتازة وقال باحترام : هل نمت جيداً يا مولاي ؟

– نمت نوم الملوك !

وقد ضحك هنري وهو يقول ذلك فانفجر الحاضرون يشاركونه الضحك ... وعاد بنياكل يقول :

– لقد سبق أن قلت لجلالة مولاي أنكم ستنامون نوماً هادئاً.

فقال الملك : وذلك بفضل الشراب الذي أعطيتني إياه .

وكان قد انتهى من شرابه فاقترب خادم آخر يحمل صحناً ذهبياً صُفّت فيه شرائح اللحم الطريء الشهي ، فقال الملك : ناولني الصحن يا بنياكل .

فبعد أن تناول الصحن دعا بنياكل قائلاً له بكل لطف :

– تعال الى قربي لنتحدّث قليلاً كما يتحدّث الأصدقاء مثلنا.

فدار بنياكل حول السرير وهو لا يلقي بالاً الى ابتسامات الحاضرين وانحناءاتهم له بعد الذي ناله من عطف الملك ، تماماً كما فعل عندما استقبلوا دخوله الى الغرفة ببرودة جليدية . ولما أصبح

قرب الملك أدار هذا ظهره للجمهور ليواجهه ثم مدّ اليه الصحن وهو يقول :

– كلْ معي من هذا اللحم اللذيذ يا سيد بنياكل .

وبينما كان بنياكل ينحني ليأخذ بعض اللحم من الصحن، قال له الملك بصوت خفيض :

– هل رأيت ما يريب ؟

– أبداً يا مولاي ، وآمل أن تظلّ الأمور دائماً هكذا .

– لنأمل ذلك . وفي جميع الأحوال أنا أكثر اطمئناناً منذ أن بدأت تسهر عليّ وقد زالت من نفسي عقدة المآكل فأصبحت آكل وأشرب بكل اطمئنان كما يفعل جميع الناس ، فضلاً عن أنني بتّ أنام جيداً في هذه الأيام وهو ما لم أكن أستطيعه في الماضي ، وكل ذلك بفضلك .

فاستعلم بنياكل قائلاً : إذن فجلالة الملك مسرور من الشراب الذي أعطيه إياه ؟

– تماماً ، ولا آسف إلا على شيء واحد وهو إنني لم أحصل عليه من قبل .

وكان هنري الثالث يريد أن يظهر له امتنانه فأضاف قائلاً : أعتقد أنني لاحظت انهم ينفرون منك هنا !

فقال بنياكل في مرارة : إن ذلك بسبب قناعي، ولقد كنت تعساً في بادىء الامر أما الآن فإنني لم أعد ألقي إليهم بالاً .

– نعم ، ولكنني أريد أنا أن تعامل في قصري بالإكرام والاحترام اللذين تستحقهما .

– أشكرك من كل قلبي يا مولاي ، ولكنني أعامَل حسب استحقاقي وليس لي أن أتذمّر من أحد .

وقد قال بنياكل ذلك بلهجة لا غبار عليها في الظاهر، ولكن لو كانت لهنري الثالث أذن دقيقة حساسة للاحظ أن في تلك اللهجة حقداً مكتوماً طغى على نبرات صوته رغماً عنه ، ولكن الملك لم يشعر بشيء من ذلك . ولما رأى أن ما أظهره من التقدير الخاص لذي القناع الأحمر يكفيه للظفر باحترام رجال البلاط ، ختم تلك المقابلة الخاصة بكلمة لطيفة . وبينما كان بنياكل يدور حول السرير ليخرج ، قال له بصوت مرتفع :

– لا تترك الغرفة يا بنياكل .

وأشار بيده فرُفع صحن اللحم ، وبعد ذلك أحضر له خادم منشفة أخرى مبلّلة فغسل بها مجدّداً أطراف أصابعه .

وفي تلك اللحظة دخل قائد الدرك الى الغرفة فسأله الملك فوراً وقال : ما وراءك يا سيد دي نانتوييه ؟

– لقد أمرت بتفتيش البيت الذي أشرت إليه أمس يا مولاي فلم أجد فيه أحداً. وقد تحرّيت عن مالكه فعلمت أنه مات منذ ثلاثة أشهر، وقد اختلف ورثته بشأن ذلك البيت ولا يُعرف الى الآن من الذي يملكه .

وسكت لحظة ثم أردف قائلاً : أتريد يا مولاي أن أتابع التحقيق ؟

وكان هنري الثالث لا يريد أن يعلم أحد الأسباب الحقيقة التي أوجبت عليه أن يأمر بذلك التحقيق كما أنه أمر لوان ألا

يتكلم مع أي كان بما سمعه من الشيفالييه دي راكستان ، فقال في نفسه :

– « أنا أشتبه في مصدر تلك الضربة ، ولكن العدوّ قد اتّخذ كل الاحتياطات اللازمة فلن أتأكّد من شيء . »

ثم قال بصوت مرتفع : لا فائدة يا حضرة القائد فإن الأمر لا يستحق العناء .

ذات الياقوتة الدموية وذو القناع الأحمر

*

لندع الملك يتابع نهوضه من النوم ونتبع غاسبار بنياكل الذي غادر الغرفة الملكية .

كانت مظاهر الصداقة التي أبداها الملك تجاه بنياكل قد أثّرت تأثيراً كبيراً في نفوس الحاضرين مما جعل خروج الرجل من غرفة جلالته لا يشبه في شيء دخوله إليها، إذ أن الابتسامات والتحيات والتهانيء كانت تنهال عليه من كل جانب .

ولكن لم يكن يبالي بشيء كما قلنا فخرج قاصداً مختبره حيث انكب على العمل باهتمام أنساه كل شيء حتى نفسه ، فإنه لم يفكّر في الأكل أو في أخذ بعض الراحة طيلة ست ساعات قضاها في عمل سرّي متواصل . وبعد أن درس وحلّل كميات كبيرة من السوائل المختلفة الألوان ، توصّل الى الحصول على زجاجة صغيرة الحجم جداً تحتوي سائلاً شفافاً كأنه الماء الزلال.

وقد لبث مدة طويلة يتأمل تلك الزجاجة وهو مفكّر ساهم ، وكانت علائم الرضى والارتياح تبدو على وجهه بعد أن أكمل عمله الدقيق المحفوف بالصعوبات على خير وجه .

وقد نهض عندئذ فوضع الزجاجة في صندوق صغير أقفله بعناية ثم وضع الصندوق في خزانة حديدية متينة أقفلها أيضاً ووضع المفتاحين في جيبه وهو يغمغم قائلاً :

– إذا أتى الأمر الآن فأنا على تمام الاستعداد ... فلنأكل قليلاً .

وحوالى المساء أحضر أحدهم إليه ورقة مطوية وكانت مماثلة تقريباً للورقة التي تلقاها مرةً في الظروف نفسها ، وقد ارتجف رغم ثقته بنفسه عندما رأى تلك الورقة وغمغم قائلاً :

– ها هو الأمر المنتظر وهو يدلّ على أنها تعلم أنني على استعداد !

وفي المساء نفسه ذهب الى قصر الدوق دي سوريانتس حيث دخل غرفة منارة بسراج ضئيل وإذا هو في حضرة المرأة الغامضة المجهولة التي حاول عبثاً أن يعرف شخصيتها والتي لم يستطع أن يقول ما إذا كانت هي هرموزا أو جوسلين. وكانت كعادتها دائماً، ملتفة بمعطف فضفاض رمادي اللون وقد اعتمرت بالقلنسوة ، وكان في إصبعها الخاتم الذهبي البسيط ذو الياقوتة الكبيرة السداسية الشكل ، وقد قالت له بلهجتها الهادئة الرهيبة وصوتها الذي هو صوت جوسلين أو صوت هرموزا :

– هل أنت على استعداد؟

– لقد أنهيت العمل اليوم يا سيدتي .

– وهل أحضرت معك ذلك السمّ ؟

– ها هو .

فأخذت الزجاجة التي مدها لها وقالت متعجبة :

– هذه الزجاجة الصغيرة ؟!

فقال وهو ينتصب بكبرياء :

– إن هذه الزجاجة الصغيرة التي تحتقرينها على ما يبدو، وهي نتيجة سنوات طويلة من العمل المتواصل والأبحاث الدقيقة والتجارب الخطرة، إنها تحفة التحف وأعجوبة الأعاجيب. وإذا أعطيتها لأي كيمائي ، بالغاً ما بلغ من الخبرة ، ليحللها ، فلن يجد فيها سوى الماء النقي الذي لا يميّزه أي طعم خاص ، ومع ذلك فلن يستطيع أحد أن ينقذ من الموت من يبتلع محتويات هذه الزجاجة .

فقالت بالهدوء الرهيب نفسه :

– وهل يطول الأمر؟

– ثلاثة أشهر تقريباً . نعم يا سيدتي ، لن يلزم أكثر من ثلاثة أشهر للقضاء على الملك . ولا تظني أنه سوف يموت من جراء مرض غريب مشبوه مما قد يثير الشكوك ، بل يكون ذلك في مساء أو صباح يوم حارّ أو بارد عندما يقع الملك فريسة لحمّى خبيثة . أتسمعين يا سيدتي ؟ حمّى خبيثة ! وعندئذ لن يكون مجال لأي شك إذ أن جميع الأطباء يعرفون جيداً أعراض تلك الحمّى ويموت الملك ضمن المدة الطبيعية دون أن يستطيع أحد

إنقاذه . ومن هنا ترين أن هذا السمّ هو تحفة رائعة .

فوافقت بإشارة من رأسها ووعدت قائلة :

– سوف تتعدّى مكافأتك كل ما وعدتك به .

فرأى الفرصة ملائمة لطرق الموضوع الذي يشغله فأخذ الزجاجة التي مدّتها له وقال :

– أعلم جيداً يا سيدتي أنك تكافئين دائماً بأكثر مما وعدت به ولكن ...

فقاطعته بلهجة ساخرة :

– ولكنك تتساءل عن الفائدة التي ستجنيها فيما إذا خدمتني الى النهاية . لقد طفح صندوقك بالذهب وبتّ تتوق الآن الى النفوذ ، والملك يستطيع أن يمنحك إياه أما أنا ، فلا . هذا ما تريد قوله ، أليس كذلك ؟

فتعجّب بنياكل من قوة فراستها وقال بصوت مرتجف :

– إنك ترين ما في نفسي كمن يقرأ في كتاب مفتوح .

فهزّت كتفيها باحتقار وقالت بصوت قاطع :

– إنك مخطىء ، فأنا أستطيع أن أمنحك ما تتمناه من ألقاب الشرف والنفوذ حتى أنني أستطيع أن أجعل منك وزير فرنسا الأول وهو ما لن يفعله هنري الثالث مهما أحسنت به الظن .

فزمجر بنياكل قائلاً بانفعال :

– ماذا ؟ الى أين سيبلغ سلطانك إذن ؟ وبماذا تطمعين ؟

فانتصبت بعظمة متناهية وأعلنت قائلة :

– أريد أن أكون ملكة فرنسا ، وهل تعتقد عندئذ أن

الملكة التي تدين لك بتاجها تستطيع أن تنساك أو ترفض لك طلباً؟ أما شروطي فهي: إجعلني ملكة فأجعلك وزيري الأول.

– تصرّفي بي كما لو كنت ملكك . يا لله ! أنا غاسبار بنياكل وزير فرنسا الأول ؟! وهل هذا ممكن ؟!

– إن تحقيق ذلك مرهون بك .

– ولكن بما أنك تريدين تسميم الملك فكيف تصبحين ملكة فرنسا ؟

– أتزوّج من الدوق دي كيز الذي سيصبح الملك عندما يموت هنري دي فالوا .

فتأمّلها بنياكل لحظةً بإعجاب شديد ثم طوى ركبته أمامها وقال بكل خضوع :

– لتتنازل جلالتك وتعطي أوامرها لخادمها ووزيرها الأمين.

فبرقت عينا ذات الياقوتة بريقاً حاداً وكان هذا كل ما ظهر منها أمام ما سمعته من مناداتها بلقب الجلالة لأول مرة .

وأعطت الأوامر التي يلتمسها ذو القناع الأحمر بهمس لا يكاد يُسمع .

الرسالة المغفلة

*

وكانت الدوقة دي كيز لا تكاد تفترق في تلك الأيام عن الدوقة دي سوريانتس وشقيقتها هرموزا . وكانت الصديقات

الثلاث يجتمعن كل يوم إما في قصر دي كيز وإما في قصر سوربانتس .

وفي غد اليوم الذي أعطت فيه ملكة فرنسا المقبلة أوامرها السرية لوزيرها الأول المقبل ... كانت هرموزا وجوسلين في جناح الدوقة دي كيز عندما أعلن عن قدوم الكونت دي سان ميغرين .

وفي ذلك الوقت كان الدوق دي كيز وحده في قاعته وقد جلس أمام مكتبه المكتظّ بالأوراق والتقارير المختلفة ، ولم يكن قد عاد الى نفسه من تأثير هزيمة أول أمس ولكنه احتفظ بتلك الهزيمة لنفسه فلم يطلع عليها أحداً . وليس معنى ذلك أنه يريد أن ينسى فإنه لم يكن من الرجال الذين ينسون ويصفحون عن مثل التحقير الذي تعرّض له . وكان حقده يتزايد على راكستان أكثر فأكثر ، ولكنه لم يتردّد في إعطاء الأوامر بشأنه حتى ذلك الوقت إلا ليتدبّر طريقة هائلة للانتقام من راكستان تذهب مثلاً في المملكة كلها .

وقد جلس أمام مكتبه يقلّب مختلف الأوراق بحركة آلية دون أن يراها ، وكان كل تفكيره في تلك اللحظة منحصراً في إعداد خطّة الانتقام من راكستان .

أما جوسلين وهرموزا فإنهما ، على عادتهما دائماً ، لم تطيلا جلوسهما في جناح الدوقة بعد وصول سان ميغرين إلا بقدر ما يلائم مصطلحات اللياقة ، ثم انسحبتا تاركتين المجال أمام الخليلين.

ولم تكد عربتها تجتاز الباب الخارجي للقصر حتى أحضر

أحدهم رسالة مغفلة الى الدوق دي كيز وطلب إليه أن يقرأها فوراً . ففضّ الدوق الرسالة وما كادت عيناه تصافحان سطورها الأولى حتى نسي راكستان وانتقامه . وعندما انتهى من قراءتها هبّ واقفاً بسرعة وعنف حتى أن المقعد الذي كان يجلس عليه تدحرج بضع خطوات الى الوراء . وكان محتقن الوجه محمرّ العينين وقد عصف به غضب عنيف مفاجيء جعل يهتزّ على أثره كأنه أصيب بالبرداء فزأر قائلاً :

– يا للشيطان !

وبدأ يفرك عينيه كمن يظنّ أنه لم يرَ جيداً . وعاد يأخذ الورقة بيد ترتعش غضباً ويقرأها مجدّداً ، ولكن السطور كانت واضحة تماماً وكان مضمون الرسالة ما يلي :

« إن من يحرص على أن لا يكون زوجاً مخدوعاً ، يَجْمُلُ به دائماً أن يراقب امرأته إذا كانت شابة جميلة خفيفة . إن الدوق دي كيز يفعل حسناً إذا ذهب فوراً الى جناح الدوقة واتّخذ احتياطاته ليرى ويسمع دون أن يشعر به أحد ، وعندئذ سوف يطّلع على الطريقة التي تستعمل بها زوجته وقتها مع السيد دي سان ميغرين ! »

فأسرع الدوق والغضب يعميه الى جناح الدوقة وكان يسير كالسيل الجارف وقد انقلبت ملامحه وتقلّصت عضلات وجهه فبدا كأنه صورة حية للجريمة .

وقد أرعب منظره الذين التقاهم في طريقه الى حد أنهم كانوا يلتصقون بالجدران ليفسحوا له في المجال للمرور .

ووصل على تلك الصورة الى جناح امرأته التي لم يكن يحبها كثيراً، ودخل قاعتها كأنه العاصفة التي ستجتاح كل ما في طريقها.

وكانت الدوقة بعد ذهاب الشقيقتين جوسلين وهرموزا قد جلست في مقعد بينما ركع سان ميغرين على قدميها وقد أعطته يديها فأخذ يقبّلها على التوالي قبلات قصيرة لطيفة كانت تدوّخ رأس العاشقة الطائشة فتقول له بصوت يخنقه التأثر :

– هل تستطيع بعد الآن أن تقول إنني لا أحبك وإنني لست مجنونة بك يا سيدي الولهان ؟

وفي تلك اللحظة بالذات وصل الدوق أمام باب القاعة وكان قد تمالك نفسه فبدا رهيباً في هدوئه أكثر منه في غضبه . ففتح الباب دون ضجة ولكنه وصل متأخراً قليلاً فلم يسمع كلام الدوقة الذي يطّلع منه على الحقيقة حسب قول الواشي المجهول. ولكنه رأى سان ميغرين يدفن رأسه بين ركبتي امرأته تارة ويقبّل يدها طوراً ، ورأى الدوقة تدعه يفعل ذلك باستسلام لطيف جذّاب .

وقد فقد الدوق صوابه من هول الصدمة فانتضى خنجره وتحفّز للوثوب والضرب ، ولكنه لبث مسمّراً في مكانه بين الباب المفتوح الذي يفصله عن القاعة .

وفي تلك اللحظة بالذات ، أي عندما أوشكت الصاعقة أن تنقضّ على الخليلين وتحطّمهما ، تحرّك ستار الباب بحركة خفيفة كأنما عبثت به نسمة رقيقة . وكان ذلك إشارة للدوقة العاشقة التي يظهر أنها اتخذت احتياطاتها سلفاً، عند حصول خطر داهم،

لتجابه هذا الخطر وتتّقي ما ينجم عنه .

ولم تكن الدوقة شجاعة ولكنها كانت تحب سان ميغرين فاستمدّت من ذلك الحب ما كانت تفتقر إليه بطبعها فلم تتغيّر من ملامحها ولا من وضعها ولم تكفّ عن الابتسام وقد تابعت حديثها فرفعت صوتها وقالت :

– نعم يا سيدي أعيد عليك أنني لا أرى أي مانع في زواجك من الآنسة دور بيريف ... وعندما أرى مولاي الدوق سوف أنقل إليه طلبك بسرور وأساعدك بكل قواي .

ثم أردفت تقول ضاحكة :

– فانهض الآن ياسيدي الكونت وإلا فان الآنسة دور بيريف لن تتردّد في قلع عيني إذا فاجأتك في هذا الوضع .

ومن المفروض أنهما كانا متفقَين سلفاً على تلك الأقوال لأن العاشق لم يُبدِ أية دهشة بل لعب دوره بالهدوء نفسه الذي لعبت به هي دورها . ومن جهة ثانية فان دور الكونت كان أسهل من دور الدوقة ، لأنه كان يدير ظهره الى دي كيز ، فرفع رأسه بسرعة واعتذر قائلاً :

– إنك بالغة الكرم والعطف يا سيدتي لأنك أشفقت على عاشق تعس وأفعمتِ قلبه سعادة . فتنازلي واعذري ما بدر مني لأن الحب أفقدني الاتزان والروية .

فقالت ضاحكة :

– لا تزعج نفسك بالاعتذار فأنا أعلم جيداً أن القبلة الحارة التي طبعتَها على يدي كانت موجهة الى امرأة أخرى ...

وكان هذا ما سمعه دي كيز فأوقفه عندما كان يهم بالانقضاض والخنجر في يده . ونحن لا نجرؤ على الجزم بأن الخدعة قد انطلت عليه ، فان دي كيز ليس مغفلاً الى هذا الحد ، ومن المرجّح أنه فكّر في أنهما يمثّلان ولكنه لم يجرؤ على قتل اثنين لمجرد الظن فقط وقد أراد أن يتأكد تماماً ، فدخل القاعة .

طلب الزواج

*

ولم تكن الدوقة تتوقع أن يكون القادم هو زوجها فشحب وجهها شحوباً خفيفاً عندما رأته يتقدم متجهّم الوجه مقطّب الحاجبين متقلّص الشفتين مشتعل العينين ، ولكنها لبثت مع ذلك متمالكة نفسها فقالت وهي تبتسم :

— أقسم أن الحظ يخدم دائماً العشاق يا سيدي الكونت ، فهوذا مولاي الدوق ، وسنعالج قضيتك فوراً .

فتظاهر سان ميغرين بالارتباك وقال بتوسل :

— رحمة بي يا سيدتي ولا تنسي أن مصيري بين يديك الجميلتين.

فقال الدوق بلهجة مقتضبة :

— ما الخبر ؟

فاستدارت الدوقة نحو سان ميغرين كأنها تدعوه الى الكلام، وكان هذا يخشى أن يرتكب خطأ ، فأشار كأنما يدعوها لتتكلم بنفسها ، فقال الدوق بفراغ صبر :

— ما معنى هذه التمثيلية ؟

وقد رأت الدوقة أنه لا بد لها من الكلام فاستجمعت شجاعتها وقالت :

— مولاي ، إن الكونت دي سان ميغرين قد اعترف لي بأنه يحب الآنسة دور بيريف حباً مبرّحاً . ولا شك في أن الأمر كذلك إذ أنه يدّعي أن أعزّ أمنية لديه هي أن يتزوجها . وقد وعدته بأن أنقل إليك طلبه وأساعده على تحقيق رغبته بإمكاناتي الضعيفة .

فقال الدوق بلهجة ساخرة :

— ماذا ؟ ! أتريد أن تتزوج يا سان ميغرين ؟ أنت الذي يدعونك بسان ميغرين الجميل ، تريد أن تتزوج ؟ !

— ماذا تريد يا مولاي أن أفعل بعد أن غزا الحب قلبي ؟

— يقولون إن الشيطان يصبح ناسكاً عندما يشيخ ، ولكنك أنت لا تزال شاباً في الثلاثين من العمر فلماذا العجلة ؟

— ما دام لا مفرّ من الزواج فلا فرق بين التعجيل والتأجيل.

— إذن فالأمر جدّي ؟

— تماماً يا مولاي .

— أتريد أن تتزوج من الآنسة دور بيريف ؟

— لقد قالت لك سيدتي الدوقة إن ذلك أعزّ أمنية لدي .

— إنه في الحقيقة قرار سوف يستدرّ الدمع من أكثر من عين جميلة .

وقد قال الدوق هذا وتطلّع في عيني الدوقة ... ثم سألها

قائلاً دون اكتراث :

– ماذا تقولين يا سيدتي ؟

فشعرت الدوقة بالاضطراب فأجابت قائلة :

– لقد قلت للسيد دي سان ميغرين كل ما تستطيع أن تقوله له أنت، فانني قلت له إن من كان في مثل مكانته يستطيع مصاهرة أعظم العائلات شأناً ، فأجابني بأنه يحب الآنسة دور بيريف ويريد أن يتخذها زوجة .

فقال سان ميغرين يدعم كلام الدوقة :

– نعم يا سيدتي ، إنني أحبها ولا أريد لي زوجة سواها .

فقالت الدوقة :

– من المفروض أن تكون الآنسة دور بيريف ابنة بيت كبير رغم أنها لا تعرف لنفسها اسماً ولا عائلة .

وكان الدوق إلى تلك اللحظة قد تركها تتكلم دون أن يقول شيئاً ، ولكنه كان يفكّر قائلاً في نفسه :

– « لا شك في أنه يوجد ما يريب تحت ستار هذه الظواهر، وأقسم أن سان ميغرين لا يحب الآنسة دور بيريف ولا يخطر في باله الزواج منها ... أما الدوقة ... »

وقال لها فجأة :

– أتعلمين يا سيدتي أنه لا يبدو عليك أنك تريدين حقاً أن يتمّ هذا الزواج ؟

ولم يخطىء الدوق في كلامه لأن الدوقة كانت تتكلم كأنما تريد أن يرفض الدوق ملتمساً . فشحب وجهها على أثر تلك

الملاحظة ولكنها أجابت مع ذلك قائلة بعناد :

– رباه! وهل أبدو كذلك ؟ وماذا تظنّ الأمر بالنسبة إليّ؟ لقد أعدت عليك الكلام الذي قلته لسان ميغرين لأظهر لك أن ما سوف تقوله له في هذا الموضوع لن يؤدي الى نتيجة .

فتدخل سان ميغرين في دوره وقال :

– إنه لن يؤدي الى شيء يا سيدتي.

وسكت لحظة ثم أردف يقول بحماس :

– إن الآنسة دور بيريف فقيرة لا لقب لها سوى الذي تكرّمت به عليها سيدتي الدوقة ، ولكن لها من شبابها وجمالها ما يكفي في نظري ، وسوف أمنحها كل ما تفتقر إليه إذا تفضّلت يا مولاي وشرفتني بموافقتك على طلبي .

وقد خُدع الدوق بذلك الإخلاص الظاهريّ وكان يكره سان ميغرين كرهاً شديداً فقال في نفسه :

– «هل يحب حقاً الآنسة دور بيريف؟ يا الشيطان ! لشدّ ما أريد أن أكون واثقاً من ذلك ...»

وبدأ يراوغ بدوره ليتوصل الى ما يريده فقال ببطء مدروس :

– إذن فأنت تطلب مني يد الآنسة دور بيريف ؟

– أتشرف بذلك يا مولاي .

– وإذا رفضت إجابة طلبك ؟

فلعب سان ميغرين دوره بمهارة وأجاب قائلاً :

– آه يا مولاي ! إنك تريد موتي إذن ؟

ولكن دي كيز لم يُخدع هذه المرة بظاهر الكونت وقد قوي اعتقاده بأنهما يهزآن به فقال :

– إن الأمر يتطلّب التفكير . ومن المؤكد أني لو كنت أريد سعادة الآنسة دور بيريف وحدها لأجبت فوراً بالقبول .

فقال سان ميغرين :

– إنك مثال الكرم يا مولاي ، وأنا لا أعجب أبداً من ان أراك تفكر في سعادتي أيضاً وأنت المشهور بنبل الطباع وحرية الضمير ، ولكنني أؤكد لك بأنك لن تخشى أي لوم من جهتي فيما إذا أجبت ملتمسي .

فتظاهر الدوق بأنه خُدع بكلام الكونت فلطّف من عبوسه وقال وهو يبتسم ابتسامة طيبة :

– لا شك عندي في أنك مخلص في ما تقول ، ولكنك تتصرّف هكذا لأنك تحت تأثير الغرام . وبعد مدة من الزمن ، عندما تخمد تلك النار المضطرمة بين جنبيك ولا يبقى منها سوى قبضة من رماد ، فإنك لن تتصرف عندئذ كما تفعل الآن ...

وكان الدوق يتصرّف بمهارة فائقة ليجعلهما يعتقدان أنه سيرفض الطلب وقد تمّ له ما أراد . وكان هذا هو الشرك الذي نصبه لهما ، فوقعا فيه دون حذر وفضحهما السرور الذي لاح في قسماتهما ولم يستطيعا إخفاءه ، فطفت على شفتي الدوقة الحمراوين ابتسامة خفيفة ولمعت في عيني سان ميغرين بارقة رضى . ولكن الدوق لاحظ ما طرأ عليهما فأيقن مما كان مجرّد شك حتى تلك اللحظة .

ولكنه أراد الحصول على البرهان الذي يبحث عنه فتظاهر بأنه لم يعد يلقي بالاً الى مراقبتهما وقال بلهجة لها ظاهر الطيبة :

– خذ علماً بأنني لا أقول لك لا ، ولكنني أظنّ أنه من صالحك أن لا تتعجل الأمور . فإذا كنت تريد فلننتظر بضعة أشهر ، ولنقل سنة ، لندرس القضية ملياً وتكون أنت قد تأكّدت من حقيقة عواطفك . فاذا انقضت السنة ولبثت على ما أنت عليه حيال الآنسة دور بيريف ، فعد إليّ عندئذ واطلب يدها وأقسم لك بشرفي أنني لن أرفض طلبك. ولكن إذا كنت تريد الحقيقة فأنا أراهن على أنك لن تتقدّم مجدداً بهذا الطلب .

وقد خُدعا بكلامه مرة أخرى فتنهد كل منهما تنهدة ارتياح قصيرة وكان هذا كل ما يريده الدوق ، فقال في نفسه :

– « لقد كنت على يقين ! ... »

فطرح القناع جانباً هذه المرة وعاد إليه الغضب أعنف مما كان عندما قرأ الورقة المقفلة فتقدّم من سان ميغرين ووضع يده على كتفه وقد شعر الخليلان من هيئة وجهه المتقلّص المخيف بأنه يعرف كل شيء .

وتكلم دي كيز بصوت كانت برودته الجليدية أشدّ هولاً من زئير النمر فقال :

– إسمع يا سان ميغرين ، أنت تحب الآنسة دور بيريف وتريدها زوجة لك ...

وتهدّج صوته من تأثير الغضب العاصف فسكت لحظةً وعاد يردف قائلاً :

– إنك تحبها الى حد تريد معه أن تجعلها كونتس دي سان ميغرين ، أليس كذلك ؟ أعد ما قلته فأنا أريد أن أسمعك تقول مجدّداً إنك تحبها وتريد أن تتخذها زوجة لك .

فارتجّ على سان ميغرين ، ولكنه فهم جيداً أنه يجب عليه مهما كلف الأمر أن يتابع تمثيل دور العاشق فقال بلهجة متحدية :

– أحبها وأريدها زوجة لي .

فقال دي كيز وهو يبتسم ابتسامة رهيبة :

– حسناً، حسناً، إذن فقد منحتك يدها ... أتسمع؟ ولكن على شرط ...

وعاد إليه هدوؤه فجأة فأردف يقول بلهجة جازمة :

– على شرط أن يتمّ زواجك في خلال يومين في كنيسة قصري ، وأن يعقده كاهني الخاص . وبرهاناً على إخلاصنا وحبنا لك فسوف نحضر ، الدوقة وأنا ، حفلة الزواج ونوقّع العقد .

وكانت الضربة شديدة وغير متوقعة الى حدّ أن سان ميغرين المنكود لبث كالمخبول ، فانفجر الدوق قائلاً :

– يا للجحيم ! أراك تتردّد.

ووثب على امرأته وقد رفع قبضته ولمع فيها نصل الخنجر الماضي وشاهد العشيقان لمعان النصل الرهيب فأحسّت الدوقة بدنوّ اللحظة الرهيبة فسقطت على ركبتيها ودفنت وجهها بين راحتيها وهي تطلق أنيناً متقطّعاً .

وكان الدوق يعرف جيداً ماذا يفعل . كان يعلم أنه بتهديده المرأة المحبوبة يرغم حبيبها على الخضوع لمشيئته . وقد صدق ظنه

إذ أن سان ميغرين صاح قائلاً برعب شديد :

– توقّف يا مولاي ، لقد رضيت !

فترك الدوق زوجته وأغمد خنجره قائلاً ببرودة :

– يا للعجب ! ولكنك لا تتصرّف تصرّف العاشق إذ أنك تستقبل بالوجوم ما يجب أن يملأ قلبك فرحاً .

وتابع يقول بغضب :

– إنك تعبد الآنسة دور بيريف، وأي عجب في ذلك ؟ فهي جميلة جداً وقد منحتك يدها فلماذا تظهر هذا الوجه المضطرب ؟ إنك سعيد على ما أعتقد وأريد أن يرى الجميع هذه السعادة، أتفهم يا سيدي ؟

فأظهر العاشق المنكود تضحية عظيمة وهو يقول بشجاعة ودون تردّد :

– إنني لم أتردّد يا مولاي ولكن المفاجأة السارة أضاعت صوابي هذا كل شيء .

فقال دي كيز بلهجة ساخرة :

– إنها المفاجأة السارة حقاً فاعذرني يا كونت لأنني اعتبرت دهشة الفرح تردّداً .

الخطبة

*

بعد أن قال الدوق ما قاله عاد الى وجهه ذلك اللطف

والبشاشة اللذان كانا يجعلان منه أكيس رجل في عصره ، فقرّع سان ميغرين بلطف قائلاً :

– لا تحمل كلامي على محمل اللوم يا كونت ، ولكنك لم تشكرني بعدمع العلم بأنني لم أبدِ أية صعوبة في منحك ما تتمناه.

فرأى سان ميغرين نفسه مرغماً على شكر الدوق وقال بابتسامة حادة :

– ثق يا مولاي أنني لن أنسى ما حييت هذا العطف الخاص الذي حبوتني إياه اليوم .

فابتسم دي كيز واستدار نحو الدوقة وكان يعلم أنها الآن تحت رحمته ولم يكن يريد أن يتركها قبل أن يتذوّق لذّة انتقامه ، فقال لامرأته بألطف لهجة :

– لقد عرضت يا سيدتي قضية هذا العاشق بحرارة وحماس لم أستطع معها أن أقاوم رغبتك فأرجو أن تكوني راضية .

– وكيف لا أكون راضية وقد تلطّفت فحققت جميع رغائبي بطيبة خاطر لا يسعني معها إلا أن أبدي نحوك أرقّ عواطف الشكر والامتنان ؟ فثق يا مولاي أنني سأقدّر ما فعلته تجاهي بأفضل ما أستطيعه .

فقبّل أطراف أصابعها بلطف وقال :

– إن رغباتك يا سيدتي ستكون دائماً أوامر بالنسبة إليّ .

وكان الكونت والدوقة يعتقدان أنهما انتهيا من قضيتهما مع الدوق ... ولكنه أظهر لهما أنهما مخطئان إذ أنه قرع فوراً على لوح نحاسيّ وأمر الخادم الذي لبّى النداء بقوله :

– آتوني بالآنسة دور بيريف .

وبعد لحظات دخلت ريون دور القاعة ، فقال لها الدوق فوراً وهو يبتسم :

– أيتها الآنسة ، هوذا سيادة الكونت دي سان ميغرين ابن البيت العريق وقد جاء يلتمس شرف الزواج منك .

فدهشت ريون دور لهذا النبأ غير المتوقّع ولبثت لحظة مذهولة ولكنها تمالكت نفسها بسرعة وقالت بصوتها الموسيقي العذب :

– أشكر سيادة الكونت دي سان ميغرين على الشرف العظيم الذي يريد أن يخلعه على فتاة فقيرة مثلي ، ولكن ...

وتوقفت عن الكلام مرتبكة .

فارتعش كل من الدوق والدوقة وسان ميغرين ارتعاشة سرور أمام ارتباك الفتاة إذ أن الأخيرين كانا يأملان بالنجاة فيما إذا رفضت الآنسة دور بيريف الشرف الذي يريدون منحها إياه. أما الدوق فقد سُرّ هو أيضاً لأنه كان يرى في ذلك الرفض تحقيراً جديداً لمنافسه .

ولهذين السببين المختلفين شجعت الدوقة الفتاة قائلة :

– تكلمي بصراحة ودون خشية يا جميلتي .

وشجعها الدوق بدوره قائلاً بابتسامة حادة :

– أوضحي فكرتك كلها .

فاحمرّت ريون دور قليلاً واعترفت قائلة بسذاجة :

– أنا لا أحب السيد دي سان ميغرين ولا أعرفه .

فقال الدوق متعجباً :

– وما شأن الحب في هذه القضية ؟

فصاحت الدوقة قائلة :

– لقد فهمت ... أنت تريدين أن تقولي إنك لن تتزوّجي سوى الرجل الذي تحبينه ، أليس كذلك ؟

– نعم يا سيدتي .

فهزّ الدوق كتفيه وقال :

– سوف تحبين سان ميغرين عندما يصبح زوجك . هذا كل شيء .

فقالت ريون دور :

– إن القضية مختلفة في مثل حالتي يا مولاي ، فأنا لن أتزوج سوى الرجل الذي اخترته بملء حريتي ، والسيد دي سان ميغرين ليس ذلك الرجل !

ولو كانت مقاومة الفتاة غير المتوقّعة حدثت في غير ذلك الظرف لكان الدوق غضب غضباً شديداً. ولكنه، وهو الواثق من تحطيم تلك المقاومة ، رأى في موقف الفتاة هذا فرصة أخرى لتحقير سان ميغرين الذي بدا موقفه الآن حرجاً ومضحكاً . فلم يغضب الدوق إذن بل حاول إقناع الآنسة دور بيريف بحجج كانت تحط من شأن الكونت وتزيد موقفه ذلّة فقال :

– إنك لا تعلمين ما تقولين . إن رفضك الزواج من سان ميغرين الذي تتمنى نساء فرنسا كلها أن يفزن منه بنظرة أو ابتسامة ، ليس إلا حماقة محضة . ماذا ؟ ألعلّه يوجد في المملكة

امرأة لا يؤثّر فيها سحر سان ميغرين ؟ إن هذا مستحيل ، فهيّا وقرري .

فأعادت ريون دور قولها :

– أنا لا أحب السيد دي سان ميغرين ولا ...

فقاطعها الدوق قائلاً بصوت قاس :

– كفى هذراً ؟ لقد قررت أن تتزوّجي سان ميغرين وستتزوّجينه . فاذهبي الآن أيتها الآنسة .

ولكن ريون دور لم تطع أمر الدوق بل استدارت صوب سان ميغرين وقالت له بلهجة أثّرت في الجميع .

– أيها السيد ، لقد شرفتني بطلب يدي وقلت لك إنني تأثّرت كثيراً بهذا الشرف . وقلت أيضاً بصدق وإخلاص إنني لن أتزوّج سوى الرجل الذي أحبه وإنك لست ذلك الرجل. ألا ترى من واجبك في مثل هذه الظروف أن تسحب طلبك ؟

فانحنى سان ميغرين أمامها وغمغم قائلاً :

– إصفحي أيتها الآنسة عن رجل شاء سوء حظه أن يسيطر عليه الحب .

وكان سان ميغرين يوجّه الكلام الى ريون دور ولكنه كان ينظر الى الدوقة ، وقد فهمت هذه أنه إنما يعني حبه لها، فأشرقت عيناها الكبيرتان الجميلتان . وكان سان ميغرين ينتقم من الزوج وهو يعلن عن حبه لزوجته أمامه ، ففهم دي كيز ذلك جيداً ولكنه لم يكن يستطيع أن يقول شيئاً ، فهدأ من غضبه ولبث صامتاً .

ولكن ريبون دور لم تستطع أن تفهم تلك المعميات فقالت لسان ميغرين باحتقار :

– يا لله ! لقد ظننتك رجلاً شريفاً .

وأدارت له ظهرها وحيت وخرجت رافعة رأسها وقد تركتهم كلهم فريسة للدهشة والإعجاب، فجاء كلام الدوق تعبيراً عن شعور كل من الثلاثة عندما قال :

– إننا لا نعلم من هي هذه الفتاة على وجه التأكيد ، ولكنها سوف تكون دون شك أعظم كونتيس عرفتها .

ثم التفت الى سان ميغرين وكأنما تذكر أمراً فقال :

– تعال يا كونت ، لقد أحضروا لي جوادين ويسرني أن أعرف رأي خيال مثلك فيهما .

والتفت الى الدوقة قائلاً :

– لدينا الليلة حفلة ساهرة ويسرني يا سيدتي أن أراك في تلك الحفلة التي ستبدو دون شك كئيبة مملة إن لم يشرق في سمائها نور جمالك الوضاح .

– سأطيعك يا مولاي .

فأردف الدوق يقول بعدم اكتراث :

– وأحضري معك الآنسة دور بيريف .

ولم ينتظر جواب الدوقة لأنه كان واثقاً من أنها ستطيع هذا الأمر أيضاً ، بل وجه كلامه الى سان ميغرين وقال ضاحكاً :

– أما بشأنك أنت أيها العاشق المسكين فإني أراهن على أنك لن تفوت فرصة كهذه للتقرب من خطيبتك .

فأجاب سان ميغرين قائلاً :

– سأكون في الحفلة يا مولاي .

وانحنى الاثنان أمام الدوقة ثم تأبط الدوق ذراع الكونت وسار وإياه وهو يمتدح له صفات الجوادين اللذين سيريه إياهما . وكان من يراهما يسيران ويتحدثان على تلك الصورة يظن أنهما أفضل صديقين في الكون .

وعند المساء تألقت الأنوار في قاعة قصر دي كيز الكبرى وكان الدوق يترأس الحفلة وقد جلس في مقعد كبير ، وكانت عيناه بين وقت وآخر تتطلعان ناحية الآنسة دور بيريف وسان ميغرين فيبتسم ابتسامة حادة ، ولكنه كان يخص الفتاة بأكثر تلك النظرات ولم يكن قد أمر بإعداد تلك السهرة إلا لإعلان خطبة سان ميغرين وزواجه المقبل منها ، وكان يأمل في أن تبدي أمام الحاضرين النفور نفسه من سان ميغرين الذي بدا منها في جناح الدوقة. وكان الدوق يقصد من ذلك تحقير منافسه أمام النبلاء . فهو ينظر إذن الى الآنسة دور بيريف على تلك الصورة ليدرس استعدادها لتنفيذ غايته ، دون علمها طبعاً ، وكان يبتسم ابتسامة مقلقة بعد أن نظر إليها جيداً وتأكد من منظرها أنه سيبلغ ما يريده من سان ميغرين عن طريقها .

وكان الدوق يتحين الفرصة المناسبة وهو يقضي الوقت بالحديث مع البارون دي موليستراك وكان هذا قد اغتنم فرصة غياب منافسه الكونت دي بومبينيان ليزيد في تقربه من مولاه، وكان موليستراك يجهل ، كما يجهل جميع من في القصر ، أن هوبير

دي راكستان قد ترك خدمة الدوق . ولكن البارون كان يغار من الفارس كما يغار من أخيه الكونت دي بومبينيان ، وكان قد لاحظ اهتمام الفارس بالآنسة دور بيريف فاغتنم فرصة غيابه ليطلق بحقه بعض نفثات لسانه الخبيث ، وبدأ يستعلم من مولاه عن ذلك الغياب بقوله :

– كيف يتأتى يا مولاي أن لا نرى بيننا الشيفالييه دي راكستان ؟

فسمعت ريون دور سؤال البارون وكانت لم ترَ الفارس منذ يومين وتجهل ما جرى بينه وبين الدوق ، فلم تجرؤ على الاستعلام عنه . ولكن المفروض أنها أرهفت أذنيها للإصغاء بعد أن سمعت سؤال موليستراك بشأن حبيبها .

وكان الدوق قد قطّب حاجبيه عندما سمع سؤال البارون ولم يعد يستطيع أن يخفي الى أبعد من ذلك حقده الرهيب على الفارس ، فلم يتورّع عن شتمه وإهانته وقال لموليستراك :

– ان إلحاق هذا الرجل بخدمتي كان أردأ صفقة قمت بها في حياتي، ولقد طردته كما يُطرد الخادم الوقح إذ أنه عند أول مهمة خطرة كلّفته بها خانني وانقلب ضدي ، فلنقلع عن الكلام عنه لأنه جبان سافل خائن .

وعندئذٍ ارتفع صوت يهتزّ من الانفعال قائلاً :

– كذبت أيها الدوق !

فتحوّلت أنظار الحاضرين الى الجهة التي انطلق منها ذلك الكلام المهين فرأوا الآنسة دور بيريف واقفة ويدها ممدودة نحو

الدوق بعظمة متناهية .

وقد خيّم على القاعة صمت رهيب أشبه بصمت الموت وهبّ الدوق واقفاً كتلة واحدة وهو يزأر قائلاً :

– يا للشيطان !

ولم يكن يعلم بعد من أين انطلق ذلك التكذيب الذي لسعه كضربة سوط على وجهه ، ولكنه عرف مصدر الصوت عندما رأى ريون دور . وكان الحاضرون يتوقعون أن ينفجر غضب الدوق ساخطاً مدمّراً ، إلا أن هذا كان يفكّر في أمر آخر ويقول في نفسه :

– « لقد كنت أتحيّن فرصة ملائمة للنيل من سان ميغرين وها هي قد أتت على أكمل وجه ! »

وتأمّل الآنسة دور بيريف لحظةً باحتقار ساحق ثم ابتسم وهزّ كتفيه باشمئزاز وجلس بهدوء شديد وهو يقول بلهجة جليدية :

– إنه أمر يثير الاهتمام حقاً ، ولكن ربما نكون لم نسمع جيداً ، فماذا قلتِ ؟ أعيدي لنسمع كلامك .

– لقد قلت إن كل من يجرؤ على الادّعاء بأن الفارس دي راكستان خائن جبان سافل ، هو كاذب حق ولو كان دوقاً أو أميراً أو ملكاً . وأقول إنك لن تجرؤ على إعادة كلامك أمامه لأنك تعلم جيداً أنه يعيده الى حلقك !

– أتعلمين أنك بتصرّفك هذا تعلنين عن حبك أمام هؤلاء الحاضرين ؟

وقد قال الدوق ذلك وهو ينظر الى سان ميغرين بشماتة ، وكان الكونت في حالة يرثى لها من الخجل والعار ولم يبقَ واقفاً على قدميه إلا بإرادة عجيبة .

أما ريون دور فإنها اضطربت اضطراباً شديداً من جراء سؤال الدوق كما أنها فهمت جيداً حقيقة عواطفها نحو راكستان فاحمرّ وجهها وأطرقت برأسها خجلة مرتبكة ولكنها تمالكت نفسها بسرعة غريبة فرفعت رأسها بفخر وتطلّعت مباشرة في عيني الدوق وقالت :

– وإذا كنت أحب راكستان ؟ ألست حرة في التصرّف بعواطفي ؟ وها أنا أعلن أمام الجميع دون أي خجل أنني أحبّ السيد هوبير دي راكستان لأنه أكمل وأشرف سيد في الكون .

فتركها الدوق تقول كل ما في نفسها ليتمّ له ما يريد من تحقير سان ميغرين . ولما انتهت من كلامها قال لها بصوت مدوٍّ :

– أصمتي أيتها الشقية ! لقد كان يجب أن تموتي خجلاً وأنت تتلفظين بمثل هذه الأقوال أمام الرجل النبيل الذي أصبحت خطيبته وستحملين اسمه بعد مدة وجيزة .

ولكن ريون دور لم تصمت ولم تمت خجلاً بل قالت بهدوء وتصميم :

– أنا لا أعرف الخطيب الذي تتكلم عنه ولا أريد أن أعرفه .

– حقاً ؟! وأنا أقول لك إنك ستتزوجينه .

– لن أتزوج سوى الرجل الذي أحبه .

– بل ستتزوجين الرجل الذي اخترته لك .

وصمت لحظة وهو يفكّر ثم أردف قائلاً :

– نحن في يوم الثلاثاء ، وستتزوّجينه يوم الجمعة القادم .

– لن أتزوجه ! وليس لك أي حق عليّ لتتصرّف بي كما يحلو لك .

– أيتها الآنسة دور بيريف ...

فقاطعته وقالت بصوت عالٍ :

– لست الآنسة دور بيريف ولا أريد أن أكونها ! وأنا أعيد إليكم أرض دور بيريف التي أعطيتموني إياها لأنني لا أريدها . إنني ريون دور التي لا تعرف لها اسماً ولا عائلة . ريون دور التي عاشت من عملها الى هذه اللحظة حرة مستقلة . ريون دور التي لا تربطها بك أية رابطة والتي ليس لك عليها أي حقّ يا مولاي الدوق .

وكان قد فرغ صبر دي كيز بعد أن وصلت الأمور الى هذا الحد فعصف به الغضب وقال بصوت قاسٍ :

– سواء أكنت ريون دور أو الآنسة دور بيريف ، فسوف أظهر لك أن لنا عليك حقوقاً يجب أن تخضعي أمامها . إن الكونت دي سان ميغرين شرّفك باختياره إياك دون كل النساء ، ورغم ما نصحناه به ظل مصراً على عزمه وقد أعطيته كلمتي . وطالما هو يريد أن تحملي اسمه فسوف تتزوجينه في اليوم المحدد : الجمعة القادمة .

– تستطيع قتلي يا سيدي ولكنك لن تنال مني ما ...

فقاطعها الدوق قائلاً بحدة :

– كفى ! فاذهبي الى غرفتك ولا تتحركي منها إلا بأمري

فاجتازت ريون دور القاعة الفسيحة بخطوات متزنة وكانت منتصبة القامة رافعة الرأس وفي نظراتها البريئة الصافية ما جعل الذين في طريقها ينحنون ، رغماً عنهم ، أمامها باحترام .

ولما خرجت أظهر الدوق رثاءه لحالة سان ميغرين قائلاً بخبث :

– إنني أرثي لك من كل قلبي يا كونت فأنت سيء الحظ حقاً . ولكن ، ألم تبرد عاطفتك حيال ما رأيت ؟ ألا تُقلع عن هذا الغرام المتهور ؟

فقال سان ميغرين وهو ينظر الى الدوقة :

– إنني أفضل أن أنزع قلبي بيدي من أن أتخلّى عن هذا الحب الذي هو حياتي كلها .

فتقلّصت ملامح الدوق لأنه فهم عن أي حب يتكلم الكونت ، ولكنه تمالك نفسه وقال :

– سوف نروض تلك العاصية ... وسيأتي الحب بعد ذلك !

الاستغاثة

*

وصلت ريون دور الى غرفتها فانهارت شجاعتها فجأة ووضعت رأسها الأشقر الجميل بين راحتيها وأخذت تشهق وتنشج ولبثت على تلك الحالة وقتاً طويلاً ولكنها كانت من أهل الشجاعة والعزم كما

رأينا فلم تدع اليأس يسيطر عليها بل تمالكت نفسها وقرّرت أن تناضل بكل قواها الى النهاية . ومن الطبيعي أن يكون أول خاطر عنّ لها هو أن تستغيث براكستان فهو وحده الذي يستطيع حمايتها وإنقاذها . فأخذت ورقة كتبت عليها هاتين الكلمتين فقط : « النجدة ! إليّ ! » ووقّعت باسم ريون دور .

وقد اطمأنّت بعد الذي فعلته ووثقت من أن الفارس سيلبي نداءها اليائس ، فأوت الى فراشها ونامت . وفي صباح اليوم التالي دعت إحدى الوصيفات التي كان لراكستان فيها ملء الثقة فأعطتها الورقة وتعهّدت لها الفتاة بأن توصلها الى الفارس بأسرع ما يمكن .

وكان راكستان في ذلك اليوم قد دعا رفيقيه ميلورد وجندارم وماراسكين الى وليمة كبيرة احتفاءً بتركه خدمة دي كيز والعودة الى ما كان عليه من الحرية ، وكان كيسه لا يزال منتفخاً بما يكفي لنفقات تلك الوليمة . فقصد الرجال الثلاثة حانة غراندوق حيث جلسوا في القاعة العامة .

وقد شربوا من الخمر ما جعل ميلورد وجندارم وماراسكين يتدحرجان الى تحت الطاولة وأرغم الشيفالييه على التصريح بأنه لا يقل عن رفيقيه سكراً .

وفي تلك اللحظة دخل الحانة رجل لا يعرفه راكستان وتقدّم منه رأساً وهو يقول بلهجة ذات معنى :

– إنني آتٍ من قصر دي كيز ...

فقاطعه راكستان قائلاً :

– من قصر دي كيز ؟ ! يا للشيطان ! أنصحك أيها الصديق بعدم ارتياد مثل تلك الأماكن المشبوهة وإلا فسوف ينتهي بك الأمر الى أن تُعلّق على خشبة .

فقال الرجل :

– لقد جئت إليك بهذه الورقة من قِبَل الفتاة التي تعرفها .

ووضع أمامه ورقة مطوية ثم غادر الحانة.

فتأمل راكستان الورقة ، وكانت رسالة ريون دور ، بعينين أعماهما السكر وقال وهو لا يفقه معنى كلامه :

– قصر دي كيز ... الفتاة التي أعرفها ... يلوح لي أن لهذا الكلام معنى خاصاً .

ومدّ يده بصورة آلية فأخذ الورقة وقرأها ولكنه لم يفهم شيئاً منها . وقد احتفظ بالورقة مفتوحة في يده وجعل يحملق فيها بنظر جامد وهو يكرّر :« النجدة ! إليّ !.. ريون دور.. ريون دور . » وكان يبحث في ذاكرته علّه يهتدي الى شيء... وفجأة هبّ واقفاً كأنه نصلة من الفولاذ وقال :

– رولاند !

وزايله السكر كأنما بفعل السحر فانطلق راكضاً لا يلوي على شيء وقد اصطدم عند مدخل الحانة بأربعة رجال كانوا يصعدون الدرج فمرّ من بينهم كالشهاب وفرّقهم يميناً وشمالاً .

وكان هؤلاء الرجال الأربعة المتشرّد جيل الذئب ورفاقه الثلاثة بوتوا لاتيس، وريبو لاردور ، وماكلو الصاعقة ، فانطلق من أفواه الأتباع الثلاثة سيل من اللعنات واستداروا يريدون

اللحاق براكستان. ولكن جيل الذئب عرفه فأوقف رجاله بحركة آمرة غاضبة وتابع الفارس بنظرة طويلة تنطق بأنبل معاني الإنسانية .

ولما رأى رجاله ينظرون إليه بعجب ودهشة أشار بيده الى حيث يركض الفارس وقال بصوت مؤثر :

– ألم تعرفوه أيها الحمقى ؟

فأشاروا برؤوسهم سلباً وهم مذهولون ، فقال جيل الذئب :

– إنه الرجل الذي أنقذ أمي !

وكان راكستان ينطلق في تلك اللحظة بأقصى سرعته وقد لبث وقتاً طويلاً على ذلك النحو الى أن قرب من قصر دي كيز ، فخفّف عندئذ من سرعة ركضه وبدأ يفكّر في طريقة يدخل بها القصر . وبعد البحث والتدقيق قرّر أن يدخل من الباب الكبير كما كان يفعل عندما كان في خدمة الدوق. وقد دخل فعلاً من ذلك الباب ودُهش عندما حيّاه ضابط الحرس باحترام ولكنه لم يبالِ . وبعد بضع دقائق كان يقف أمام ريون دور ويقول لها بلطف متناهٍ :

– قولي عما حدث لك من الأمور المكدّرة .

فأخبرته ريون دور بكل شيء ولكنها أهملت أن تشير الى دفاعها عنه عندما أهانه الدوق كما أنها لم تذكر أي شيء عن تلك الإهانات .

وعندما انتهت من كلامها قال لها بلهجة الواثق مما يقول :

– اطمئني وثقي في أن هذا الزواج لن يتمّ .

فقالت له بقلق ظاهر :

– ماذا تريد أن تفعل ؟

فقال لها ضاحكاً :

– لا أعلم بعد . ولكنني أكرّر عليك أن هذا الزواج لن يتمّ .

المدعوّون الى العرس

★

وحلّ يوم الجمعة وهو اليوم المحدد لعقد زواج الكونت دي سان ميغرين على الآنسة دور بيريف . وكانت الساعة الرهيبة تقترب بسرعة وراكستان لا يعلم بعد ما سوف يفعل ، ولكنه ذهب مع ذلك يتبعه ميلورد جندارم وماراسكين .

ولم يكن الفارس قد قال شيئاً لرفيقيه . ولكن ماراسكين كان يعرف جيداً وكان يكفيه أن ينظر إليه نظرة واحدة ليعلم أنهم مقبلون على مهمة شديدة الخطورة ، فنبّه رفيقه الذي لم يكن يرى ما يراه وقال له بحماس :

– إنتبه يا ميلورد جندارم ، فيجب أن ننجح مهما كلف الأمر وإلا فلن نعود نرى سيدنا الفارس أبداً .

فقال العملاق :

– هذا مفهوم ، فالمهم أن ينجح سيدنا الشيفاليه حتى ولو قطّعنا إرباً .

وكان البطلان يتبادلان هذا الكلام وهما يركضان خلف راكستان ، وكان هذا يقصد قصر دي كيز بعد أن أعياه التفكير في إعداد خطته سلفاً ، وهو متأكد من أنه سيعدّ تلك الخطة على مسرح الحوادث نفسها .

وفي ذلك الوقت كان موكب العرس ، في قصر دي كيز ، يتهيأ للذهاب الى الكنيسة .

فسار في الطليعة ، على الخط نفسه ، سان ميغرين وريون دور والدوقة دي كيز والدوق دي كيز ، أي أن سان ميغرين كان الى اليسار وقد أعطى يده اليمنى لريون دور بينما كان دي كيز الى اليمين وقد أعطى يده اليسرى للدوقة ، فكانت المرأتان إذن تفصلان بين الرجلين وكانت ريون دور تفصل بين الدوقة وعشيقها.

وسار وراء هؤلاء الأربعة الدوق دي سوريانتس وهو يتأبّط ذراع زوجته جوسلين . وسار وراءهما الكونت دي بومبينيان – شقيق هوبير دي راكستان – وهو يتأبّط ذراع هرموزا ، وكان الكونت يطير فرحاً لمجرّد احتكاك ذراعه بذراع المرأة المحبوبة ويحس بالنار تتمشى في عروقه لمجرّد أن تقبض أصابعها الرقيقة الوردية الأظافر على يده .

وسار وراء الكونت وهرموزا جمهور من النبلاء أتباع الدوق وهم مسلحون بالسيوف الثقيلة والخناجر الماضية . والشيء الغريب المدهش هو أن هذا الجمهور الذي يثير منظره الخوف كان يحس إحساساً غامضاً بأنه مقبل على معركة رهيبة ، فكان تجهّم وجوه أفراده وعبوسهم يزيدان النظر هولاً ورهبة .

وسار وراء ذلك الجمهور الرهيب باقي المدعوّين وفيهم أصدقاء العريس الذي كان يتشرّف كل منهم بتأبّط ذراع إحدى وصيفات الدوقة .

الرجل الذي لم يكن مدعواً

★

ودخل الموكب دهليزاً طويلاً لا يكاد يتّسع عرضاً لأكثر من الأشخاص الأربعة الذين كانوا يسيرون في الطليعة ، وكان الدهليز يقع في الطابق الأول ويوجد في نهايته باب كبير ذو مصراعين هو باب كنيسة القصر . وكانت تلك الكنيسة ذات طابقين : الطابق الأرضي وهو مخصص لخدم القصر ، والطابق الأول وهو مخصص للدوق والدوقة وأتباعهما النبلاء . وكان على بعد خمس عشرة أو عشرين خطوة من باب الكنيسة رواق ضيّق يتفرّع من الدهليز ويؤدّي الى الطابق الأرضي للكنيسة .

وكان دي كيز والدوقة وريون دور وسان ميغرين على بضع خطوات من ذلك الرواق عندما فُتح أحد مصراعي باب الكنيسة وظهر على العتبة كاهن القصر بملابسه الخاصة بالاحتفال ، وقد وقف وراءه مساعداه ، بينما وقف قرب الباب عملاق سويسري يحمل بيده حربة وكان على تمام الاستعداد ليفتح المصراع الآخر من الباب ليدخل الدوق وأفراد الموكب .

وفي تلك اللحظة سُمع وقع خطوات مسرعة في الرواق الضيق

وقد شعر الدوق وجميع أفراد الموكب أن تلك الخطوات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحدث المجهول الغامض الذي كان يحس كل منهم وجوده بالغريزة دون أن يستطيع تكوين أية فكرة عنه . ولذلك فقد استقبل الجميع وقع تلك الخطوات بملء الارتياح بعد القلق الغامض الذي كان يسيطر على النفوس .

فتوقّف الدوق عن السير دفعة واحدة كأنما سُمّر في مكانه وقطّب حاجبيه وتشبّثت يده بقبضة خنجره . ومن الطبيعي أن يجمد الجميع لجموده . وكان الكاهن ينتظر بصبر على عتبة باب الكنيسة وقد اغتنم فرصة جمود الموكب ليعيد النظر قليلاً في الخطاب الذي كان قد أعدّه لتلك المناسبة .

وفي اللحظة ذاتها ظهر راكستان في الدهليز وكان يلهث ويتصبّب عرقاً . وقد كساه الغبار ولاح في قسماته القلق الفظيع خوفاً من أن يكون قد وصل متأخراً . ولكنه ألقى نظرة الى ما حوله كأنها الشهاب الناري فرأى الدوق على خطوتين منه ورأى الموكب الذي جمدته المفاجأة ، ورأى باب الكنيسة المفتوح والكاهن الذي ينتظر على عتبته . رأى كل ذلك بلمحة بصر فوقف وقد ارتفع صدره العريض بتنهدة تدلّ على الارتياح.

واصطفّ وراءه ميلورد جندارم وماراسكين وقد فتحا أعينهما على وسعتها دهشةً وذهولاً من جراء وجودهما المفاجىء أمام ذلك الحشد النبيل .

وبعد أن تنفّس راكستان لحظة قصيرة جداً لم يعد يرى سوى ريون دور ، فطمأنها بابتسامة متناهية اللطف كأنما يقول

لها : « لا تخشي شيئاً فأنا هنا . »

وكانت ابتسامة الغبطة التي أجابته بها الفتاة برهاناً ساطعاً على ثقتها به وحبها الطاهر النقي له . فلم تستطع أن تكتم تنهدة خفيفة ذهب معها الاضطراب والخوف اللذان كانا يضغطان على صدرها الى تلك اللحظة ، وكانت الوحيدة التي لم يدهشها وصول راكستان .

الوحيدة ؟ ربما .. ولكنها في جميع الأحوال لم تكن الوحيدة التي أحسّت بالارتياح ، إذ أن الدوقة وسان ميغرين شعرا شعورها نفسه وقد فهم كلاهما أن حسن الطالع قد أرسل لهما هذا الحليف ، وباتا يترقّبان الآن حدوث الأعجوبة التي تنقذهما وإن لم يكونا يجرؤان على أن يأملا بأنها ستنتهي على ما يرام . وكانا يشعران بنظرات دي كيز النارية تنصبّ عليهما فحرصا على أن لا يظهرا أية حركة أو نظرة تدلان على الفرح الطاغي الذي ملأ نفسيهما ، ولم يبدُ على وجهيهما سوى الدهشة والعجب اللذين كانا يبدوان على وجوه جميع أفراد الموكب من تأثير ظهور راكستان المفاجىء على هذه الصورة .

ولم يكن دي كيز أقلّ دهشة وتعجّباً منهما وقد نظر إليهما في باىء الأمر نظرة شكّ . ولكنه تمالك نفسه وتذكّر الدفاع الحارّ الذي دافعته الآنسة دور بيريف عن راكستان فتبلّجت الحقيقة أمام عينيه واضحة وضوح الشمس ولم يعد يُدهش من حضور الفارس المفاجىء بل أخذ يلوم نفسه على أنه لم يتوقّع ذلك بعد المناقشة العاصفة التي جرت بينه وبين الآنسة دور بيريف

في الحفلة الساهرة ، فعندئذ كان من الممكن أن يتخذ الاحتياطات اللازمة لعدم خروج الفارس حياً من القصر .

ولكنه سرعان ما اطمأن من هذه الناحية لأنه كان في قصره وبين حرسه ونبلائه وجنوده وليس له إذن إلا أن يعطي أمراً أو يشير إشارة فيُقضى على هؤلاء الأشقياء مهما بلغوا من الشجاعة والقوة . وقد عاد إليه هدوؤه على أثر تفكيره هذا . ولما رأى أن راكستان لا يرافقه سوى رجلين فقط ، لم يسعه إلا أن يُعجب به على عادة الفرنسيين في الإعجاب بالبطولة والجرأة ، فقال في نفسه :

— « أقسم بالله أن هذا السخيف لا تنقصه الجرأة ، فلنرَ الى أين سيدفعه تهوّره وحماقته . »

وكان يظنّ أنه سوف يقدّم بعض المتعة لضيوفه وخاصته ولم يخطر له لحظة واحدة أنه قد يكون ضحية فضوله وغروره ، وأن تلك المتعة قد تنقلب الى هزيمة شائنة وتحقير ينغّص عليه عيشه ، وقد منعته كبرياؤه من التفكير في مثل هذه الأمور .

فلم يطل عليه الوقت حتى تبيّن له خطأ ظنه إذ أن الثواني القليلة التي أضاعها أتاحت لراكستان المجال ليلتقط أنفاسه ولم يكن الفارس يريد أكثر من ذلك ، فرفع قبعته فوراً في حركة واسعة تمثيلية وانحنى بلطفه الفخور المعهود ، وكانت تحيته موجهة الى ريون دور والدوقة فقط اللتين لا تزالان بين يدي دي كيز وسان ميغرين . وبعد أن حيّا السيدتين وهو يولّي ظهره الى دي كيز استدار نحوه وانتصب بكل قامته ووضع قبعته على رأسه ثم

أثبت نظره في عيني الدوق وقال بصوت رنّان تجاوب صداه في الدهليز الطويل كأنه نفير الحرب :

– إليك يا هنري دي لورين ، السيد السامي المقام القوي النفوذ ، دوق وأمير وسيد أراضٍ وأمكنة عديدة ، في قصرك الحصين نفسه وبين نبلائك وضباطك وحرسك وخدمك الذين لا أرى سوى قسم منهم هنا ، جئت أقول لك وجهاً لوجه ، أنا هوبير دي راكستان الفارس البسيط الذي لا يملك شيئاً والذي لا يخفره سوى هذين الشقيين المسكينين اللذين تراهما ، أتيت لأقول لك إنك تستعمل نفوذك وقوتك ضد امرأة ضعيفة ، وإن عملك هذا هو منتهى الجبن والحقارة .

فسقطت تلك الكلمات كصفعة شديدة على وجه الدوق وعلى وجوه الأتباع الذين كانوا يحيطون به ، فانطلقت سيول اللعنات والشتائم والتهديدات من الأفواه ، فقال راكستان بلهجة آمرة ساخرة :

– اسكتوا أيها الكلاب وسوف تنبحون عندما ينزع الكلاّب الكبير – وأشار الى كيز – الكمامات عن أشداقكم !

واتفق في تلك اللحظة نفسها أن دي كيز كان يأمرهم بالسكوت بإشارة من يده فأطاعوا الأمر . فتظاهر الشيفالييه بأنه ظنّ أنهم يطيعون أمره هو ، فقهقه باحتقار وقال :

– يا للعجب ! أرى كلاباً مدربة على الطاعة فعلاً ، ويكفي أن يُلوّح لهم بالسوط ليكفّوا عن النباح .

ثم عاد الى دي كيز وأردف يقول بصوته الجهوري الرنان :

– إن الجبن الذي بدا منك يأنف أحقر الأشقياء والمشرّدين ويحمرّ وجهه خجلاً من إظهار مثله . وقد أتيت أجابه القوة بالقوة ، وأعلن أمامك أن هذا الزواج الذي تفرضه بالقوة لن يتمّ إلا إذا ...

واستدار نحو ريون دور وتابع قوله :

– إلا إذا أعلنت هذه السيدة أمام الجميع أنها ترضى ...

فلم تدعه ريون دور يتمّ كلامه بل قفزت نحوه بخفة وسرعة والتصقت بصدره وطوّقت عنقه بذراعيها بحركة استسلام بريء وهي تقول بصوت مرتجف سمعه الجميع :

– خذني من هنا ! أنقذني !

فأطبق ذراعيه عليها بلطف متناهٍ وقال بنغمة لطيفة :

– سآخذك وأحتفظ بك فلا تخشي شيئاً .

وقال للدوق بلهجة متحدية :

– حاول أن تستعيدها مني !

ولكن دي كيز لم يحاول بل وجّه نظرة هائلة الى سان ميغرين الذي لم يستطع الاحتفاظ بخطيبته . ولكنه كان متأكداً مع ذلك من أنه سيسترجع الفتاة قبل مضي وقت طويل ، وأن الاحتفال سيجري بعد القضاء على الأشقياء . وقد رأى وسمع الى الآن ما فيه الكفاية فإن المغامر الشقي الذي رفع النقاش فوراً الى ذلك الحدّ ليس له إلا الضرب والطعن بوقفاته عند حدّه . فاستدار الى أتباعه ليأمرهم بالانقضاض على الفريسة .

ففهم الفارس فوراً معنى حركة الدوق فترك ريون دور

بلطف وقال لها :

– إذهبي ولا تخشي شيئاً .

واستدار معها وسلمها بلطف الى ماراسكين . لم يقل لرفيقه شيئاً ولكنه نظر إليه نظرة طويلة عاد بعدها يواجه دي كيز وهو مستعد لإشهار حسامه ومجابهة الصدمة .

وفهم ماراسكين معنى نظرة الفارس . ومن جهة أخرى فهم حقيقة مهمتهم فقال في نفسه ساخراً :

– « يظهر أننا شهداء الغرام ! حسناً يا سيدي الفارس ، ويجمل بنا لنكون جديرين بلقب الرجال أن ننقذ عصفورتك اللطيفة من مخالب هذه الطيور الجارحة . »

وبعد أن اتّخذ ماراسكين هذا القرار نبّه رفيقه بضربة من كوعه ، وتركّز الاثنان أمام ريون دور كأنهما أسدان هائجان وقد تأهبا ، كسيدهما ، لتجريد السلاح .

الأمر

*

قلنا إن دي كيز استدار نحو أتباعه ، وإن ريون دور أصبحت في الطرف المقابل وراء ميلورد جندارم وماراسكين ، وبهذه الحركة وُجدت هرموزا وجوسلين جنباً الى جنب وسط نصف دائرة مؤلفة من سان ميغرين الى اليسار ، ثم ، على التوالي الى اليمين ، بومبينيان والدوقة وهرموزا وجوسلين وسوريانتس

ودي كيز .

ولما استدار الدوق دي كيز وقعت عيناه على الكونت دي بومبينيان ، فلفت نظره الارتباك المستولي على هذا الكونت ، وخطرت له فجأة فكرة رهيبة ... فلم يعطِ الأمر لأتباعه بالهجوم على راكستان كما كان ينوي أن يفعل بل تطلّع الى بومبينيان بنظرة ثابتة وقال له بصوت قاطع :

– إنها فرصة رائعة يا بومبينيان لتُظهر لنا مدى إخلاصك !

وأشار الى راكستان باحتقار شديد وأردف قائلاً بصوت أشد قسوة :

– إن هذا الرجل هو أخوك ، ولكنه خائن سافل لا يألو جهداً في إهانة سيدك ، فاقبض على هذا الخائن وسلمنا إياه .

فوقع الأمر على بومبينيان كضرب المطرقة وأخذ يفتل شاربيه بعصبية ، فزمجر الدوق قائلاً بغضب :

– ماذا ؟! ألعلّك تتردّد ؟

ويجب أن نقول هنا إن أول فكرة مرت في رأس بومبينيان المشوّش آنذاك هي هذه :

« إن ثروتي أصبحت مؤمنة وبعد هذه الضربة لن يرفض لي الدوق طلباً . »

وقد خطا خطوتين قاسيتين عنيفتين في اتّجاه أخيه وامتدت يده الى مقبض سيفه فامتشقه نصف امتشاقة .

ولكنه لم يستطع أن يخنق صوت الدم في سبيل مطامعه ، فتوقف عن السير وأغمد حسامه بقوة وهزّ كتفيه وهو يزمجر

قائلاً :

– إنه أخي رغم كل شيء !

ودار على عقبيه وقد قرّر عصيان الأمر . ورغم أن بادرته النبيلة هـذه جاءت متأخرة قليلاً ، إلا أنها لم تـُنـْقِص شيئاً من شرف نفسه إذ أنه والحقّ يقال، أقدم، في سبيل المحبة الأخوية، على تضحية هائلة بتخليه عن مركز لامع كان من الممكن أن يغدو رائعاً فيما إذا تمكّن دي كيز من خلع فالوا وإبدال تاج الدوقية بتاج ملكي .

فاستدار بومبينيان إذن وفي نيته أن يضحي بكل شيء ، ولكن عينيه انصبتا على هرموزا وجوسلين اللتين كانتا واقفتين جنباً الى جنب كما قلنا ، وخُيّل له أن عينيّ كلّ من المرأتين الفاتنتين كانت تصيح به قائلة :

– « إضرب ! إضرب!... وسأكون لك هذا المساء !... »

ولم يتردّد . فإن ما عجزت المطامع عن تحقيقه فعلَته الغرام في أقلّ من ثانية ، فمات ضميره وشعوره وعقله فوراً كأنما تجرّد من كل ما هو إنساني وانتصب شاحب الوجه محتقن العينين بالدم وجرّد سيفه بحركة قاسية ، حركة مَن يقدم على قتل .

وقد بدا للجميع أنه ينوي قتل أخيه بما لا يقبل الشكّ .

وظنّ دي كيز أنه إنما يطيع أمـره فشجّعه بنظرة لطيفة كما يُشجّع الكلب المطيع .

وكان راكستان قد أحسّ بكبده يتمزّق عندما رأى أخاه يطيع أمر الدوق . ثم شعر كأن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن عاتقه

عنـدما تأكّد من أنه لن يطيع . ولكن سروره لم يدم سوى لحظة قصيرة جداً، وشعر فوراً أن أخاه يريد قتله هذه المرة كأنه مسوق الى ذلك بطمع لا يُقاوَم .

وفهم دونما صعوبة مصدر تلك الضربة الأخيرة ، فإن أخاه يريد قتله لأن إحدى المرأتين قد أمرته بذلك !

وعندما أوشك بومبينيان على الانقضاض عليه صاح راكستان قائلاً بصوت كأنه قصف الرعد :

– ماذا تنتظر أيها السيد لتقتلني ؟ ... أتريد أن ترغم تلك السيدة النبيلة على أن تكرّر ، بصوت مرتفع ، الأمر الذي أعطتك إياه عيناها الناعستان ؟

فترنّح بومبينيان تحت تأثير تلك الضربة غير المتوقعة ورجع خطوتين الى الوراء بحركة لاشعورية .

فأردف راكستان يقول بصوت أشد قسوة :

– يظهر أن سلطة السيدة عليك تفوق سلطة سيدك إذ أنك عصيت هـذا بينما أراك مصمّماً على أن تطيع تلك ! لكن ! ولكن ذلك الأمر لم يسمعه سواك ولم يحزره سواي ، ويُخيّل لي أنه من حق هذا الحشد النبيل أن يعرفه ويعرف التي أعطته ولماذا أعطته .

وانتصب الفارس باحتقار شديد ومدّ ذراعه نحو الشقيقتين بحركة اتهامية وقال بصوت داوٍ :

– إنكِ أنتِ ذات الرداء الأبيض أو أنتِ ذات الرداء الأسود التي أعطيتِ أمراً الى أخ ليقتل أخاه مقابل قبلاتك الحمراء

المغموسة بالدم ! وسأقول لك لماذا أعطيت هذا الأمر الفظيع .

ثم ركض الى ريون دور فأمسكها من كتفيها بلطف متناه وقدّمها وهو يتابع كلامه قائلاً :

– إنك لم تخطئني يا سيدتي فهذه ليست ريون دور ... كما أنها ليست الآنسة دور بيريف ... إنها، وقد عرفتها جيداً، الأميرة رولاند دي مونكابيه التي أغرقتها فيما مضى بمياه نهر الواز... ثم سعيت في قتل أبيها ... وكل ذلك للاستئثار بإرثها الضخم. إنها رولاند دي مونكابيه التي كنت تظنينها ميتة وقد ذُهلتَ عندما رأيت أنها حية ترزق وأنه يتوجب عليك أن تردّي لها ثروتها التي سرقتها ..

وبعد أن أنهى الفارس كلامه أعاد ريون دور باللطف نفسه الى مكانها بين ميلورد جندارم وماراسكين ووقف أمامها ثم امتشق حسامه بسرعة هائلة جعلت له صفيراً كصفير الرياح وصاح صياح المعركة قائلاً :

– هيا يا بومبينيان واهجم على أخيك لأنه المدافع الوحيد عن رولاند دي مونكابيه ! أهجم عليه واقتله بطعنة واحدة من خنجرك كما قتلت فيما مضى الأمير دي مونكابيه ! أضرب دون رحمة ودون تبكيت ضمير لتسلّم رولاند لقمة سائغة لخليلتك الفاجرة وتؤمّن لها نهائياً ذلك الإرث الذي تدين به لسكّين الصيد التي قتلتَ بها الامير !

المعركة

*

لن نحاول أن نصف التأثير الهائل الذي تركه كلام راكستان غير المتوقّع في نفوس الحاضرين ، بل نقول إن الجميع ، حتى دي كيز ، نسوا موقتاً زواج سان ميغرين وكانوا يسمعون ما يُقال بانتباه ما بعده انتباه .

وقد أظهرت كل من هرموزا وجوسلين الشعور نفسه التي أظهرته الأخرى: شعور الدهشة والاحتقار الصادق عند الواحدة، والمطبّق بفنّ ومهارة عند الأخرى . ثم تبدّلت تصرّفاتها في الوقت نفسه ولم تعد نظراتها المثبتة على الفارس تعبّر إلا عن الشفقة كأنها تريانه احمق دون شك .

أما الدوق دي سوريانتس فإنه لم يكن يشاركها ذلك التصرّف وقد رأى أن الضجة تعدّت الحد فالتفت الى دي كيز وقال له بلهجته المتعالية المعهودة :

– بحق السماء أيها الدوق ، دعني أعاقب هذا الوقح ما دمت لا تستطيع الدفاع عن شرف أصدقائك .

– دع عنك ذلك ! ولا أظن أنك تريد تشريف هذا المتشرّد بأخذ اتهاماته المضحكة بعين الجد !

ثم استدار نحو أتباعه وصاح قائلاً :

– إقبضوا على هذا الرجل .

فأشهر الكثيرون سيوفهم ، ولكن الدهليز لم يكن من السعة

بحيث يتمكنون كلهم من الهجوم دفعة واحدة . وكان كل ما استطاعوا أن يفعلوه هو أنهم تقدّموا خمسة إثر خمسة ، فتلقّى راكستان ومارسكين وميلورد جندارم الخمسة الأوّل بقلوب قُدّت من الفولاذ ، وقال راكستان ساخراً :

– إن الثور الوحشي يتمتع بقرنين قويين وهو يجيد استعمالهما فويل للحمقى المتهورين .

وقد قال تلك الكلمات وهو يرد طعنة تأتيه عن اليمين وأخرى عن اليسار . ثم أطلق ذراعه بحركة صاعقة وهو يصيح قائلاً :

– كلب واحد !

فطعن مارسكين بدوره وصاح قائلاً :

– اثنان !

وزمجر ميلورد جندارم يقول :

– ثلاثة !

وقد أسقط كل من الشجعان الثلاثة مهاجمه دون أن يُصاب هو بخدش، وألحقوا الاثنين الباقيين برفاقهما فوراً وكان بين هؤلاء الخمسة الكونت دي سان ميغرين الذي شاء حسن حظه أن يُصاب بضربة من قبضة سيفٍ جرحت رأسه وكسرت سيفه ، وهكذا استطاع أن ينسحب بشرف من المعركة دون أن يناله أذى كبير .

إذن فإن الرفاق الثلاثة قد أسقطوا فوراً خمسة من أعدائهم . فأتام توّاً خمسة آخرون فأتبعوهم برفاقهم دون هوادة ، ولكن

حل محلهم فوراً خمسة آخرون . وكان راكستان ومارسكين وميلورد جندارم قد نالوا ، هذه المرة نصيبهم من الطعنات . وصحيح أنها كانت خدوشاً بسيطة ، ولكن دماءهم بدأت تسيل ... وبعد هؤلاء الخمسة آخرون وآخرون سيأتون على التوالي ! فأيقن راكستان ورفيقاه من السقوط العاجل فيما إذا ظلوا يتابعون تلك اللعبة .

وفي تلك اللحظة صاح ميلورد جندارم صيحة ألم وقد شعر أن أحدهم طعنه من الوراء فاستدار كتلة واحدة وهو يزمجر قائلاً :

– أيها الخائن الغادر ستدفع فوراً ثمن فعلتك الشائنة !

فظن راكستان أنهم هوجموا من الوراء أيضاً فاستدار يجابه الخطر الجديد وهو يقي نفسه بدوّامة جهنمية من سيفه الطويل ، ولكنه رأى أن ذلك الهجوم لم يكن بذي بال . وكان العملاق السويسري الذي يحرس باب الكنيسة هو الذي قام به فانقض على الرفاق الثلاثة من الوراء وطعن ميلورد جندارم بحربته في خاصرته ولكن الجرح لم يكن خطراً وقد استدار ميلورد وضرب السويسري بقبضة سيفه ضربة هائلة تركته يتدحرج على الحضيض فاقد الوعي .

رأى راكستان ذلك ولكنه رأى أيضاً باب الكنيسة المفتوح الذي لم يكن يحرسه أحد لأن الكاهن ومساعديه كانوا قد أطلقوا سيقانهم للريح . فألقى ببضع كلمات الى مارسكين ، وعندئذ أبدلوا خطة القتال فبعد أن كانوا يقاتلون ثابتين في أماكنهم بدأوا الآن يقاتلون وهم يتراجعون بأقصى سرعة .

فانطلقت صيحات الظفر من المهاجمين عندما رأوا تلك الخطة التي لم يفهموها وكانوا يزمجرون قائلين :

– لقد قُضي عليهم ! ... إنهم يفرّون ! ... لقد أصيبوا إصابات بالغة ! ...

وكان الرفاق الثلاثة قد أصيبوا حقاً وكان الدم والعرق يكسوان أجسامهم ووجوههم ولكنهم لم يكونوا يفرّون بل كانوا يتمشون وفق خطة مرسومة .

وكانت ريون دور تتراجع مثلهم وقد فهمت خطتّهم ، وكانت تسير أمامهم لئلا تعيق حركاتهم . ووصلوا الى باب الكنيسة وهم على آخر رمق فدخلت ريون دور أولاً ودخل وراءها ماراسكين وأمسك بيده مصراع الباب المفتوح متأهباً لإغلاقه عند اللحظة الحاسمة .

وعندئذ استجمع راكستان وميلورد جندارم قواهما وانقضّا فجأة على المهاجمين وهما يقيان نفسيهما بدوّامة متسعة من سيفيهما المكسوّين بالدماء حتى القبضة .

فبغت المهاجمون لتلك العودة الصاعقة وتراجعوا خطوتين الى الوراء ، وكان ذلك ما يريده البطلان إذ أن ميلورد جندارم وثب وثبة هائلة الى الوراء ودخل الكنيسة ودخل وراءه راكستان وكان ماراسكين يراقبهما فأغلق مصراع الباب بعنف شديد وساعده رفيقاه في دفع المزاليج الضخمة .

وأسندوا ظهورهم الى الباب وبدأوا يستعيدون أنفاسهم المتقطعة اللاهثة .

ووقفت ريون دور أمام راكستان وبدأت تمسح وجهه المكسوّ بالدم والعرق بمنديلها الحريري الثمين . وكانت تفعل ذلك بلطف متناهٍ وحنان أشبه بحنان الأم ، وكانت تغمغم بين وقت وآخر قائلة بصوت مخنوق :

– كل هذا لأجلي ! ... لأجلي !

وشعر راكستان ببعض الراحة فشكرها بابتسامة ونحّاها بلطف وأخذ يبحث في تلك الكنيسة التي ساقتهم إليها الصدفة عن منفذ يخرجون منه . وكان المذبح ينتصب في نهاية الكنيسة قبالة الباب فذهب إليه ودار وراءه فلم يجد المنفذ الذي يبحث عنه وأحسّ بخيبة أمل كبيرة فقال في نفسه :

– « إن الموت ممكن بالنسبة لنا ، ولكن ماذا تفعل بها في تلك الحالة ؟ ... »

ولم يفكّر أكثر من ذلك بل عاد الى رفيقيه فأغمد سيفه وسحب مقعداً كبيراً ألصقه بالباب ، وقد فهم رفيقاه غايته فأغمدا سيفيهما هما أيضاً وبدآ يساعدانه في عمله . ولم تمضِ بضع دقائق حتى كان الباب محصناً بحاجز متين ، فقال ماراسكين وهو يظهر إعجابه بالعمل الرائع :

– إن الباب سيصمد على هذه الصورة ساعة أو ساعتين .

فقال راكستان ببرودة :

– سنرى .

وكان الفارس مقتنعاً تماماً من أن الحاجز سيصمد الوقت الكافي ليستعيدوا قواهم كلها ولكنهم لم يكتفوا بذلك بل

أقاموا في وسط الكنيسة ، هنا وهناك ، عقبات الغاية منها عرقلة سير المهاجمين عندما يكسرون الباب ويقتحمون الكنيسة . ثم نصبوا حاجزين آخرين عند كل جهة من جهات المذبح ، وبذلك أصبح المذبح ملجأهم الثاني . وقاد راكستان ريون دور الى ما وراء المذبح حيث أجلسها في مقعد وعاد الى رفيقيه فجلس وإياهما على الأرض قرب الباب .

وكان المهاجمون قد يئسوا من كسر الباب دون معدّات فذهبوا للإتيان بها ، وكانوا قد رفعوا القتلى والجرحى من أرض الدهليز واصطف الذين سلموا أمام باب الكنيسة . وكان سان ميغرين قد عاد إليهم ليطمئن خليلته... وكان بومبينيان هناك أيضاً وقد انتحى جانباً وهو متجهّم الوجه تلوح عليه دلائل اليأس وخيبة الأمل ولم يكن أحد يُلقي إليه بالاً .

وكانت الدوقة دي كيز تتحدّث مع الدوق دي سوريانتس عندما سمعت وراءها ، في أذنها تقريباً ، صوتاً يهمس قائلاً :

يجب أن تكون هناك طريقة للدخول سراً الى الكنيسة وإخراج الفتاة منها إذ أن الدوق لن يتراجع عن إتمام الزواج عندما يستعيدها في النهاية .

فشحب وجه الدوقة شحوباً شديداً عند سماعها هذا الكلام وقد انتظرت لحظة قصيرة لتتمالك نفسها وتخفي ما عرا ملامحها من الاضطراب ، ثم استدارت ببطء ولم يكن وراءها سوى جوسلين وهرموزا ، فشعرت الدوقة بالاطمئنان لأنها كانت واثقة من إخلاص المرأتين وقد جاء الكلام الذي سمعته برهاناً ساطعاً على

هذا الإخلاص .

ولكن مَن مِن الشقيقتين هي التي تكلمت ؟ أهي هرموزا الرصينة أم جوسلين المرحة اللعوب ؟

ولم تتردّد الدوقة إزاء تلك الفكرة بل خاطبت الإثنتين بصوت خفيض قائلة بلهجة تجمع بين الهزل والجد .

– هناك دون شك طريقة للدخول والخروج دون أن يعلم أحد .

وشرحت لهما تلك الطريقة فرأتهما تتسلّلان بخفة ومهارة نادرتين وتختفيان دون أن يشعر أحد بهما ، فتنهّدت الدوقة دي كيز ارتياحاً وقالت في نفسها :

– « لقد نجونا من فكرة زواج عشيقي سان ميغرين وهذه الفتاة.. وعندما يُفتح هذا الباب لن يجدوا أحداً في الكنيسة ! »

ولما أيقنت هرموزا وجوسلين من أن أحداً لم يعد يستطيع رؤيتهما أوسعتا الخطى دون أن تنبسا بكلمة ، وكانتا تسيران دون أي تردّد كأنهما تعلمان الى أين تذهبان وماذا يجب عليهما أن تفعلا .

وكانت كل منهما تحذر الأخرى وتراقبها مراقبة دقيقة . والغريب في الأمر أنهما لم تكونا تحاولان إخفاء هذا الحذر وهذه المراقبة .

ووصلتا على تلك الصورة الى جناح الدوقة فدخلتا الغرفة التي تحتفظ فيها هذه بثيابها فبحثتا في صندوق ، دون أن تتكلّما ، وأخرجتا ثلاثة معاطف فضفاضة ذات قلانس ، فالتفّت كل

منها بمعطف واعتمرت بالقلنسوة وخبأت إحداهما المعطف الثالث تحت معطفها وأخذته معها .

وشاءت الصدفة أن يكون المعطفان اللذان ارتدتاهما من اللون الرمادي فأصبح من المستحيل على أي كان أن يعرف من هي منهما ذات الرداء الأبيض ومن هي ذات الرداء الأسود .

وسارتا كذلك بالخطوات الواسعة نفسها وكانتا ، هذه المرة أيضاً ، تعرفان تماماً وجهة سيرهما وتراقب كل منهما الأخرى بطرف عينيها .

نهاية المعركة

*

وعاد الرجال بالأدوات اللازمة وانقضّوا على باب الكنيسة وكان راكستان وماراسكين وميلورد جندارم قد هبّوا واقفين منذ الضربات الأولى ووقف كل منهم في مركزه من المعركة المقبلة . وكانت الدقائق القليلة التي قضوها في الراحة قد أعادت إليهم جزءاً كبيراً من قواهم وشعروا ، رغم جراحهم ، بأنهم قادرون على متابعة المقاومة وقتاً طويلاً .

وكان الباب قد بدأ يئن تحت تأثير الضربات العنيفة المنهالة عليه ولم يلبث أن سقط بدويّ يصمّ الآذان فاستقبل المهاجمون هذا النصر الأولي بصيحات الفرح ، ولكن إسقاط الباب لم يكن كل شيء بل كان عليهم الآن أن يزيلوا الحاجز المتين الذي أقامه

الشجعان الثلاثة وراء ذلك الباب.

ولم تكن تلك المهمة من السهولة بحيث تصوّروا وقد بدأوا يحسون بصعوبتها وخطرها عندما أخذ راكستان وميلورد جندارم وماراسكين يطلقون سيوفهم الطويلة من خلال منافذ الحاجز ويعيدونها في كل مرة مخضّبة بالدماء، بينما تنطلق اللعنات وصيحات الألم من الجهة الثانية .

ولكن الشجعان الثلاثة كانوا على يقين من أنهم سيسقطون أخيراً ، وهو ما بدأ راكستان يقوله لنفسه وقد استولى عليه قنوط غريب وكان مكسوّاً بالجراح ولم يبقَ واقفاً على قدميه إلا بإرادة عجيبة تفوق إرادة البشر. وكان ينظر الى المذبح حيث كانت ريون دور ويفكّر في الذهاب إليها ليقول لها قبل أن يموت إنه أحبها دائماً وإنه بدأ يحس بهذا الحب منذ ذلك اليوم البعيد الذي أعطته فيه ، وهي طفلة ، تلك الوردة البرية !

وعندما أوشك أن ينفّذ فكرته انطلقت فجأةً صيحة فرح من الجهة التي كانت فيها الفتاة وسمع صوت ريون دور يناديه قائلاً:

— أسرع يا هوبير ... لقد نجونا !

فحوّل إليها أنظاره فرآها واقفة مشرقة الوجه وهي تشير إليه أن يسرع وكأنما أرادت أن تُظهر له عدم الجدوى من إضاعة الوقت فأسرعت تختفي خلف المذبح .

فلم يتردّد راكستان بل أشار الى رفيقيه ، فترك الرجال الثلاثة الحاجز وأسرعوا في الطريق الضيّق الذي يمتد بين العقبات التي أقاموها في وسط الكنيسة متّجهين الى المذبح .

وهناك سمعوا أيضاً صوت ريون دور كأنه خارج من الجدار وهو يقول :

– أسرعوا ... لقد نجونا !

وقد رأوا باباً صغيراً مفتوحاً في الجدار وشاهدوا في الفجوة المظلمة شبحاً غامض المعالم ولكن صوت ريون دور كان قد انطلق من تلك الثغرة فصاحوا صيحة فرح ووثبوا يريدون دخول الفتحة الضيّقة وإذا بهم يصطدمون بالجدار ... فإن الباب قد أغلق في وجوههم في اللحظة التي بلغوه فيها . فزأر راكستان قائلاً :

– يا للّعنة !

ثم انقضّ الرجال الثلاثة على ذلك الباب الجهنمي يضربونه بقبضات سيوفهم ولكنه لم يُفتح ولم يجبهم أحد. وعندئذٍ حاول راكستان وميلورد جندارم أن يخلعاه ولكنهما لم يستطيعا حتى هزّه. وعندئذٍ حدثت قعقعة هائلة عند مدخل الكنيسة فالتفت الرفاق الثلاثة نحو تلك الجهة ورأوا أن الحاجز قد انهار وظهر مطاردوهم في الكنيسة وهم يصيحون صياح الموت .

فاضطر راكستان الى ترك البحث عن المنفذ السري ليجابه الخطر الذي أطبق عليه وبدأ فوراً بإسقاط الحاجز الذي أقاموه قرب المذبح . وكانت المقاعد الهائلة الحجم والثقل تتساقط هنا وهناك فتحطّم الرجال وتعرقل سير المهاجمين، وكان ماراسكين وميلورد جندارم قد أسقطا بدورهما الحاجز القائم في الجهة الأخرى من المذبح فأصبح لا بد لرجال دي كيز من إزالة تلك العقبات جميعها للوصول الى الشجعان الثلاثة، الأمر الذي يستغرق

من وقتهم دقيقة أو دقيقتين .

ولما تمّ لراكستان ما أراد من عرقلة سير خصومه لم يعد يهتم بهم بل أسرع الى النافذة ففتحها ورأى أنها تطل على فناء صغير مقفر فاستدار نحو ميلورد جندارم وماراسكين وقال لهما ببرودة هائلة:

– إقفزا .

فأطاع الرجلان دون مناقشة فتسلّقا قاعدة النافذة وقفزا الى الفناء . وكان راكستان في تلك اللحظة يطعن يميناً وشمالاً فيفلق الجماجم ويجندل الرجال صرعى. وفجأة أغمد سيفه بسرعة البرق وتناول المقعد الضخم الذي كانت ريون دور تجلس فيه قبل خروجها من المنفذ السري فرفعه على مدى ذراعيه وطوّحه هنيهة فوق رأسه كأنه الريشة ثم أطلقه يهوي كالصاعقة في قلب كتلة المهاجمين ، فتعالى الأنين وانطلقت اللعنات ، ولكن الفارس لم يعد يهتم بشيء من ذلك بل استجمع قواه للحظة الحاسمة فوثب بخفة الفهد الى حافة النافذة ومنها الى أرض الفناء حيث كان رفيقاه ينتظرانه وقد أشهرا السلاح استعداداً لكل ما قد يجدّ .

فامتشق الفارس حسامه من جديد وسار في الطليعة لأنه الوحيد الذي كان يعرف الطريق .

ولم يكد الرجال الثلاثة يسيرون بضع خطوات حتى ارتفعت الصيحات على حافة النافذة التي قفزوا منها وكان المطاردون يهدرون قائلين :

– أقتلوهم ! أقتلوهم ! أوقفوهم ! أغلقوا الأبواب ! إرفعوا الجسر ! أوقفوهم ! أوقفوهم ! إياكم أن تدعوهم يجتازون أسوار

فانطلق الرجال الثلاثة بأقصى سرعتهم فاجتازوا أروقة وقاعات عديدة ثم نزلوا درجات أحد المداخل وإذا هم في الفناء الكبير أمام البوابة الخارجية لقصر دي كيز .

وكان لا بدّ لهم لاجتياز تلك البوابة من المرور أمام غرفة الحرس حيث كان يوجد ثلاثون جندياً بقيادة أحد الضباط .

ولم يكد الضابط يراهم حتى كانوا قد وصلوا إليه فصاح بأعلى صوته قائلاً :

– قفوا ! الى السلاح ! أغلقوا الـ...

وكان هذا هو كل ما استطاع فعله وقوله فإن ماراسكين كان قد انطلق نحوه في اللحظة نفسها كأنه القضاء المنزل ونطحه في بطنه نطحة ألقته على بلاط الفناء غائباً عن الصواب .

وخرج على أثر صياح الضابط نحو عشرة جنود وهجموا على الفارس ورفيقيه من الأمام، وفي اللحظة نفسها ارتفعت الصيحات على درجات المدخل التي اجتازوها وكان القادمون الجدد جنوداً يقودهم بعض النبلاء وكانوا يصيحون قائلين :

– أوقفوهم ! أوقفوهم ! أغلقوا الأبواب ! إرفعوا الجسر !

وهكذا وجد راكستان وماراسكين وميلورد جندارم أنفسهم بين فرقتين من الجنود : واحدة تقطع عليهم طريق الباب وأخرى تسرع للإنقضاض عليهم من الوراء .

ولكن الأبطال الثلاثة لم يفقدوا ذرّة من شجاعتهم وقد فهموا أنهم الآن أمام الحد الفاصل ، فإما موت وإما حياة ! وقد

قرّروا تحدّي الموت للظفر بالحياة فانتظموا صفاً واحداً متراصاً وانقضّوا كتلة واحدة على الذين يقطعون عليهم الطريق غير عابئين بأسنّة الرماح الموجهة الى أجسادهم .

وشعروا بلحمهم تمزقه تلك الأسنّة وأحسوا بدمهم يسيل حاراً تحت ثيابهم الممزقة، ولكن الحاجز البشري كان قد تشتت وكأنما تشتّت بفعل زلزال مدمّر ! ومرّ الشجعان الثلاثة من خلاله كإسفين من الفولاذ .

ووصلوا الى البوابة الكبيرة فانقضّ راكستان وميلورد جندارم على الجنديين اللذين كانا يحاولان إقفالها وطعن كل منهما رجلَه طعنة ألقته على الثرى يتخبّط بدمه بينما كان ماراسكين يقبض على المفتاح الضخم بكلتا يديه .

وعندئذ استدار راكستان وميلورد جندارم يجابهان الجنود وهما يزأران كأنهما أسدان جائعان وكان في منظر وجهيهما المصبوغين بالدماء اللذين لا يُرى منهما سوى أعين أربع تلمع لمعاناً مخيفاً ما جعل هؤلاء الجنود يترددون هنيهة ، فاغتنم الشجاعان الفرصة وهجما عليهم وهما يضحكان ضحك القانطين ، فذهل الجنود وتراجعوا خطوات .

وكفت تلك الثواني الثلاث التي قضاها الجنود في التردّد ، فإن ماراسكين كان قد فتح البوابة وإذا بكتلة كأنها الشهاب المارق تخرج منها فتقطع الشارع وتدخل آخر حيث تبخّرت .

وهكذا نجح راكستان ورفيقاه في خطتهم الجنونية ومروا بين الجنود وخرجوا من قصر دي كيز وتواروا عن الأنظار .

واستولى الخجل على الجنـود وقد هزمهم رجال ثلاثة فقط فتدافعوا الى الشارع يصخبون ويلعنون وهم لا يعلمون الجهة التي سار فيها الفارّون .

وكان رجل ذو هيئة مشبوهة يتسكّع أمام القصر فرأى الرفاق الثلاثة يخرجون من البوابة على ما وصفناه ، فجعل يتبعهم عن بعد ولا يدعهم يغيبون لحظةً عن نظره .

*

وفي اللحظة التي اجتاز فيها راكستان ورفيقاه الشارع، كانت عربة مقفلة تسير في شارع « الرجل المسلّح » وهي تقلّ ريون دور ، وكانت الفتاة محكمة الوثاق مكمومة الفم .

وتفسير ذلك أنه بعد أن أعطت الدوقة دي كيز معلوماتها بشأن الدخول الى الكنيسة لجوسلين وهرموزا، سارت الشقيقتان في طريق خفيّة الى حيث الباب السري ففتحتاه ودخلت إحداهما الكنيسة بينما لبثت الأخرى تنتظر في السرداب المظلم في أعلى درج صغير حلزوني الشكل حيث كانت تستطيع أن تراقب شقيقتها ، فلبثت تراقبها فعلاً بانتباه بالغ .

ورأت ريون دور فجأةً ذلك الشبح الرمادي يخرج من الجدار خلف المذبح مباشرة فبهتت واقفة وقد استولى عليها الذهول . ولكن الشبح اقترب منها خطوتين وقال :

— أسرعي ونادي المدافعين عنكِ واذهبوا دون أن تضيعوا ثانية واحدة .

فصاحت ريون دور قائلة :

— راكستان ! أسرع الى هنا .

فقال الشبح :

— ناديه مرة أخرى ... ولكن انزلي ولا تنتظريه .

وفي تلك اللحظة كانت الشقيقة الأخرى التي لبثت في أعلى الدرج تأخذ بيد الفتاة وتسحبها صوبها بلطف بينما تابعت الأولى إلحاحها قائلة :

— أسرعي بالنزول أو يُقضى علينا كلنا .

فنزلت ريون دور دون تردّد وهي تنادي راكستان للمرة الثانية . وفي اللحظة نفسها لاح على ملامح تلك التي كانت في أعلى الدرج بريق انتصار ودفعت ، بحركة صاعقة ، الباب الحديدي في اللحظة التي كان الفارس ورفيقاه يبلغونه فيها .

ولما أصبحت النسوة الثلاث في السرداب المظلم ، قادت الشقيقتان ريون دور الى الشارع حيث كانت عربة مقفلة تنتظرهنّ ، فاتّجهن نحو تلك العربة وأزاحت إحدى الشقيقتين بسرعة ستار الباب المؤدي الى المقعد الخلفي وأدخلت رأسها من خلاله فرأت سيداً متستراً بمعطفه يتظاهر بالنوم في زاوية من المقعد ، فأشارت المرأة إليه إشارات ذات معنىً أجابها عليها بانحناءة خفيفة من رأسه . وكان هذا الرجل النذل الحقير غاسبار بنياكل . وبعد أن أعطته المرأة اوامرها الصامتة استدارت وأرادت أن تُصعِد ريون دور الى العربة ، ولكن هذه كانت قد ثارت فيها الشكوك فأعلنت قائلة بحزم :

— لن أصعد طالما أن السيد دي راكستان ليس معنا .

فقالت إحدى الشقيقتين بكل هدوء :

– إن العربة لن تسير دون السيد دي راكستان ، ولكن من الأفضل أن ننتظره في الداخل وليس في الشارع لأننا لا نزال أمام باب القصر ويمكن لمن يرانا أن يعرفنا فيعيدونك أنتِ الى الدوق ولن يقع لكِ أي أمر آخر ... أما نحن فسندفع رأسينا ثمن الخيانة التي ارتكبناها دون أية فائدة . فاذا كان هذا ما تريدينه فقولي .

وقد قالت المرأة ذلك بلهجة أقنعت ريون دور وأزالت شكوكها فتقدّمت من العربة ووضعت قدمها على الدرجة لتصعد، فمد بنياكل لها يده كأنه يساعدها بينما كانت الشقيقتان تدفعانها من الوراء .

وفجأة جذبها بنياكل إليه بقوة هائلة وأطبق بيده الأخرى على عنقها وضغط ، فأنّت ريون دور أنيناً مكتوما وتخبّطت لحظة قصيرة ثم سقطت مغشياً عليها ، فلفّها بنياكل بالمعطف الذي كانت تحمله إحدى الشقيقتين تحت معطفها كما قلنا ، وقيّد يديها ورجليها وكمّ فمها ثم قفز من العربة وانحنى باحترام أمام الشقيقتين ومدّ لهما ، على التوالي ، يده يساعدهما في الصعود .

فقالت إحداهما بلهجة مهدّدة :

– ويل لك إذا كنت قتلتها !

فطمأنها بنياكل قائلاً ببرودة !

– لا تقلقي ، فإنها مغشيّ عليها فقط وها هي قد بدأت تتحرك .

ثم انحنى للمرة الأخيرة وابتعد عن المكان بهدوء ولامبالاة .

ولم يسر بضع خطوات حتى رأى الرجل ذا الهيئة المشبوهة الذي قلنا إنه تبع راكستان ورفيقيه، فتقدّم منه بحذر وهمس في أذنه بضع كلمات ، ثم ابتعد مسرعاً وقد أحكم وضع قناعه الأحمر على وجهه ورفع ياقة معطفه الى منتصف ذلك القناع .

أما الشقيقتان فإنهما أسدلتا ستائر العربة ثم أصلحتا من وضع المعطف الذي لُفّت فيه ريون دور بطريقة تسمح للفتاة بالتنفس وتقيها خطر الموت اختناقاً ، وجلستا بعدئذ وخلعتا قلنسوتيهما فبدا رأساهما المتشابهان . ومن الغريب المدهش أنهما كانتا كلتاهما رصينتين تماماً في تلك اللحظة فظهر الشبه بينهما كاملاً مذهلاً .

وانطلقت العربة ببطء في اتجاه قصر الدوق دي سورباتس زوج جوسلين ذات الرداء الأبيض . وكانت إحدى الشقيقتين تلقي على الأخرى نظراً متوسلاً ذليلاً . والغريب أن العينين المتوسّلتين اللتين كانت تلتمع فيهما الدموع ، لم يكن فيهما أي غضب أو احتقار أو حقد ، بل نوع من عبادة حارة وإعجاب طاغٍ .

سورباتس

*

وعندما علم دي كيز أن راكستان ورفيقيه قد تمكنوا من الفرار غضب غضباً هائلاً لم يعد يجرؤ معه أحد من أتباعه على أن

ينظر إليه أو يكلمه . وكان يمكن للدوقة دي كيز أن تنسحب منذ وقت طويل ، ولكنها أرادت أن تكون حاضرة لتشمت بالدوق وتفرح بهزيمته عندما يرى الكنيسة خالية .

ويجب أن نقول هنا إنها عندما أعطت صديقتيها « الطيبتين » جوسلين وهرموزا التعليمات اللازمة لإنقاذ الآنسة دور بيريف ، كانت تعتقد تماماً أن الفارس ورفيقيه سينجون هم أيضاً . وقد عجبت عجباً شديداً عندما رأتهم لا يزالون في الكنيسة في حين أن الآنسة دور بيريف قد غادرتها . ولكنها لم تعد تعلق أية أهمية على ذلك الموضوع عندما تمكن الفارس ورفيقاه أخيراً من النجاة .

وكانت في تلك اللحظة تتشفّى بالدوق وتشعر بغبطة شديدة لهزيمته وهو المتكبر المتعجرف . وقد تزايد سرورها عندما سمعته يعلن عن فشله بطريقة غير مباشرة فيقول لسان ميغرين بصوت مرتفع :

– أعتقد أيها الكونت أنراكستان قد خدمك خدمة كبيرة بإحباطه مشروع هذا الزواج الذي كنت تريده بكل قواك . وفي جميع الأحوال ، فإنني لم أخفِ عنك شعوري في هذه القضية عندما قلت لك إنك ترتكب حماقة جنونية بزواجك هذا .

– واحسرتاه يا مولاي ، إن هذا الحب لن ينتهي إلا بانتهاء حياتي .

فلم يطرف للدوقة جفن عندما سمعت كلام الكونت وتظاهرت بأنها لم تفهم أن الحب الذي يعنيه هو حبه لها ! وقد

أخفى الدوق غضبه تحت ستار ابتسامة مصطنعة بينما كان الحاضرون يتعجبون من ذلك الغرام الخالد ويرثون في قرارة نفوسهم لحال العاشق المنكود ، فإن الآنسة دور بيريف كانت جميلة جداً في الحقيقة .

ولكن رجلاً واحداً لم ينطلِ عليه كلام سان ميغرين هو الدوق دي سوربانتس الذي كان يستأذن في الإنصراف عندما سمعه ، فمرّت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، إلا أنه أخفاها بمهارة وتابع حديثه مع دي كيز .

وعندئذ لاحظ هذا أن جوسلين وهرموزا قد ذهبتا منذ وقت غير قصير فطرح على سوربانتس سؤالاً في هذا الشأن فأجابه الإسباني قائلاً بلهجة طبيعية جداً :

– إنهما لا تزالان صغيرتي السنّ وقد أثّرت اتهامات راكستان عليهما تأثيراً كبيراً لا سيما وأنهما كانتا تعبدان ابنة عمهما الصغيرة رولاند . ولما رأيتُ ما كانتا عليه من الاضطراب والتأثّر أشرت عليهما بالذهاب بأسرع ما يمكن .

– أرجو أن يكون ما عراهما عارضاً ويمضي ، وسوف أذهب هذا المساء لتفقّد حالهما .

– إنك تعلم جيداً أن بيتي هو بيتك وأن من دواعي سرورنا أن نراك فيه دائماً . وتصافحا بحرارة ، ثم انحنى سوربانتس أمام الدوقة التي أكدت له ، هي أيضاً ، أنها ستذهب بأسرع ما يمكن لزيارة صديقتيها الطيبتين .

وسار سوربانتس في طليعة رجاله العشرة وكان يمتطي جواداً

إسبانيا أصيلا فكان معظم الباريسيين يرفعون له قبعاتهم باحترام. ومن العجب حقاً أن هـذا السيد الكبير كان يجيبهم على تحياتهم بلطف وكياسة متناهيين .

ورغم أنه كان يسير بجواده الهوينا، إلا أنه كان يتأتى له أن يصيح غالباً: « إنتبه يا صديقي ! »، « إحذري يا ابنتي الجميلة ! » وكان الذي يدعوه بكلمة « صديقي » متسكعاً من أقلّ الناس شأناً ، والتي يدعوها بكلمتي « ابنتي الجميلة » خادمة مسكينة ، فكان جميع الذين يشاهدونه على تلك الصورة يتهامسون قائلين : « لو كان جميع النبلاء متواضعين وطيبين مثل هذا السيد الأجنبي لانتفى الفقر والشقاء من بين أبناء الشعب ! »

وهكذا وصل سوريانتس الى قصره ، ولكنه في الحقيقة كان يغلي في داخله. وما إن بلغ الفناء العام حتى قفز بسرعة عن جواده واجتاز درج المدخل بوثبتين ثم انطلق راكضاً نحو قاعته حيث دخل كالعاصفة .

وكان بنياكل ينتظره في تلك القاعة وهو جالس بكل حرية في مقعد كبير موضوع قرب طاولة مكتظة بالملفات والأوراق، وقد نهض واقفاً عندما رأى الدوق وحيّاه باحترام ، فسأله هذا قبل أن يلتقط أنفاسه قائلاً :

– ماذا وراءك ؟

وكان بنياكل يعرف جيداً معنى السؤال ، فأجاب دون تردّد :

– إن الآنسة دور بيريف هنا منذ ربع ساعة تقريباً .

ثم شرح له باختصار ما فعله في هذا الشأن . ولما انتهى سأله قائلاً :

– أتريد أن تراها يا مولاي ؟

فرفض سوريانتس بحدّة قائلاً :

– لا، لا، لا أريد أن أراها. إنني أجهل وجودها هنا وأجهل كل شيء يتعلق بهذه القضية ! كل شيء ... أتسمع يا بنياكل؟

فقال بنياكل بعدم اكتراث :

– حسناً يا مولاي .

فأوضح سوريانتس قائلاً :

– إنها قضايا نساء ولا أريد أن أتدخل فيها .

ثم أضاف يقول بابتسامة حادة :

– يا للشيطان ! إن الدوقة دي كيز لن تغتفر لي تدخلي في أعمالها .

وأردف يقول ببطء وهو يضغط على الكلمات :

– إذ إنها هي التي أرادت هذا الإختطاف ومهّدت له بالإرشادات التي أعطتها . وقد نفّذت الدوقة دي سوريانتس وشقيقتها هرموزا تعليماتها بدافع الصداقة . أتفهم يا بنياكل؟

فابتسم بنياكل دلالة على الموافقة. وعاد سوريانتس يسأل قائلاً:

– ماذا تفعلان الآن ؟!

– إنهما تحرسان الآنسة دور بيريف وتراقب كل منهما الأخرى بصورة متواصلة . وأرى من واجبي أن أنبهك فوراً يا مولاي الى أنهما ترتديان معطفين رماديين يلفّانهما من قمة الرأس الى أخمص

القدمين ، وكلاهما تظهران الوجه الجامد نفسه الذي لا يُسبر غوره والذي اعتدنا أن نراه للسيدة هرموزا . وهذا يعني أنه من المستحيل الآن معرفة الدوقة من شقيقتها .

فوافق سوريانتس قائلاً :

– لقد أحسنت صنعاً بتنبيهي .

وأضاف يقول :

– وكيف اتفق أن جوسلين الضاحكة أبداً تستطيع أن تُكسب وجهها طابع الرصانة والجدية ؟

فقال بنياكل :

– لا أعلم يا مولاي كيف اتفق ذلك ، ولكنني أعلم أن حضرة الدوقة تستطيع أن تظهر رصانة هائلة عندما تريد .

وخفض من صوته وقال وكأنما يخاطب نفسه :

– كما أن الآنسة هرموزا تستطيع عندما تريد أن تظهر ضاحكة مرحة كحضرة الدوقة ! وعندئذٍ كيف أعرف من هي ...

فقاطعه الدوق قائلاً :

– ماذا ؟ ألا تزال تبحث لتعرف من هي السيدة ؟ ما أشدّ عنادك !

ثم أضاف بلهجة من يشبع فضول ولد عنيد فقال :

– إنني ، مثلك تماماً ، أجهل من هي السيدة ، وقد بحثتُ عن ذلك طيلة سنوات وسنوات فذهبت جهودي عبثاً مع العلم بأن وضعي يخولني أن أنجح أكثر منك . فكيف تريد إذن أن تعلم

أنت ما لم أعلمه أنا ؟

وكأنما زاد تأثره فأردف يقول :

– إنني لم أعلم ، أتسمع يا بنياكل ؟ لم أعلم ولم أتقدّم في هذا الشأن عما كنت عليه في اليوم الأول . فتارةً أقول إنها جوسلين وأقسم على ذلك مقابل رأسي ! وطوراً أقول ، بالحماس والأقسام نفسها ، إنها هرموزا .

فغمغم بنياكل قائلاً بصوت خفيض :

– مثلي ، مثلي !

– نعم ، مثلك تماماً . إن التي ندعوها السيدة ، وهي ذات المطامع الكبيرة التي دفعتنا كلينا الى الجريمة ، قد تكون زوجتي وقد تكون شقيقتها ... وأنا أجهل ذلك تماماً . وقد أقلعت عن البحث خوفاً من أن أفقد صوابي . نعم ، وأقسم على خلاص نفسي أنني أفضل أن لا أعلم ويحسن بك أن تفعل مثلي وتقلع عن البحث .

– هذا ما قلته لنفسي وقد كففت عن البحث ولكنني أنسى أحياناً ...

وكان بنياكل صادقاً في قوله هذا ، فلاحت على شفتي الدوق دي سوريانتس ابتسامة ساخرة وقال بلهجة قاطعة :

– لندع ذلك فإننا نضيع وقتنا ، ولنعد الى الآنسة دور بيريف .

ثم حدّق في وجه بنياكل وأردف قائلاً :

– إنك رأيت تلك الفتاة ، رأيتها جيداً أليس كذلك ؟

– إنني أفهمك يا مولاي . نعم رأيتها جيداً ودرست ملامحها

بانتباه، وأؤكد لك أن السيدة مخطئة فإن رولاند دي مونكابيه ليست في عالم الأحياء .

فأعلن سوريانتس قائلاً :

– أنا أثق بك وقد صدقتك . وإذا كان الأمر كما تقول فمن الخطأ الفظيع أن تُقتل تلك الفتاة وأنا أخشى أن ترتكب السيدة ذلك الخطأ .

– وهل تنسى يا مولاي أن شقيقة السيدة تسهر على الفتاة ، وأنها لن تدعها تفعل ؟

فتأمله سوريانتس لحظةً بدهشة كبيرة ثم ترك التمثيل وصاح قائلاً :

– أيمكن أن تكون قد أسأت معرفة السيدة الى هذا الحد ؟!

ثم خفض من صوته وأردف يقول باقتناع كلي :

– إذا أرادت السيدة أن تضرب فإنها، عندما تريد وكما تريد وفي اللحظة التي تحددها ، تضرب دون أن تستطيع قوة بشرية أن توقفها . أتقول أختها ؟! ... ولكنها لا تزن كثيراً بين يديها ... أختها المسكينة ! وإذا لم تضرب الى الآن فليس لأن أختها تراقبها كما تعتقد... بل لأنها لم تعد ترَ بعد ضرورة لذلك !

وتابع قائلاً :

– إن أختها ستضايقها دون شك ، ولكنها لن تمنعها من تنفيذ ما تقرره . ولنعد الآن الى موضوع حديثي ، فإذا قررت السيدة قتل تلك الصغيرة فإنها ستكلفك بذلك دون شك ، وعندئذ يجب عليك أن تُفهمها أن فعلها حماقة غير جديرة بذكائها.

– وإذا أكدت لي أنها حقاً رولاند دي مونكابيه ؟

فقال الدوق بحدة ظاهرة :

– عندئذ يختلف الأمر ، فإن السيدة لا تؤكد أبداً إلا عندما تكون واثقة تماماً. وفي تلك الحالة يجب تنفيذ أمرها دون أي تردد .

وشفع الدوق كلامه بحركة هائلة جاءت تتمة الحكم بالموت على ريون دور .

فقال بنياكل بلامبالاة رهيبة :

– حسناً يا مولاي .

فسكت الدوق لحظة قصيرة وعاد يقول :

– إن العدو الرهيب حقاً في هذه القضية هو راكستان الذي يستخدم تلك الفتاة كأداة للوصول الى هدف لا يخفى على اللبيب . وعندما أفكر في أن دي كيز كان يمسكه وأنه تركه يفر ...

وضرب الطاولة بقبضة يده وانفجر غضبه يفضح كثيراً من شعوره الحقيقي فقال بصوت يتهدج من الإنفعال :

– إن مثل تلك الأمور لا يقع إلا للدوق دي كيز ! يا للشيطان ! وتشاء الظروف أن يحلم ذلك المتطرف البارع فقط في مغازلة النساء بإبدال تاج الدوقية بتاج ملكي ! ... ويشاء القدر أن يدفع الشعب ذلك المتعجرف الى سدة الملك ! ... ولكن صبراً فأنا هنا ... ويجب أن يُحسب حسابي عندما أقرر أن اللحظة الحاسمة قد أتت .

ثم هدأ فجأة كأن شيئاً لم يكن وتابع إعطاء أوامره قائلاً:

— يجب أن تقول للسيدة إن راكستان هو الذي عليها أن تهتمّ به قبل أي إنسان آخر وقبل كل شيء.

فقال بنياكل:

— إن السيدة فكّرت فيه وقد أرسلتْ في أثره، بناء على أمرها، أحد رجالي وسوف نعلم أين نجده قبل مضيّ وقت طويل.

فقال سوريانتس بإعجاب ظاهر:

— هكذا إذن! لقد توقّعت السيدة نجاة راكستان كما توقّعتْ تدخّله! ولو عاد الأمر لها لما تركته يخرج حيّاً من قصر دي كيز. يا لله! إننا لسنا سوى تلامذة الى جانبها!

ونهض فجأة وأخذ يتمشّى بعصبية، ثم تجهّم وجهه وبدا أنه محطّم القوى، وكان يمشي ويعيد كلامه قائلاً:

— نعم، إننا تلامذة الى جانبها!... ونحن أيضاً لا نزن كثيراً بين يديها... وفي اليوم الذي ترى فيه أن مصلحتها تقضي بالتخلّص منا... إن ذلك اليوم الرهيب يقترب بالنسبة إليّ على الأقلّ...

وكان بنياكل يتأمله بفضول وقلق بينما كان هو يراقبه من طرف خفيّ كأنما يريد أن يسأله عن أمر خطير لا يجرؤ على الإفصاح عنه... وفجأة استعلم قائلاً:

— هل اكتشفت ذلك السائل العجيب الذي طلبته منك؟

فأجاب بنياكل:

— الدواء العام ضد السموم؟ إنني أتابع أبحاثي يا مولاي وأعتقد أنني في الطريق القويم.

فقال سوريانتس لاهثاً:

— أتعتقد أنك تنجح قريباً؟

— قريباً، نعم يا مولاي. أي بعد عام أو عامين.

فانتفض سوريانتس قائلاً:

— عامان؟! أتطلب مني أن أنتظر عامين؟

ثم أعرب عن فكرته رغماً عنه فقال:

— ولكن ألا تعلم أيها الغبي أنني قد أموت خلال أسابيع... وربما خلال أيام؟!

— ولماذا يا مولاي؟ إنك مملوء صحة ونشاطاً، فضلاً عن أنك لا يزال في عنفوان...

فقاطعه سوريانتس بحدّة:

— ليست القضية قضية صحتي ولكني أخشى أن تقتلني السيدة... أظنك بدأت تفهم، أليس كذلك؟

— أظن أنك مخطىء يا مولاي، فإن السيدة ليس لها أية مصلحة في التخلّص منك.

وكانا يتكلمان بصوت خفيض وقد شحب وجهاهما وعراهما اضطرات شديد. والغريب في الأمر أنهما كانا، مع ذلك، يريان طبيعياً جداً أن تتخلّص تلك المرأة الرهيبة منهما عندما لا تعود بحاجة الى خدماتها.

فقال الدوق:

– وأنا أقول لك إني أصبحت أضايقها الآن وإنها قد حكمت عليّ بالموت . وسوف تطلب منك خلال بضعة أيام ، وربما اليوم ، أن تجرّب فيّ مفعول ذلك السمّ الذي أعددته لهنري الثالث .

وسكت لحظة ثم أضاف يقول بلهجة المتشكّك :

– ربما تكون قد فعلتَ ذلك .

فقال بنياكل :

– أقسم لك يا مولاي أنها لم تطلب مني شيئاً الى الآن .

وفهم سوريانتس أنه صادق في قوله فتنهّد ارتياحاً وقال بهدوء ظاهري :

– سوف تفعل ذلك خلال وقت قريب ، وأنا لا أطلب منك أن تعصى أمرها فانني أعلم جيداً أنك لا تستطيع العصيان إلا إذا كنت تريد أن تحطّمك أنت أيضاً .

فأطرق بنياكل ولبث صامتاً . فقال سوريانتس ببساطة :

– لنقلع عن الكلام في هذا الموضوع .

وأطرق برأسه هنيهة وكان يبدو عليه أنه يسلّم بما قُدّر له، ثم رفع رأسه وقال :

– لقد حان الوقت لأظهر لك ثقتي بك باطلاعك على مشاريع لا يعرفها سوى جلالة ملكي فيليب الثاني ملك إسبانيا. وسترى الى أي هدف عظيم تمتدّ مطامعي إذ أن لي ، أنا أيضاً ، مطامع سرية .

وبعد أن قال الدوق ذلك نهض بهدوء وذهب الى البابَين الموجودَين في القاعة فأقفلها ودفع المزلاجَين ، وعاد بعد ذلك

الى خزانة من خشب الأبنوس ففتح درجاً سرّياً فيها وأخرج ورقة مختومة بشعارات إسبانيا، ثم عاد الى مقعده فجلس ووضع الورقة على الطاولة أمام بنياكل وقال له بصوت رصين آمر :

– إقرأ .

فأطاع بنياكل وتناول الورقة وفتحها . وما إن صافحت عيناه سطورها الأولى حتى بدأت ترتجف في يده . ولما انتهى من قراءتها سقطت على الطاولة دون أن يدري لشدّة ما عراه من الاضطراب ، وقد نهض بسرعة كبيرة وانحنى أمام سوريانتس ولبث واقفاً وهو يغمغم قائلاً باحترام عميق :

– إنني أحلم دون شك ! ... ماذا ؟ ألعلّك جرؤت على أن تحلم ذلك الحلم الاسطوري ؟! وساعدتك الظروف في تحقيقه ؟.. يا لله ! وهل هذا ممكن ؟ ! مملكة فرنسا العظيمة ... القوية ... تحت حماية إسبانيا ! ... وأنت يا مولاي نائب ملك فرنسا !... ولك من السلطة والنفوذ ما للملك نفسه !

– إنك لا تحلم وقد قرأت وفهمت جيداً .

وترك لبنياكل الوقت الكافي ليعود الى نفسه، ثم أوضح قائلاً:

– إنك فهمت تماماً مضمون الورقة ، فإن القضية قضية حماية وليست ضمّ فرنسا الى إسبانيا . سوف تبقى هذه البلاد متمتّعة باستقلالها وسيكون ملكها ووزراؤها ومستشاروها وموظفوها جميعهم فرنسيين ولن يتدخّل إسباني واحد في شؤونها العامة . سيكون نائب الملك هو الأجنبي الوحيد . وكن على يقين من أن شعب باريس عندما يعلم أن ذلك الأجنبي هو أنا.. فإنه سيستقبلني

بالهتاف والترحيب... على شرط أن أظلّ في قيد الحياة الى تلك اللحظة إذ أنه يجب ألا ننسى أن السيدة قد حكمت عليّ بالموت .

– وإذا متّ قبل ذلك يا مولاي ؟

– لن أصبح نائب الملك في تلك الحالة ... إلا أنني ...

وترك جملته معلّقة هنيهة ثم تابع يقول بابتسامة غامضة :

– إلا أنني قد اتّخذت احتياطاتي، أي أن دي كيز سيموت قبل أن يصبح ملكاً ، وهذا يعني أن السيدة لن تكون ملكة ، وأنت لن تكون وزيراً .

فقال بنياكل دون أن يطرف له جفن :

– لقد فهمت. ولكن من الممكن أنك تخطىء يا مولاي وأن السيدة لن تعطيني أبداً أمراً بقتلك .

– هذا ممكن وإن كنت لا أعتقد به . وعند ذلك يصبح دي كيز ملكاً والسيدة ملكة وتصبح أنت وزيراً ، إنما ...

– إنما ؟

– أنا أعرف دي كيز كما أعرف السيدة ، وأعترف بكل صراحة بأن السيدة أقوى مني ولكنها ذات مطامع تفوق مطامعي ، فضلاً عن أنها امرأة ، أي أنها لا تعرف القناعة بل ستظلّ تهدف دائماً الى الصعود وسوف تُرغِم دي كيز – عندما يصبح ملكاً – على أن يجاريها في أهوائها. وعندئذ تفسد الأمور بسرعة... فأتدخّل أنا ويُقضى على دي كيز . وبذلك لن تبقى السيدة ملكة ، كما أنك أنت لن تبقى وزيراً . وعند ذلك أحلّ أنا محلّ دي كيز مكتفياً بلقب نائب الملك المتواضع .

وشعر بنياكل بأحلامه تنهار فأطرق برأسه والغصّة تخنقه .

فابتسم سورياتس وقال ببرودة :

– إن الضربة قاسية بالنسبة لك على ما أظنّ !

ثم تأمّله لحظة بصمت وعاد يقول بلهجة المشفق المحتقر :

– ولكنني أريد أن أفعل شيئاً لأجلك مقابل الخدمات التي أدّيتها لي وسأدلك على الطريقة التي أصبح بها وزيراً وتبقى في مركزك حتى ولو حللت أنا محلّ دي كيز .

فصاح بنياكل قائلاً :

– إنني خادمك المطيع يا مولاي فمرني بما تريد حتى ولو بالنضال ضد السيدة .

فابتسم سورياتس وقال ببرودة هائلة :

– إن هذا شأنك ... وكل ما يهمّني أنا هو أن أظلّ في قيد الحياة ، أتسمع يا بنياكل ؟ أنا لا أريد أن تقتلني السيدة كما قتلت الأستاذ لوران ديزارشيل والأمير دي مونكابيه والأميرة رولاند، وكما ستقتل الآنسة دور بيريف وراكستان والدوقة دي كيز وهنري الثالث والدوق دي كيز وآخرين أيضاً ، وكل الذين يقفون عقبة في طريق مطامعها الجامحة . أريد أن أعيش ... وخاصة في هذا الظرف الذي أكاد أبلغ فيه ما تصبو إليه نفسي. ولذلك أقول لك إذا كنت تريد أن تكون وزيراً فأنا الوحيد الذي أستطيع أن أنيلك تلك الأمنية على شرط أن أظلّ حياً . فتصرّف بطريقة تمنع السيدة عن قتلي .

وكان بنياكل قد علم تماماً الى أين سيصل الدوق بكلامه فقال

بحزم :

– لقد فهمت تماماً يا مولاي ما تعنيه وأنا مستعدّ للنضال ضد السيدة وسوف أكون مسؤولاً عن حياتك على شرط أن تجعلني وزيراً .

فمدّ سوريانتس يده نحو الطاولة وأخذ ورقة فكتب عليها بضعة أسطر ثم عرضها على أنظار بنياكل وهو يقول :

– هوذا أمر تعيينك .

ثم نهض وذهب الى الخزانة ففتح الدرج السرّي ووضع أمر التعيين مع الورقة المختومة بشعارات إسبانيا التي ستجعل منه نائباً لملك فرنسا ... وعاد يقول :

– عندما يناديني شعب باريس نائباً لملك فرنسا ، عد إليّ يا حضرة الوزير واطلب مني ذلك الأمر الذي ينتظرك في الدرج.

ثم صرفه بإشارة ملكية قائلاً :

– إذهب .

فانحنى بنياكل أمامه كما ينحني أمام هنري الثالث وخرج متراجعاً .

فتابعه سوريانتس بأنظاره الى أن أغلق الباب عليه، وعندئذ تنهّد تنهدة ارتياح وغمغم قائلاً :

– عندما أصبح السيد المطلق ، وبعد أن يؤمّن لي بنياكل حياتي ويخلّصني نهائياً من السيدة ، فعندئذ سيأتي دوره ... إن سوريانتس نائب ملك فرنسا ... لن يرتكب أبداً غلطة الإبقاء على حياة رجل مثل بنياكل يعرف ماضيه الرهيب ... كما يعرفه

هذا الرجل !

ثم جعل يتمشى ببطء وهو سابح حالم وكان يقول في نفسه بكبرياء :

– « نائب ملك يعني ملكاً تقريباً ! ... وماذا يجب ليصبح ملكاً ؟ حذف مقطعَين صغيرَين فقط ... صبراً ... صبراً ... وعندما يتأمّن نفوذي تماماً... سوف أفكّر في تقصير لقبي ! »

شارع ترياندري

*

اجتاز راكستان وميلورد جندارم وماراسكين شارع «براك» بسرعة البرق وقطعوا شارع التامبل الكبير ببضع وثبات ثم دخلوا شارع ميشال لو كونت . وهناك خفّفوا من سرعة عدْوهم لأنهم لم يعودوا يستطيعون الركض على تلك الصورة ، وأغمدوا سيوفهم وخناجرهم وساروا يقصدون شارع ترياندري .

وكان جنود دي كيز قد فقدوا أثرهم فعادوا الى القصر ، ولكن الرجل الذي كان يتعقّبهم بأمر بنياكل لبث سائراً وراءهم وهو لا يدعهم يغيبون عن نظره لحظة واحدة .

وكان الرفاق الثلاثة يقصدون مسكنهم في تلك اللحظة وقد أحسّوا بألم الجراح التي كانت تكسو أجسامهم بشكل رهيب ، فضلاً عن أن الدماء التي فقدوها جعلتهم يشعرون بالضعف والخوار.

ووصلوا الى شارع ترياندري وكانوا على بضع خطوات من مسكنهم عندما شعر راكستان بأن هنالك مَن يتبعهم . وتأكّد

لديه أن الذين يتبعونهم يريدون أن يعرفوا منزلهم لسبب يجهله ، فقرّر أن لا يدخل البيت ونبّه رفاقه فتخطّوا المنزل وساروا مع وجههم في الشارع .

ولكنهم لم يذهبوا بعيداً ، فعند وصولهم الى أمام منزل العجوز لابواس سقط راكستان على الحضيض مغشياً عليه . ولم تكن إصابات ميلورد جندارم ومازاسكين تضاهي إصاباته ، وكان من الممكن أن يسيرا بضع خطوات أيضاً ، ولكنهما عندما رأيا سيدهما غائباً عن الرشد خارت قواهما فرقدا قربه بطريقة جعلا بها من جسديهما واقياً لجسده وغابا عن الرشد بدورهما .

فاجتمع فوراً على الرجال الثلاثة جمهور كبير من الفضوليين . وقالت إحدى العجائز وقد أعجبتها هيئة راكستان :

— يجب رفعهم وإيواؤهم في أحد المنازل وتقديم العناية اللازمة لهم . يا لله ! إننا لا نستطيع أن ندع مسيحيين مثلهم يموتون هكذا في الشارع .

وعندئذ وصلت العجائز الأربع كورج وتوماس وبونيون وبينيات ، ولما عرفن في راكستان ذلك السيد الذي هدّدهن بقطع ألسنتهن وإلقائها للكلاب ، وعرفن في ميلورد جندارم ومازاسكين اللذين كانا يرافقانه ، انفجر حقدهنّ فأخذن يحرّضن الجمهور على قتلهم . والله أعلم ما كان يؤول إليه مصير الرفاق الثلاثة لو لم تأتهم في تلك اللحظة نجدة غير متوقّعة بأشخاص الفتيات الجميلات الثلاث : سافير وموسكاد وبرغاموت .

ولم يكن وحدهنّ ، بل كان مع موسكاد خطيبها جيهان جيهين حفّار القبور في تربة الأبرياء . وقد تدخلت الفتيات الشجاعات فأطلعن الجمهور على حقيقة العجائز اللعينات ، ولم تكتف برغاموت بذلك بل هجمت عليهنّ محتقنة الوجه مهدّدة متوعّدة ، فهربن وتغلغلن بين الحاضرين .

وعندئذ تشاورت برغاموت ورفيقتاها بالنظر فقرّرن أن ينقلن الجرحى الثلاثة الى منزل لابواس حيث يقدّمن لهم العناية اللازمة التي تستوجبها حالتهم ويحتفظن بهم الى أن يشفوا من جراحهم .

وفي اللحظة التي بدأن فيها تنفيذ ما قرّرن وصل ترومبافيور — الذي عرفناه في سابق الكلام مطيعاً لأوامر القوّادة لابوّاس — وتابعه سبارتيموسكا وعرفا فوراً الجرحى الثلاثة فانفجر حقدهما ، وكان ترومبافيور يحقد على راكستان لأنه ضربه ضرباً مبرّحاً أمام حانة تروي فيديل ، بينما كان سبارتيموسكا يحقد على ميلورد جندارم لأن يده اصطدمت بوجهه في ساحة غريف وحطّمت له ضرسين من أضراسه .

وقد قال سبارتيموسكا لرفيقه :

— يجب أن نستل أمعاءهم هذه المرة .

فرفع ترومبافيور قبضته الهائلة وزمجر قائلاً :

— يجب أن أنهي أمر عدوّي بهذه القبضة !

وكاد يضع كلامه موضع التنفيذ ، ولكن سبارتيموسكا كان حذراً فقال له :

– على مهلك ولا تتصرّف بحماقة فإنك إن فعلت ذلك الآن يطبق علينا الجمهور وهيهات أن ننجو من غضبه .

وفي تلك اللحظة عينها رأتها الفتيات الثلاث فقلن لها :

– هيّا وساعدانا على نقلهم الى منزلنا .

فنبّه سبارتيموسكا رفيقه بضربة من كوعه وهمس في أذنه قائلاً :

– عندهنّ ... أي عند لابواس ! وأيّ فرق بين منزل لابواس ومنزلنا ؟

ففهم ترومبافيور كلام رفيقه فتنهّد ارتياحاً وهو يقول في نفسه : « إن السيد اللعين قد أصبح تحت رحمتي ! »

وأسرع الرفيقان يساعدان الفتيات في نقل الجرحى . فحملت برغاموت وسافيرا راكستان، وحملت موسكاد وخطيبها ماراسكين، وتعهد ترومبافيور وسبارتيموسكا بنقل ميلورد جندارم الذي كان أثقل الثلاثة وزناً .

ومن عجائب الصدف أن ترومبافيور رفع فجأة ذراعي ميلورد جندارم في اللحظة التي كان فيها رفيقه ينحني ليرفع رجليه فارتطمت يد العملاق بوجه سبارتيموسكا فسقط على ظهره وسط قهقهات الحاضرين وسخريتهم .

فنهض وقال بغضب :

– إن هذا السخيف الوقح لا يكفّ عن إيذائي حتى وهو غائب عن الصواب ! ... ولكن صبراً ، فإذا نجوت من الموت أيها الشقي فأقسم بالعذراء أنك لن تنجو مني !

وعندما رأت لابواس الجرحى الثلاثة في منزلها غضبت غضباً شديداً وصاحت قائلة :

– ماذا ؟! أتريدون أن تجعلوا من بيتي مستشفى؟ أخرجوهم الى الشارع فوراً فإنني لا أريدهم عندي .

فقالت برغاموت ببرودة :

– إسمعي يا لابواس، إننا نأخذهم الى مكان آخر إذا كنتِ تريدين ...

فقاطعتها العجوز قائلة :

– خذيهم الى الشيطان .

فقالت برغاموت بالبرودة نفسها :

– ولكننا سنبقى معهم ولن نعود الى منزلك أبداً .

ففعل تهديد الفتاة فعله في نفس العجوز ، فضلاً عن أن ترومبافيور كان قد تحيّن فرصة وهمس في أذنها ببضع كلمات فلطّفت من تصلّبها وقبلت . فنُقل الجرحى الثلاثة الى الطابق الأول حيث مُدوا على أسرّة الفتيات . وانسحب ترومبافيور وسبارتيموسكا على الأوتار كين جيهان جيهين مع الغانيات الثلاث.

وكان خطيب موسكاد على إلمام ببعض قواعد الطب فأخذ على عاتقه أمر العناية بالجرحى. وبدأ فوراً يفحص جراحهم بينما كانت الفتيات الثلاث يهيّئن الضمادات والمطهّرات وما إليها . ولما نزع جيهان ثياب راكستان بدا الفارس مكسوّاً بالدم من قمة رأسه الى أخمص قدميه، فضلاً عن أن الجراح التي في جسده لم تكن تُحصى ، فقال بعجب شديد :

– ليساعدني أسكليبيوس الإلهي فان هذا ليس جسداً بشرياً!
وبعد أن عاين الجراح طمأن الفتيات بقوله :

– أقسم بالقديستين بوليمني وكاليوب شفيعتي ، أنها أعجوبة حقاً أن لا يكون أحد هذه الجراح مميتاً ، فهي كلها خدوش وإن تكن مؤلمة إلا أنها بسيطة . وخلال بضعة أيام لن يبقى منها شيء . فلنرَ الآخرين .

ولم تكن إصابات الرفيقين أخطر من إصابات الفارس ، فغسل جيهان جراح الرجال الثلاثة وضمّدها ثم ذهب الى طبيب فأتى ببعض المراهم والأدوية . وكانت الفتيات الثلاث يثقن بعلمه فاطمأنت خواطرهنّ وأعلنت برغاموت قائلة :

– بما أن الصدفة قد وضعت هذا في سريري فانه سيكون مريضي الذي لن أتركه لا ليل ولا نهار الى أن يؤكد لي سيدي العلاّمة جيهان جيهين أنه نجا من الخطر .

وكان « هذا » هو ميلورد جندارم .

وقالت سافير وهي تجلس قرب رأس سرير ماراسكين :

– وأنا أفعل فعلك نفسه لأجل مريضي .

وقالت موسكاد :

– وأنا أفعل فعلكما لأجل هذا النبيل الشجاع !

وبدأت الفتيات الثلاث الطيبات يعتنين بمرضاهنّ باخلاص وتفانٍ بززن بها أعظم راهبات البرّ والإحسان .

أما الرجل الذي كان يقتفي أثر الفارس ورفيقيه بناءً على أمر بنيا كل فانه لبث يتبعهم خطوة خطوة ولم يتركهم إلا بعد

أن رآهم يُحملون الى منزل لابواس . وعندئذ حفظ عنوان المنزل جيداً في ذاكرته وذهب الى قصر سوريانتس حيث رفع تقريره الى بنيا كل الذي كان ينتظره بفارغ صبر ، إذ أنه كان يجب عليه أن يعود الى اللوفر ، الى خدمة ملك فرنسا على ما علمنا.

عند الفتيات الثلاث

*

وفي اليوم التالي تحسنت أحوال راكستان وماراسكين وميلورد جندارم بفضل عناية جيهان جيهين وفعل أدويته ، ومن جهة ثانية لأن بنية الجرحى الثلاثة القوية انتصرت على الضعف والخطر .

وكان راكستان قلقاً من ناحية ربون دور يريد أن يذهب للبحث عنها ، فشكر جيهان والفتيات الثلاث من كل قلبه وألمح الى فكرته بهدوء وبرودة ، فابتسم جيهان جيهين ولم يظهر أية معارضة بل قال بكل بساطة :

– حاول أن تنهض يا سيدي .

وحاول راكستان فعلاً ، ولكنه صاح صيحة ألم عند أول حركة قام بها وقال بغضب :

– يا للشيطان ! وهل سأظل وقتاً طويلاً مستمراً في هذا السرير ؟

فقال جيهان جيهين بابتسامته اللطيفة الحزينة :

– ثمانية أيام على الاقل يا سيدي النبيل .

ورأى الفارس يأتي بحركة تدل على الانزعاج فأردف قائلاً :

– أقسم بأبولون ابن جوبيتر ولاتون أنه يجب أن تكون سيداً جداً بهذه النتيجة .

فصاح راكستان قائلاً بيأس :

– ثمانية أيام ؟ !

وأردف يقول بصوت مؤثر :

– وماذا يحل بتلك التي أحبها خلال هذه المدة الطويلة ؟

فقالت الفتيات الثلاث مشفقات :

– يا للأميرة الصغيرة المسكينة !

فأعلن راكستان قائلاً بعزم :

– يجب أن أبدأ البحث عنها بعد ثلاثة أو أربعة أيام على الأكثر ، وأرجو أن تشفق عليّ السماء فلا أصل متأخراً .

فتأثر جيهان جيهين من كلامه ووعده بأنه سيفعل المستحيل ليحقق رغبته . فلم يهدّئ ذلك الوعد راكستان إلا نصف تهدئة ، ولكنه صبر على الضيم وألحّ على الفتيات الثلاث بأن يأخذن لأنفسهنّ بعض الراحة ، فرفضن ، فقال لهن :

– إذهبنّ على الأقل في نزهة تروّح عن أنفسكنّ فان فتيات جميلات مثلكنّ هنّ كالزهرات التي تذبل وتموت إن لم تتمتع بأشعة الشمس ودغدغات النسيم اللطيف .

فأطاعت الفتيات أخيراً وذهبن برفقة جيهان جيهين الذي كان يمسك بيد موسكاه ويتأملها بعبادة وخشوع . وعندما خرجوا

الى الشارع قال جيهان بلطف وظرف :

– إذا أردتنّ يا آنساتي فسآخذكنّ لزيارة قبور الأبرياء فانها زيارة مشوّقة رائعة وسأقرأ وأشرح لكنّ ما كتب على تلك القبور وهو جميل جداً وايم الحقّ .

وبينما كان جيهان جيهين يتوجّه مع رفيقاته نحو تربة الأبرياء كان ترومبافيور وسبارتيموسكا في منزلهما يتحدّثان بشأن راكستان وينتقيان الميتة التي سيجرّعانه إياها .

وقد خرجا من المنزل دون أن يقرّرا شيئاً وسارا نحو منزل لابواس . ولما اقتربا منه قال سبارتيموسكا قلقاً :

– هل وجدت الوسيلة التي ستتخلّص بها من راكستان ؟

فقال ترومبافيور بحقد هائل :

– نعم .

ثم وقف وشمّر عن ساعده المفتول الضخم الذي ينتهي بقبضة هائلة وقال :

– سوف أقتله بهذه المطرقة ... وسأظلّ أضرب رأسه حتى أحطم دماغه .

وكادا يدخلان منزل العجوز . وفي تلك اللحظة وقف بينهما شبح ملتفّ بمعطف رمادي وهو يمدّ نحو كل منهما يداً تحمل صرّة منتفخة ويقول :

– خذا .

فمدّا يدين خشنتين مكسوّتين بالشعر ، واختفت الصرّتان للحال ... ورأيا أنهما في حضرة امرأة ، ولكنهما لم يلقيا بالاً الى

ذلك فما دامت قد اشارت حق الأمر فعليها الطاعة ، فضلاً عن أن هيئة تلك المرأة كانت جديرة باحترامها ، فرفعا قبعتيهما وانحنيا انحناء عميقاً ولبثا ينتظران .

فسألت المرأة ترومبافيور قائلة :

– ما اسمك ؟

وكانت لهجتها مقتضبة باردة توحي بالخضوع ، ففهم ترومبافيور أنها معتادة على إعطاء الأوامر ، فأجاب قائلاً :

– ماذا ؟ ! وهل يمكن أنكِ لم تسمعي من يتكلم عن ترومبافيور الذي لا يوجد اسم يفوق اسمه شهرة في عالم المتشردين ؟

واغتاظ سبارتيموسكا لأنها لم تسأله شيئاً فألقى الى ما حوله نظرات هائلة وفتل شاربيه الكبيرين الأسودين وقال :

– إن حضرة السيدة العظيمة لا تغشى على ما يظهر مجتمعنا المرموق وإلا لسمعت باسم ترومبافيور الشهير واسم الذي لا يقل عنه شهرة سبارتيموسكا رفيقه وصديقه ، ونحن في خدمتك يا سيدتي .

فأصغت إليهما دون أن تنبس بكلمة أو تأتي بحركة وكانت هادئة باردة لا يسبر غورها . ولما انتهيا من كلامهما تطلعت فيهما بنظرة نارية وقالت :

– أريد أن أرى راكستان الذي كنتما تتحدثان عنه وأكلمه ، فهل يقيم في هذا البيت ؟

فقطب ترومبافيور حاجبيه وزمجر قائلاً :

– إنهم حملوه الى هنا فعلاً .

– قفا أمام هذا الباب ولا تدعا أحداً يدخل طالما أنا في البيت . وعندما أخرج سأقول لكما إذا كان يجب أن تقتلا الرجل أو لا . وكونا مطمئنين ، ففي كلا الحالتين ستأخذان مكافأة ملكية .

ثم فتحت الباب وهي واثقة تماماً من أنهما سيطيعان أمرها ودخلت وأغلقته في وجهيهما . فلبثا على العتبة ينظر كل منهما الى الآخر بدهشة ، وقال سبارتيموسكا مذهولاً :

– يا للعنة ! لا بد أن تكون ، على الاقل ، دوقة متنكرة لكي تتجرأ وتكلمنا بتلك اللهجة !

فاعترف ترومبافيور قائلاً :

– لم تؤثر عليّ امرأة مثلما أثرت هذه عليّ .

ولبث الإثنان أمام الباب وقد عزما على أن لا يدعا أحداً يقترب منه .

أما المرأة التي دخلت المنزل فانها وضعت في يد لابواس بعض القطع الذهبية وقالت بلهجتها الآمرة الباردة :

– أريد أن أتكلم مع أحد جرحاكِ .

فذهلت العجوز من ذلك الكرم الملوكي وانحنت في أجمل تحية ثم قادت المرأة فوراً الى الطابق الأول . ولما وصلتا الى قرص الدرج أشارت الى أحد الأبواب وقالت :

– إنهم هنا كلهم .

ولبثت مكانها واستبد بها الفضول ، فاستدارت المرأة نحوها وأشارت الى الدرج وقالت بلهجتها الآمرة المعهودة :

– إذهبي .

فهال لابواس ما رآه من مظاهر تلك المرأة الغامضة وامتثلت صاغرة .

ورأى راكستان ذلك الشبح الرمادي ينتصب عند رأس سريره فلم يُظهر أية دهشة . وفهم فوراً أن أمامه إحدى المرأتين اللتين اتهمها أمام الدوق دي كيز ، وتأكد له أنها المرأة نفسها التي أعطت بومبينيان الامر بقتله ، ولكنه لم يعلم ما إذا كانت الدوقة دي سوريانتس أو شقيقتها هرموزا ، فسألها فوراً قائلاً بصوت قاسٍ :

– من أنتِ ؟

فخلعت قلنسوتها بحركة بطيئة متناهية في اللطف وهي تقول ببساطة :

– أنظر بنفسك .

ورأى الفارس وجهاً رصيناً جامداً كما رأى في أحد أصابع اليد التي خلعت القلنسوة خاتماً ذا ياقوتة كبيرة حمراء ، فابتسم قائلاً :

– لقد نظرت ، ولكني لا أستطيع أن أقول ما إذا كنتِ حضرة الدوقة دي سوريانتس أو شقيقتها السيدة دليلة دي هوتفور ... ولذلك أتشرف بأن أعيد عليك سؤالي: « من أنت يا سيدتي ؟ »

– إبحث بنفسك .

فقال راكستان بلهجة جليدية :

– ليكن ، سوف أبحث ... وأجد الحقيقة .

فقالت بلهجة ساخرة :

– أشكّ في ذلك .

– لماذا ؟

فلم تجب على السؤال بل طرقت رأساً الموضوع الذي أتت من أجله فقالت :

– أيها السيد ، لقد تفوّهت بحقنا باتّهامات شائنة أمام الرأي العام ولا أظنك تعجب لأن أكون قد جئت أسألك بعض الإيضاحات في هذا الشأن .

فقال راكستان بأدب وكياسة :

– إن الذي يثير عجبي يا سيدتي هو أنك أتيتِ بنفسك تطلبين هذه الإيضاحات وليس السيد دي سوريانتس .

– دع السيد دي سوريانتس وشأنه فانه إن لم يأتِ فلأن لا علاقة له بهذه القضية .

فقال راكستان متعجباً :

– إذن فاعذريني يا سيدتي وتفضلي بإطلاعي على ما تريدين مني .

– أريد أن أعرف البراهين التي استندت إليها في اتّهاماتك .

– ولكني يا سيدتي لا أملك أيّ برهان .

فتأمّلته هنيهة بنظرة عميقة كأنما تقرأ في نفسه . ولما رأت الصراحة تتفجّر من قسماته قالت بهدوء :

– إذن لقد اتّهمتنا تلك الإتهامات الخطيرة دون أي برهان؟

– يا لله ! نعم يا سيدتي ، لقد فعلت ذلك دون أيّ برهان .

– أي أنك وصفتنا بصفات اللصوص والقتلة دون أن تتأكد ودون أن تعلم ودون أن يكون لديك أي برهان ؟

فقال راكستان باللهجة الجليدية نفسها :

– أنا لا أنفي أن الكلمات كانت قاسية ، ولكنك توافقين يا سيدتي على أنها ليست غلطتي إذ جرت العادة على أن ينعت الناس هكذا كل الذين يستولون على ما لا يملكونه، ولا يتورّعون لأجل ذلك عن إراقة الدماء .

وتزايد به التأثر شيئاً فشيئاً فأردف يقول :

– إنني لا أملك براهين... في الوقت الحاضر على الأقل، أما بصدد ما تقولين من أنني أتهمتكم دون أن أعلم أو أتأكد ، فانه أمر آخر إذ أنني أعلم يا سيدتي ، وأنا متأكد تماماً مما أعلمه ، أنني سبرت غور أنفسكم وعرفت خفاياها، ولذلك فسوف ألاحقكم دون هدنة أو توانٍ الى أن أكشف القناع عن نواياكم الشريرة وأرغمكم على ردّ ما اغتصبتموه الى صاحبته الشرعية .

فقالت بهدوء رهيب :

– أنت تعلن النضال إذن ؟

– نعم يا سيدتي ، هذه هي الكلمة .

– إحذر لنفسك فسوف أحطمك تحطيماً .

– أنا أعلم يقيناً أنني أجابه أعداء أقوياء وقد ضحيت بحياتي سلفاً ... ولكنني لن أقتل بالسهولة التي تظنين .

فقالت بصراحة :

– أنا أعلم أنك مقاتل عنيد لا يُصطلى لك بنار .

وكانت تقول ذلك بصدق كلي . وفجأة انحنت عليه وثبتت في وجهه نظراتها الجميلة وقالت بصوتها الموسيقي الآسر :

– وإذا طلبت منك أن توقّع اعترافاً تنقض فيه اتهاماتك وتختفي مقابل المبلغ الذي تحدّده بنفسك ، فماذا تجيب ؟

فقال راكستان بلهجة ساخرة :

– أجيب بأنه اعتراف صريح بالتهم التي وجّهتُها إليك يا سيدتي .

– ولماذا لا ؟ فان الحقيقة يجب أن تقال أمام خصم مثلك . ولكن الموضوع ليس موضوع اعتراف أو إنكار ، إنه عرض أعيد تقديمه بصيغة واضحة، ألا وهي : ما هو المبلغ الذي تريده لتنقض اتهاماتك وتختفي ؟ أجب .

– لن أجيب ، لأن الجواب الوحيد الذي أستطيعه في هذه الحالة لا يمكن أن أقوله لامرأة .

– أهذه هي كلمتك الأخيرة ؟

فتطلّع فيها ولم يجب ، فرمقته بنظرة طويلة وقالت بصوتها اللطيف :

– وداعاً أيها السيد دي راكستان .

ثم اعتمرت بقلنسوتها وفتحت الباب وخرجت .

وكان ماراسكين يتظاهر بالنوم أثناء تلك الحادثة ولا يغفل لحظة عن مراقبة السيدة . ولما خرجت تحرّك بضعف تحت الأغطية ونبّه الفارس قائلاً :

– إحذر لنفسك جيداً يا سيدي فان تلك المرأة قد نظرت

إليك نظرة مهدّدة هي حكم صريح بالموت .

فقال راكستان ببرودة :

– لقد رأيتها جيداً .

وأردف يقول بلامبالاته المعهودة :

– ولكن الحكم بالموت ليس كل شيء ، بل يجب أيضاً تنفيذ ذلك الحكم .

وخرجت المرأة الى الشارع فرأت ترومبافيور وسبارتيموسكا يحرسان الباب بكل انتباه ، فأخذتهما الى زاوية خفية وقالت لهما بلهجتها الآمرة :

– لقد كنتما تريدان قتل راكستان ، أليس كذلك ؟ فاقتلاه إذن .

وأردفت تقول على الأثر :

– ولكن لا تضعف فيكما روح الإنتقام، فانني أضيف اليكما المكافأة المادية المغرية وأقول إنني سأدفع لكما أجر قتل الرجل، أدفعه ...

وتركت جملتها معلقة لحظة ثم أعلنت قائلة :

– أدفع خمسين ألف ليرة !

فقوّس الرجلان أكتافهما كأنما أوقرهما عبء المبلغ الباهظ ففهمت من هيئتهما أنهما لا يتورّعان عن قتل نصف أهل باريس مقابل أقل من نصف ذلك المبلغ ... فابتسمت تحت قلنسوتها ابتسامة رضىً وأعطتهما تعليماتها قائلة :

– يجب أن يتمّ الأمر غداً أو بعد غد على أبعد تقدير ،

وعندئذٍ ستحضران الى قصر سورباتس وتعطي ، أنت يا ترومبافيور، اسمك وتطلب التحدّث مع السيد بنياكل، فتُدفع لكما الخمسون ألف ليرة .

واختفت على أثر تلك الكلمات .

ترومبافيور

★

فلبث فرومبافيور وسبارتيموسكا مكانهما مذهولين . وعندما عادا من دهشتهما كانت المرأة قد اختفت ، فصاحا قائلين بصوت واحد :

– خمسون ألف ليرة !

وكرّرا ذكر المبلغ الضخم أولا وثانياً وثالثاً ليقتنعا من أنهما ليسا حالمَين . وفجأة مدّ كل منهما يده الى صدره فأخرج الصرة التي وضعها فيه وعدّ محتوياتها فصاح ترومبافيور متعجباً :

– يا لله ! ألفا ليرة !

فقال سبارتيموسكا بدوره :

– وأنا لديّ المبلغ نفسه !

إنها أعجوبة من السماء هي التي وضعت تلك السيدة العظيمة في طريقنا .

– إنها السيدة العذراء هي التي جعلتنا نصادق تلك السيدة .

وبدآ يريان الآن أن قتل راكستان ليس بالبساطة التي كانا يتصوّرانها . وكانا يخشيان أن لا يتمكنا من إتمام المهمة فتضيع

عليها الخمسون ألف ليرة التي كان مجرّد التفكير فيها يثلج صدريهما ويكاد يقضي عليهما بالموت فرحاً ... فقرّرا أن يدبّرا طريقة قتل الفارس بمهارة ودقة ، وشعرا بحاجتهما الى التفكير الطويل لإعادة تلك الطريقة . ولما كانا لا يستطيعان التفكير بصورة مرضية إلا على المائدة، فقد صحّ عزمهما على الذهاب فوراً الى حانة « تروي فيديل » ، وانطلقا يعدوان في اتّجاه تلك الحانة فدخلاها وهما يضجّان ويصيحان ، وطلبا غداء أسطورياً تخفره زجاجات كثيرة من أفخر أنواع الخمر ، وقد أخرج كل منهما صرّته دون اكتراث ليُظهرا لليوتارد بانكال صاحبة الحانة أنهما يستطيعان الدفع .

وقضيا بقية ذلك اليوم في الأكل والشرب . وعندما حلّ المساء كان السكر قد أعماهما فـقدا الحساب وتدحرجا الى تحت الطاولة حيث راحا في سبات عميق .

وكانت الشمس قد أشرقت عندما أفاقا في اليوم التالي فلم يعرفا المكان الذي قضيا الليل فيه لأول وهلة . ولكن الذاكرة عادت إليهما توّاً فأسرعا يفتشان ثيابهما بحركات تدلّ على القلق الشديد .

وصحّ ما كانا يخشيانه ... فإن بعض الزبائن الأشرار كانوا قد اغتنموا فرصة نومهما واستولوا على كل ما كان معهما من المال ولم يبقَ لهما من الأربعة آلاف ليرة درهم واحد .

وذهبت شتائمهما ولعناتهما وتهديداتهما أدراج الرياح، فإن ذلك كله لم يُعد إليهما ما فقد منهما . فتشاورا هنيهة وعزما على أن

يصبحا من الأغنياء في مساء ذلك اليوم نفسه ثم غادرا الحانة مطرقين برأسيهما مغتاظين لأنهما سمحا للأوباش بأن يسرقوهما هكذا ، وهما اللذان كانا معتادين على سرقة الآخرين .

وقرر ترومبافيور أن الوقت قد حان للاهتمام بربح الخمسين ألف ليرة ، فسار برفقة سبارتيموسكا في اتّجاه منزل لابواس، ولما وصلا أمامه قبعا في زاوية ينتظران خروج الفتيات الثلاث وجيهان جيهين. وطال انتظارهما، ولكنهما كانا معتادين على مثل تلك الأعمال فلم يفرغ صبرهما بل لازما مكانهما دون ضجر .

وأخيراً خرج الذين كانا ينتظرانهم فوقفوا هنيهة أمام الباب يتحدثون وقد خشي المتشردان أن تكون موسكاد قد رأتهما لأنها نظرت أكثر من مرة نحو الجهة التي كانا يقبعان فيها ، ولكنهما سرعان ما أطمأنّا عندما رأيا الجمهرة تتفرق، فذهبت برغاموت وسافير الى اليمين صوب شارع سان دينيس، بينما سارت موسكاد وخطيبها الى اليسار في اتّجاه الهال .

فخرج المتشردان من زاويتهما بسرعة وقطعا الشارع بوثبتين. وفي تلك اللحظة عينها استدارت موسكاد الى الوراء، والمفروض أنها لم ترَهما لأنها تابعت طريقها ، ولكنها وقفت بعد بضع خطوات ونظرت عندئذٍ الى رجال ثلاثة كانوا يخرجون من مركز تنفيذ الإعدام ويتوجهون بخطوات بطيئة نحو شارع تريانذري .

وكان هؤلاء الرجال الثلاثة الذين نظرت إليهم موسكاد وهي تلتصق بخطيبها بخوف : الجلاد تورنوبيز ومساعداه سيمون بيك دي ليفر وميدارد صان دي بوف . وقد قاومت الفتاة رعبها

وجرؤت على أن تتحدث مع الجلاد بضع ثوانٍ .

وفي تلك اللحظة كان ترومبافيور وسبارتيموسكا قد دخلا منزل لابواس فتحدثا قليلاً مع العجوز فأعطتهما حبالاً طويلة متينة ، ثم صعدت بخطوات الذئب الى غرفة الجرحى ولم تلبث أن عادت وقالت لهما :

– لا بأس عليكما فإنهم غارقون في النوم .

فصعد المتشردان الدرج بهدوء وحذر ، وفتحا باب الغرفة دون ضجة . وكان الجرحى الثلاثة نائمين نوماً عميقاً كما قالت القوادة العجوز ، فدخلا وتقدّما منهم فأخذا سيوفهم وخناجرهم التي كانت موضوعة قرب أسرّتهم وتحت متناول أيديهم ، ثم قيّدا كلا منهم بسريره بالحبال التي أخذاها من العجوز . وتمّ ذلك كله بسرعة ومهارة نادرتين . وعندما رأى ترومبافيور أن راكستان قد أصبح تحت رحمته أيقن من أنه لن يفلت منه مهما حدث . وبدلاً من أن يقضي عليه فوراً بطعنة خنجر ، فانه أراد أن يقتله بقبضة يده كما قرّر في اليوم الفائت ، فأخذ يشمّر عن ساعده لينفّذ ما عزم عليه . وكان النيام الثلاثة قد استفاقوا ، ولكن بعد فوات الأوان ، فأخذوا يبذلون جهوداً يائسة للتخلص من القيود التي تشدهم الى أسرّتهم ، ولكن محاولاتهم لم تُجدِ فان تلك القيود كانت متينة جداً . ووقف سبارتيموسكا وسيفه في يده يراقب ميلورد جندارم وماراسكين دون أن يجرؤ على الاقتراب منهما كثيراً .

وكان ترومبافيور ينظر الى راكستان بهزء وقد عجز هذا

عن قطع قيوده فلبث جامداً ينظر الى المتشرّد بجرأة نادرة .

وعندئذ وضع ترومبافيور قبضته الهائلة تحت أنظار الفارس وزمجر قائلاً :

– لقد حطّمتني مرة بقبضتيك وها قد أتى دوري الآن لأعاملك بالمثل .

فزأر راكستان قائلاً :

– تباً لك من جبان !

فاهتاج القاتل المأجور وزمجر قائلاً :

– عليك اللعنة !

ورفع قبضته الهائلة ليهوي بها على رأس الفارس العاجز عن الحركة ، وعندئذ شعر بيدَين صغيرتَين تطبقان على رسغه من الوراء ، بينما كانت يدان أخريان تقبضان على وسطه وتسحبانه بعنف. فاستدار وقد أعماه الغضب فرأى نفسه وجهاً لوجه أمام موسكاد وخطيبها جيهان جيهين . وصاحت الفتاة قائلة :

– لقد عرفتك جيداً يا ترومبافيور عندما كنت تقبع في زاوية الشارع .

فاستهان المتشرد بقدر ذينك الخصمين اللذين لا يستطيعان مجابهته بحال من الأحوال وحذّرهما قائلاً :

– أنصحكما بالذهاب ... وبسرعة .

فرمقت موسكاد خطيبها بنظرة متوسلة تدعوه فيها لرفض نصيحة المتشرد وكان جيهان شاحب الوجه ترتجف أطرافه رعباً ، ولكنه لم يبالِ بل لبّى بطيبة خاطر نظرة حبيبته ووقف بعزم

أمام ترومبافيور وحاول إقناعه قائلاً :

– ماذا يا سيد ترومبافيور ؟ أتجرؤ حقاً على إيذاء جريح لا يستطيع الدفاع عن نفسه ؟

ورأى ترومبافيور أن الشاب لن يترك مكانه رغم خوفه فلم يتردّد لحظة بل وجّه إليه ضربة هائلة بظاهر يده وهو يصيح قائلاً :

– بماذا يتدخل هذا الحفار النحس ؟!

فسقط جيهان جيهين على الأرض . وشاء سوء حظه أن يرتطم رأسه أثناء سقوطه بزاوية مقعد فغاب عن الصواب . فلم يعد ترومبافيور يلقي إليه بالاً بل استدار نحو موسكاد وقال لها بصوت رهيب :

– إذهبي ... إذا كنت لا تريدين أن ألقي بك من النافذة .

فجابهته الفتاة بشجاعة وقالت بعزم :

– إرمني من النافذة إذا شئت ولكنني لن أدعك تتمّ ارتكاب هذه الجريمة الفظيعة أمامي !

فقال بهزء :

– حسناً ، حسناً . سوف أفعل ما تطلبينه فكوني مطمئنة .

وأمسك بقبضتيها وجرّها الى النافذة ، فتوسلت إليه قائلة :

– أعفُ عنه يا ترومبافيور ! أستحلفك بالعذراء أن تعفو عنه . لماذا تريد أن تقتله ؟

فزمجر ترومبافيور قائلاً :

– لأنه حطّمني مرة بقبضتيه !

وأردف يقول بلهجة ساخرة :

– ولأنهم يدفعون لي لأجل ذلك... فهل تظنين أنني أضحي بخمسين ألف ليرة في سبيل عينيك الجميلتين ؟ خمسون ألف ليرة ! إنه مبلغ مغرٍ على ما أعتقد .

وكانت الفتاة قد قاومته الى تلك اللحظة ولكنها فهمت أنه لن يلين لتوسلاتها فكفّت عن المقاومة وذهبت بنفسها الى النافذة ففتحتها بهدوء وقالت له بلهجتها اللطيفة المعهودة وهي تتطلع في وجهه بحزم ودهاء :

– لقد حاولت جهدي لأجنّبك مصاباً عظيماً ... ولكن بما أنك أرغمتني فأنت المسؤول... وأنا أنذرك يا ترومبافيور بأن الجلاد تورنويز موجود الآن في الشارع تحت هذه النافذة تماماً وهو ينتظر إشارة مني ليصعد الى هنا ، فهل تريد أن أدعوه ؟

ولو انقضت الصاعقة على ترومبافيور لكانت أخفّ وقعاً عليه من تلك الكلمات. فترك الفتاة فوراً وقد شحب وجهه واصطكت أسنانه رعباً وجحظت عيناه وتراجع خطوتين الى الوراء وهو يقول بصوت متهدّج :

– الجلاد تورنويز ... تحت النافذة ...

– نعم ، الجلاد تورنويز . وتستطيع أن تراه بنفسك إذا أردت. وليس لي إلا أن ألفظ اسمه بصوت أعلى قليلاً فيصعد الى هنا .

فتقدّم ترومبافيور من النافذة بحذر شديد ونظر الى الشارع وإذا به يتراجع فجأة وقد وقف شعر رأسه من الرعب وكان يعيد قوله بصوت آلي :

– الجلاد تورنوبيز ... في الشارع ... تحت النافذة ... كيف أتى الى هنا ؟

– أنا التي دعوته ... فانني عندما رأيتك كامناً في الزاوية ، وعندما التفتّ الى الوراء ورأيتك أيضاً تقطع الشارع ، عرفت غايتك . وقد شاءت السيدة العذراء أن ألتقي بالجلاد تورنوبيز في تلك اللحظة فجرؤتُ على أن أحادثه ، فأتى الى تحت النافذة وهو ينتظر كما رأيت .

فقال ترومبافيور برعب :

– أنتِ ! ... أنتِ التي جئت به ! ...

ثم انفجر قائلاً :

– ولكنك تعلمين إذن ؟

توافقت بإشارة لطيفة من رأسها الجميل . فقال المتشرد لاهثاً :

– يا للعنة !

– حلّ قيود هؤلاء المناكيد يا ترومبافيور وردّ إليهم أسلحتهم .

ولما رأته يتردّد أخرجت رأسها من النافذة فزمجر المتشرّد قائلاً :

– عودي بربك فها أنا أطيع أمرك .

وبدأ يقطع قيود راكستان بخنجره ، وكان سبارتيموسكا يريد إبداء بعض الملاحظات ولكن ترومبافيور نظر إليه نظرة هائلة جعلته يقفل فمه ويقتدي به .

وعندما قُطعت قيود الرجال الثلاثة ورُدّت إليهم أسلحتهم

حذّرت موسكاد ترومبافيور قائلة :

– إذا وقع لهذا النبيل الشجاع مصاب عن يدك فان الجلاد تورنوبيز سيذهب فوراً الى منزلك .

فوجّه إليها نظرة قاتلة ولكنها لم تخفْ عليها فابتسمت قائلة :

– إنك لا تخيفني ، وتستطيع قتلي إذا أردت ، ولكنني اتخذت احتياطاتي ، أي أنك إن قتلتني فسوف ترى على الأثر الجلاد تورنوبيز في منزلك .

فبدا المتشرد عاجزاً حيالها وزمجر قائلاً بغضب :

– ولكن الشيطان يكن تحت مظاهرك اللطيفة !

فابتسمت موسكاد أيضاً وقالت :

– إذهب الآن يا ترومبافيور وأنصحك بأن لا تعود الى هنا أبداً .

– وكيف تريدين أن أخرج وهو ينتظرني تحت ؟! أقسم أنني أفضل أن أقتل نفسي فوراً بطعنة خنجر .

فانحنت موسكاد الى خارج النافذة وألقت ببضع كلمات وبعد هنيهة قالت بهدوء :

– لقد ذهب . وتستطيع الآن أن تخرج دون خوف .

فاقترب ترومبافيور من النافذة وتفحص الشارع بنظرة قلقة . ولما تأكد من أن الرجل الذي يثير فيه هذا الرعب الغريب قد ذهب حقيقة ، أطاع أمر موسكاد فهبط الدرج واختفى بسرعة عجيبة .

وتبعه سبارتيموسكا بينما كان ماراسكين وميلورد جندارم

يقهقهان ضاحكين من الهزيمة غير المتوقعة .

أما راكستان فانه لم يضحك بل كان ينظر الى موسكاد بحنان ويبتسم لها بلطف فاقتربت منه وطمأنته قائلة :

– لا تخشَ شيئاً فطالما أنت هنا فانه لن يجرؤ على أن يضع قدميه في هذا المنزل .

– إنك فتاة شجاعة باسلة وأنا مدين لك بحياتي ولن أنسى أبداً أن أكافئك بما تستحقين .

فاحمرّ وجهها سروراً ولبثت واقفة أمامه مرتبكة لا تجد ما تقوله .

فابتسم رَاكستان ، ونبهها باللطف نفسه الى أمر كانت قد نسيته فقال :

– اهتمّي بخطيبك.

فأسرعت نحو جيهان جيهين الذي كان قد بدأ يستعيد وعيه في تلك اللحظة .

البرهان

*

تفحّص ترومبافيور الشارع ملياً قبل أن يخرج من منزل لابواس ، ولما لم يرَ ما يريب أنزل جوانب قبّعته الى عينيه ورفع ياقة معطفه الى أنفه وانسحب الى الخارج وأخذ يعدو في محاذاة البيوت الى أن بلغ منزله حيث حبس نفسه مع رفيقه سبارتيموسكا

وأقفل الباب ودفع المزلاج .

وتلاشى تأثير الخوف من نفسه شيئاً فشيئاً فعصف به غضب هائل وتدفقت من فمه سيول الشتائم والتهديدات واللعنات كأنها حمم البركان . وكانت نقمته العارمة منصبة على أعداء غير منظورين لم يُسميهم .

وتمالك نفسه أخيراً فعاد إليه هدوؤه ولبث صامتاً . وكان سبارتيموسكا قد هدأ هو أيضاً ، إلا أن الفضول كان مستبداً به . ولما رأى رفيقه قد عاد الى حالته الطبيعية نفض عنه التردّد وسأله قائلاً :

– أتقول لي أخيراً ما معنى تلك القصة وما علاقة الجلاد تورنوبيز بها ؟

فاصفرّ وجه ترومبافيور مجدّداً واشتعلت عيناه فجرد خنجره وأدنى نصلته العريضة الماضية من أنظار سبارتيموسكا وقال ببرودة أشد هولاً من غضبه .

– أصغِ إليّ جيداً فانك صديقي الحميم ويؤسفني أن أفترق عنك . ولكن إذا عدت الى الكلام في هذا الموضوع مرة ثانية فسأغمد خنجري في عنقك الى القبضة وأشفيك نهائياً من فضولك المزعج .

فارتجف سبارتيموسكا خوفاً وصاح قائلاً :

– حسناً ، إحتفظ بأسرارك إذن ما دمت لا تثق في أفضل صديق لك .

فعاد ترومبافيور الى هدوئه من جديد ، بينما تابع سبارتيموسكا

قوله :

– ولكن ذلك يعني خرابنا ! ولن تمنعني عن الإعتقاد بأن ما وقع لنا يثير الغضب .

وأردف يقول بلهجة يائسة :

– خمسون ألف ليرة ! ثروة خسرناها دون أن نعلم لماذا !

فقال ترومبافيور :

– يا للصواعق ! لقد خربنا حقاً بسبب تلك الشقية موسكاد.. ولكن من أين علمت ؟

وسكت لحظة ثم أردف يقول بغضب :

– ها أنا الآن تحت رحمتها ويمكنها أن تتصرف بي كما يحلو لها دون أن أستطيع شيئاً حيالها سوى إحناء الرأس والطاعة ... وإلا فان الآخر سينقضّ عليّ !

وأمضيا بقية يومهما محبوسين في منزل ترومبافيور يندبان بصورة متواصلة حظهما التعس وضياع ثروتهما . وفي اليوم التالي خرج المتشردان وقد عضّهما الجوع ولم يكن معهما شيء من المال فقال ترومبافيور :

– بعد كل حساب، إذا ادّعينا أننا قتلنا راكستان فمن الذي يستطيع أن يثبت العكس ؟

فتهلّل وجه سبارتيموسكا وصاح قائلاً :

– يا لها فكرة موفّقة !

وفي صباح اليوم التالي كان ترومبافيور قد عزم على تنفيذ خطته فصاح قائلاً :

– ليحصل ما يحصل فهيّا بنا .

فقال سبارتيموسكا كأنه يدعو الى خوض معركة :

– هيّا بنا .

وذهبا الى قصر سوربانتس حيث سارا وراء أحد الخدم يجتازان قاعات رائعة فخمة الرياش ، وقد ندما على تهوّرهما ولكن التراجع لم يعد ممكناً . وكانا لا يعلمان أين يضعان أقدامهما لشدّة ارتباكهما ولو جرآ عند ذاك على الهرب لهربا .

وكانا يظنان أن الخادم يقودهما الى السيد بنياكل الذي طلبا مقابلته عند وصولهما. ولشدّ ما كان عجبهما عندما رأيا نفسيهما في حضرة السيدة ذات المعطف الرمادي التي وعدتهما بالخمسين ألف ليرة وكانا يعتقدان أن تلك المرأة هي صاحبة الكنوز الأسطورية التي يريانها حولهما ، فوقعت خشيتها في قلبيهما .

ولقد أيقنا من فشل خطتّهما سلفاً ، ولكنهما استجمعا شجاعتهما وتشاورا لحظة بالنظر فانحنى ترومبافيور أمامها باحترام كلي وقال بهدوء :

– أيتها السيدة النبيلة الجميلة ، أتشرّف بإعلامك بأننا نفذنا أوامرك بأمانة ودقة ، فإن الرجل الذي أمرت بقتله قد حُذف من عالم الوجود .

فانحنى سبارتيموسكا بدوره وأيّد قائلاً :

– مات هو وتابعاه .

فقالت السيدة ببرودة :

– لقد تأخرتما وكان يجب أن يتمّ الأمر أول أمس على

أبعد تقدير .

فتشاورا لحظة بالنظر، وحاول ترومبافيور محاولة يائسة فقال :

– وفي جميع الأحوال لقد نفّذنا الأمر بدقة متناهية ولم يبقَ إلا ...

فأكمل سبارتيموسكا قائلاً :

– أن نحصل على المكافأة الصغيرة التي ربحناها بشرف .

فقالت السيدة كأنها لم تسمع :

– وتقولان إن راكستان قد مات ؟

فأكد ترومبافيور قائلاً بحماس :

– وشبع موتاً يا مولاي .

وأضاف سبارتيموسكا يقول :

– وكذلك ميلورد جندارم ومارامسكين .

فقالت بلهجتها الجليدية :

– أين البرهان ؟

فأحسّا بأنهما يختنقان، ولكنهما تمالكا بسرعة وقال ترومبافيور بحدّة :

– البرهان هو أننا هنا سالمان !

وأيّد سبارتيموسكا فقال :

– وهم هناك دون حراك .

فقالت بلهجة مقتضبة :

– لنذهب، فأنا أريد أن أتأكّد بنفسي من أنهم ماتوا حقيقة .

فوقع هذا الكلام على المنكودين وقع الصاعقة ولكنهما لم يستطيعا أن يقولا كلمة لأنها كانت قد ذهبت، فغمغما يقولان بصوت واحد :

– يا لسوء الحظ !

وسارا وراءها دون أن ينبسا بكلمة . ولما وصلوا الى منزل لابواس لم يحاول المتشردان الهرب لأنهما كانا يحسّان بأن تلك المرأة المجهولة تستطيع عندما تشاء أن تقبض عليهما وتجعلهما يدفعان غالياً ثمن مزاحهما السمج . ولذلك فإنهما تبعاها كأنهما كلبان مطيعان وصعدا الدرج وراءها .

ولما وصلت الى قرص الدرج وقفت أمام باب غرفة الجرحى ورمقت المتشردين بنظرة نارية وقالت :

– هل أنتما واثقين تماماً من موت الثلاثة ؟

فلم يتردّد ترومبافيور وأقسم بصوتٍ عالٍ وقد نسي أنهم يستطيعون سماعه من داخل الغرفة فقال :

– أقسم على خلاص نفسي أننا تركناهم في أسرّتهم جثثاً باردة هامدة ويجب أن نجدهم هكذا إلا إذا ...

فأكمل سبارتيموسكا قائلاً :

– إلا إذا كان الشيطان سيدهم قد أخذهم الى حيث لا ندري.

فوضعت يدها على مقبض الباب وتردّدت لحظة فقوّس المنكودان أكتافهما بانتظار الانفجار الرهيب، ولكن ذلك الانفجار لم يحدث، فإنها فتحت الباب ووقفت على عتبته هنيهة ثم قالت بهدوئها الجليدي المعهود :

– أنتما على حق ، فإنهم موتى .

فانتفض المتشردان انتفاضة هائلة وقد نسيا كل حذر وأوشكا على أن يفضحا نفسيهما فيزمجران قائلين : إنهم موتى ؟!

ولكنهما تمالكا أعصابهما في الوقت المناسب ومدّا عنقيهما بحذر فكادا أن يغمى عليهما رعباً وذهولاً لأنهما رأيا على الأسرّة ثلاث جثث هامدة ممدّدة تحت الأغطية وشاهدا رؤوس راكستان وميلورد جندارم وماراسكين مرتخية بثقلها الطبيعي على الوسائد وقد شحبت وجوهها وانطفأت فيها كل علائم الحياة .

فتبادلا النظرات بأعين خرجت من محاجرها ولمعت فيها بوارق رهيبة ورسما إشارة الصليب على وجهيهما بسرعة وهما يغمغمان ببعض الصلوات .

أما السيدة فانها أغلقت الباب بلطف وأمرتهما قائلة :

– إتبعاني .

فتبعاها وقد تجرّدا من الحس والشعور .

ولم يكن في تلك القضية خوارق وأعاجيب إذ أن راكستان ورفيقيه سمعوا ترومبافيور يتكلم أمام الباب وفهموا موضوع الحديث وكانوا حذرين متأهبين لكل حادثة بعد محاولة ترومبافيور الفاشلة، فأشار الفارس الى رفيقيه وسحب الرجال الثلاثة الأغطية الى أعناقهم ولبثوا جامدين حابسي الأنفاس وكانت وجوههم لا تزال صفراء من تأثير ما فقدوا من الدماء .

وكانت السيدة ذات المعطف الرمادي تسير وهي مقتنعة تماماً بأن ترومبافيور وسبارتيموسكا قد قتلا راكستان وتابعَيه . أما

المتشرّدان فانهما كانا مقتنعين أيضاً بموتهم ولكنهما كانا يعلمان جيداً أنهما لم يقتلاهم ، ولذلك فان موت الرجال الثلاثة الذي لم يفهما كيفية حصوله كان يدهشهما ويقلقهما .

ووصلت السيدة والمتشرّدان الى قصر سوريانتس فأعطتهما فوراً ودون أية صعوبة الخمسين ألف ليرة التي وعدتهما بها، وكان في هذا الحدث الأخير ما قضى على البقية الباقية من العقل في رأسيهما .

فانطلقا يركضان الى أن بلغا مسكن ترومبافيور في شارع تريانديري حيث بادرا فوراً الى إخفاء الكيسين اللذين يحتويان الخمسين ألف ليرة في قعر صندوق أقفلاه جيداً. ولما انتهيا من تلك العملية قال ترومبافيور بذهول :

– يجب أن نرى ما حدث عن كثب فانني أشعر بأنني سأفقد رشدي فيما إذا قدّر لي أن أعيش دون أن أتمكّن من اكتشاف ذلك السر .

وذهبا الى منزل لابواس حيث صعدا الدرج ودخلا غرفة « الموتى » ، وعندئذ فاق ذهولهما وخوفهما كل حدّ سابق لأنهما لم يجدا أحداً في الغرفة وكانت الأسرّة مرتبة نظيفة بيضاء ولكن راكستان وميلورد جندارم وماراسكين ، أمواتاً أم أحياء ، كانوا قد اختفوا .

الشقيقتان

*

عندما اختفى راكستان ورفيقاه من منزل الفتيات الثلاث كان قد مضى على ريون دور خمسة أيام وهي سجينة في قصر سوريانتس . وكانت هرموزا وجوسلين تزورانها كل يوم وأحياناً تأتيان بضع مرات في النهار الواحد . ومنذ اليوم الأول ارتدت الشقيقتان ملابس رمادية متشابهة وخُبّىء الخاتم ذو الياقوتة الحمراء في أحد الصناديق فأصبح من المستحيل عندئذٍ تمييز هرموزا من جوسلين .

وكانت ريون دور تراهما تظهران معاً في معظم الأحيان ، وإذا اتّفق أن دخلت إحداهما وحدها فان الأخرى كانت تظهر على الأثر ، أي قبل أن تستطيع التي دخلت أن تقول كلمة أو تشير إشارة .

وقد فهمت ريون دور أن كلاً منهما كانت تراقب الأخرى عن كثب . وفهمت أيضاً أن كلاً منهما كانت تريد أن تقول لها أشياء خاصة دون أن تسمعها الأخرى .

ومنذ اليوم الأول طمأنتاها كلتاهما وقالتا لها إنه لا يوجد ما يهدّدها ، فلم تثق الفتاة تماماً في كلامهما ولكنها فهمت جيداً أنها ليست مهدّدة في الوقت الحاضر ورجتهما أن تخبراها بما تعرفان عن السيد دي راكستان ، فبدا على الشقيقتين أنهما تتشاوران بالنظر لحظة ثم أجابت إحداهما بأن الفارس قد خرج سالماً من قصر دي

كيز ولكنه كان مكسوّاً بالجراح ، وأنه اختفى منذ تلك اللحظة ومن المرجّح أنه قضى نحبه في إحدى الزوايا متأثّراً بجراحه .

وكانت ريون دور تأبى الاعتقاد بذلك الكلام ، ولكنها كلما سألت عن الفارس كانت تتلقّى الجواب نفسه ، ففهمت أنها خطة مدبّرة وأقلعت عن الكلام في ذلك الموضوع .

ولكن الشقيقتين كانتا ، من جهتهما ترهقانها دائماً بالأسئلة . وكانت أسئلتهما تهدف كلها الى التأكّد مما إذا كانت حقاً رولاند دي مونكابيه ، ولم تكونا تخفيان غايتهما بل أعلنتا بصراحة أنهما يحتفظان بها في قصر سوريانتس للتحقيق معها في تلك القضية .

ولبثت الشقيقتان خمسة أيام على تلك الحالة من النضال والمراقبة دون أن تتمكن إحداهما من تسجيل أيّ تقدّم على الأخرى .

وفي اليوم الخامس ، أي في يوم اختفاء راكستان من منزل الفتيات الثلاث ، امتطى الدوق دي سوريانتس جواده وغادر القصر وهو مرتدٍ ملابس السفر مما يدل على أن غيابه سيطول .

ولم يكن في القصر عندما حضر ترومبافيور وسبارتيموسكا لطلب المكافأة التي وعدتهما بها السيدة .

وفي اليوم التالي ، وكان سوريانتس لا يزال غائباً ، رأت ريون دور إحدى الشقيقتين تدخل غرفتها ، فظنّت الفتاة أن الأخرى لن تلبث أن تظهر كالعادة . ولكنها أخطأت هذه المرة إذ أن الشقيقة الأخرى لم تظهر . وتقدّمت المرأة منها بسرعة وقالت لها بصوت خفيض :

— لننهِ الأمر فوراً فليس لديّ أكثر من دقيقة واحدة .

إنك لست رولاند في نظري وأنا متأكدة من ذلك . إلا أنني أريد أن أعاملك كما لو كنتِ رولاند وأقدّم لك مبلغاً كبيراً من المال يجعلك غنية الى آخر أيامك على شرط أن توقّعي تنازلاً عن حقك في اسم آل مونكابيه وألقابهم وثروتهم ، وتختفي على الأثر .

فأجابت ريون دور قائلة بهدوء مدهش :

– أي أنك تعرضين جزءاً صغيراً من ثروتي على شرط أن أتنازل عن الباقي ، أليس كذلك ؟

فقالت ببرودة :

– هو ذاك ، إلا أن ما تسمينه جزءاً صغيراً هو مليون ليرة. مليون ليرة ... أتسمعين ؟ إنني أعطيك مليوناً !

فقالت ريون دور بالهدوء نفسه :

– إنه مبلغ كبير فعلاً . ولكنني إذا كنت رولاند يا سيدتي فان ثروة والدي كلها يجب أن تعود إليّ . كلها ، أتسمعين بدورك ؟ وأكون حرة في التصرّف بها كما أشاء، ولكن ...

فقاطعتها قائلة بفراغ صبر :

– ولكنك لستِ رولاند وقد عرضتُ ...

فقاطعتها ريون دور قائلة :

– إسمحي لي بأن أقاطعك يا سيدتي وأقول لك إنني إذا لم أكن رولاند فليس لي أيّ حق في تلك الثروة ولن أقبل شيئاً .

– هكذا إذن ، الكل أو لا شيء ؟!

– نعم يا سيدتي . الكل إذا كنت رولاند لأن ذلك من

حقي ، ولا شيء إن لم أكن رولاند !

– أهذه هي كلمتك الأخيرة ؟

– نعم يا سيدتي ، هذه هي كلمتي الأخيرة .

– فكّري جيداً فان رفضك ، إذا أصررت عليه ، يكلفك غالياً .

– أشك في ذلك .

– لقد أردتُ إنقاذك ... ولكنك أنت التي ترغمني على أن أقتلك لأنني لا أريد لك الموت مبدئياً .

– لن تستطيعي قتلي بالسهولة التي تتصورينها فانني سأدافع عن نفسي .

فنظرت المرأة إليها نظرة طويلة وابتسمت ابتسامة إشفاق ثم قست ملامحها ونظراتها وقالت بلهجة جليدية :

– أنتِ التي أردت .

ثم أقفلت عليها الباب وذهبت .

وفي اليوم التالي رأتها ريون دور تعود وحدها أيضاً. واقتربت المرأة منها بسرعة وهمست قائلة :

لا تخشي شيئاً فأنا ساهرة عليك .

وأضافت تقول بصوت رصين بدا ينضح إخلاصاً :

– أقسم لك أنني لن أدعهم يقتلونك وأن ثروتك ستُردّ إليك كلها فثقي بي .

فذهلت ريون دور وقالت :

– ولكنك قلت لي أمس عكس ذلك تماماً يا سيدتي ، فضلاً

عن أنك هددتني بالموت ، فماذا أصدق ؟ تهديداتك أم وعودك ؟
فأعلنت تقول بسرعة :
– إن أختي هي التي كلمتك أمس وهي تريد أن تحتفظ بثروتك التي استولت عليها . أما أنا فانني أريد أن أجعلها تردها إليك وأقسم لك أنها سوف تردها .
واختفت كالخيال تاركة ريون دور مدهوشة مذهولة ، وكانت الفتاة لا تعلم من منهما هي التي يجب عليها أن تصدقها ! وتتساءل في نفسها عما إذا لم تكونا متفقتين على إرهابها وإرغامها بطرق مختلفة على التنازل عن الثروة التي جلبت عليها كل تلك المصائب والويلات .

قاعة سوريانتس

*

في اليوم نفسه الذي أكدت فيه إحدى السيدتين لريون دور أنها ساهرة عليها وأنها تسعى لترد لها ثروتها . عاد الدوق دي سوريانتس من السفر وقد دام غيابه يومين . فأبدل ملابسه بسرعة فائقة وتوجه الى قاعة كان يعلم أن جوسلين وهرموزا تجلسان فيها غالباً . وعندما دخلها وجد فيها إحدى الشقيقتين وحدها .
ويذكر القراء أنه صرح لبنيا كل بلهجة لا تخلو من المرارة أنه يجهل مَن من الشقيقتين هي السيدة ، وأنه بعد أن سمع أن

كلتيهما ترتديان ثياباً متشابهة ، قال إنه لن يعرف امرأته من شقيقتها .
ومع ذلك فانه عندما لقي إحدى الشقيقتين في القاعة لم يتردد لحظة واحدة بل سألها فوراً بقوله :
– ماذا جد بأمر راكستان ؟
– اطمئن فان راكستان لن يتدخل بعد الآن بما لا يعنيه .
فتنهد ارتياحاً وقال : هل مات ؟
فوافقت بإشارة من رأسها وهي تبتسم . فسألها قائلاً : متى ؟
– اول أمس ... يوم ذهابك .
– تهانئي يا سيدتي فإنك عملية حقاً .
ثم أردف قائلاً بقلق :
– وهل أنت واثقة من موته ؟
– لقد رأيته جثة هامدة في سريره .
وقد ارتجفت رغماً عنها وهي تعطي تلك الإيضاحات ، فرمقها بنظرة ساخرة لم تخفَ عليها ، فقالت برصانة كلية :
– أنت تعلم جيداً أنني لا أضرب أبداً إلا عند الضرورة القصوى وعندما لا يبقى وسيلة سوى الضرب . وقد عرضت على راكستان مبلغاً كبيراً من المال ليوقع اعترافاً ينقض فيه اتهاماته ويختفي فلم يقبل ، فماذا تريد أن أفعل عندئذ ؟
فقال ببرودة : لقد أخطأتِ .
– ما العمل ؟ ما مضى قد مضى . وقد قدمت العرض نفسه الى رولاند .

– أعتقد أنها رفضت .

– نعم .

ثم ابتسمت وأردفت تقول : إنها تريد كل شيء .

فقال سوريانتس بلهجة ساخرة :

– يا للشيطان ! يظهر أنها مشحوذة الأنياب .

– وأنت ماذا فعلت يا سيدي ؟ هل كل شيء جاهز هناك ؟

– نعم وقد أصبح الخروج من البيت مستحيلاً إلا إذا كانت الصغيرة من ذوات الأجنحة . ولكني أعيد عليك أنك سترتكبين فعلة حمقاء .

– أعتقد أنك على حقّ .

– إذن فلماذا تزجّين بنفسك في مثل تلك الأعمال غير المضمونة ؟ إنه من الخطأ الفاضح أن يفتّش الإنسان عن الظهر عند الساعة الثانية .

– ما العمل ؟ إنني أحبّ السيطرة ويلوح لي أنه يجب ألا أضرب مجدّداً تلك الصغيرة رولاند التي نجت الى الآن بأعجوبة من مؤامراتنا . ولكنها تكون نهايتي عندئذ وأنا لا أريد أن أنتهي .

فهزّ رأسه وقال بلهجة المتشكك :

– أسأل السماء أن لا تعجّل في تلك النهاية .

فهزّت كتفيها وابتسمت إبتسامة الواثقة من نفسها . وقد قالا ، على ما يظهر ، كل ما كان لديهما عن الأعمال إذ أن سوريانتس بدأ يسألها عندئذ عن صحتها وقبّل يدها بظرف ولطف

لكنه لبث يناديها بـ « يا سيدتي » كما كانت تدعوه هي « سيدي » .

وبينما كانا يتبادلان تلك المجاملات دخلت الشقيقة الأخرى فلبث الدوق يتكلم هنيهة معهما دون أن يلفظ اسميهما مرة واحدة ، ثم استأذن وانصرف .

وتوجّه فوراً الى تلك القاعة التي رأيناه فيها مع بنياكل حيث جلس الى طاولته وبدأ يدرس أوراقاً أخذها من خزانة الأبنوس نفسها التي وضع فيها المستند الذي وقّعه ملك إسبانيا والمفروض فيه أن يجعل منه نائباً لملك فرنسا ..

وكان قد مضى عليه ساعة طويلة وهو منهمك في العمل عندما دخل أحد الخدم وقال له إن الفارس دي راكستان يلتمس شرف المثول أمام حضرته بسبب قضية بالغة الأهمية والخطورة .

فكتم ما اعتمل في نفسه من جراء ذكر ذلك الإسم فجأة أمامه ورفع رأسه وقال بهدوء ظاهري :

– أتقول الفارس دي راكستان ؟ ... ألست مخطئاً ؟

فقال الخادم مؤكّداً : لا يا مولاي فإنني أعيد الإسم الذي أعطي لي تماماً .

– أين هو هذا السيد ؟

– في القاعة الكبيرة يا مولاي .

فقال سوريانتس وهو ينهض :

– حسناً ، إنتظرني هنا .

وخرج من القاعة واتّجه بسرعة الى القاعة الكبيرة وهو يقول في نفسه بعنف شديد :

« لنرَ إذا كان يوجد فارسان باسم راكستان ، أو إذا كانت السيدة قد أخطأت . »

ولم يطل عليه الوقت ليعلم ما يريده فانه لم يكد ينظر الى الرجل الذي كان يتمشى بعصبية ظاهرة في القاعة حتى زمجر قائلاً في نفسه : « يا للشيطان ! ها إنّ الرجل الذي تؤكّد السيدة أنها رأته جثة هامدة في سريره ، يتمتع بصحة جيدة ! »

وكان الرجل هو راكستان بنفسه وقد بدا شاحباً قليلاً ، ولكنه لا يبدو عليه أنه يحسّ بجروحه .

ولم يكن في إختفائه من منزل الفتيات الثلاث ما يثير العجب ، فانه بعد ذهاب ذات المعطف الرمادي وترومبافيور وسبارتيموسكا ، رأى أن المنزل لم يعد آمناً ، فشكر موسكاد وبرغاموت وسافير وجيهان جيهين وعاد مع رفيقيه الى منزله .

وقرّر أن يدع أعداءه في خطأهم فتابع تمثيل دور الميت ، ولكنه كان قلقاً على رولاند فبدأ يفكّر في طريقة يعرف بها مكانها وينقذها ، فهداه تفكيره الى إنها قد تكون في قصر سوريانتس. ولما اقتنع تماماً بتلك النتيجة غادر منزله وقصد ذلك القصر .

وعندما رأى سوريانتس أن الرجل الذي يطلب مقابلته هو الفارس دى راكستان نفسه الذي أكّدت له السيدة موته ، عاد على أعقابه الى قاعة عمله حيث وجد الخادم لا يزال ينتظره فأعطاه أوامره وذهب الخادم لتنفيذها...

وعندئذ ترك الدوق قاعة عمله وذهب الى نهاية القصر حيث

دخل قاعة صغيرة تطلّ نوافذها على النهر ، وهناك نزع عنه سيفه وخنجره ووضعهما على أحد المقاعد ثم جلس أمام طاولة كان عليها كل ما يلزم للكتابة فوضع أمامه ورقة وغمس الريشة في الحبر وبدأ يكتب بهدوء واطمئنان .

وعندما دخل راكستان تلك القاعة بخطواته القاسية الحازمة بدا على الدوق أنه مستغرق في العمل . ولكنه سرعان ما رفع رأسه ونهض فحيّا الفارس بلطف وكياسة لم يكن يجاريه فيهما أحد . وقد رأى راكستان فوراً أنه لم يكن يتقلّد أي سلاح ، أي أنه كان تحت رحمته . وكان الفارس يعتبر أنه من الجبن أن يستعمل العنف حيال شخص يُظهر مثل ذلك التهذيب ، فردّ تحية الدوق وقبيل أن يجلس في المقعد الذي عيّنه له ، في مواجهته في الجهة الأخرى من الطاولة ، ثم طرق رأساً الموضوع الذي أتى من أجله فقال بكل تهذيب وابتسامته اللطيفة لا تفارق شفتيه .

— أنا أعلم يا سيدي أن الاميرة رولاند دي مونكابيه هي في قصرك في الوقت الحاضر ، ولذلك فقد سمحت لنفسي أن أمثل في حضرتك وألتمس منك أن توافق على أن تواجهني بالأميرة .

وكان يتطلّع مباشرة في وجه سوريانتس ، ولكن هذا لم يطرف له جفن بل نهض وقال بكل بساطة :

— لقد كنت أنتظر زيارتك يا سيدي وأتوقّع أن تطلب مني هذا الطلب ، ولذلك فسأحصل على شرف الذهاب بك الى قرب الآنسة دور بيريف .

فلم يطرف لراكستان جفن بدوره ولكنه مع ذلك كان مدهوشاً في قرارة نفسه للسهولة التي اعترف بها سوريانتس بوجود رولاند في قصره ولما أبداه من الاستعداد الطيّب للذهاب به إليها ، فقال بهدوء :

– أشكرك شكراً جزيلاً على كياستك يا سيدي ، ولكنني ألفت نظرك الى أنك تقول الآنسة دور بيريف ، بينما قلت أنا الأميرة رولاند دي مونكابيه .

– لقد سمعتك جيداً يا سيدي ، ولكن تلك الفتاة ، وقد سألتُها ، لم تستطع أن تقول لي ما إذا كانت رولاند دي مونكابيه كما تؤكد أنت . ولا شك في أنك تملك براهين تجهلها الفتاة ، وفي هذه الحالة أطلب منك عندما تقابلها أن تطلعني على تلك البراهين . وعندما تقنعني بصحتها سأرد فوراً الى رولاند الثروة التي تخصها ، وعندما أتمم هذا الواجب ...

وسكت لحظة ثم انتصب بكبرياء وتابع قائلاً بصوت قاس :

– عندئذ نصفّي حساباتنا يا سيدي .

وسار الى أحد الأبواب ففتحه وتنحّى بتهذيب فمرّ راكستان وخطا خطوتين ... وفجأة خسفت الأرض تحت قدميه فسقط وهو يصيح صيحة دهشة .

ولبث سوريانتس على عتبة الباب يصيخ بسمعه هنيهة . ولما لم يسمع أية ضجة أغلق الباب دون اكتراث وتقلّد خنجره وسيفه وعاد الى قاعة عمله حيث انكب على الكتابة كأن شيئاً لم يحدث .

وبعد مرور ساعتين على ذلك الحادث كانت الشقيقتان تتناقشان بعنف وغضب وكانتا تصيحان معاً قائلتين :

– أين هي ؟!

– ماذا فعلت بها ؟!

وبعد أن تناظرتا بحدّة خلال لحظة قصيرة ، ورأت كل منهما أن دهشة الأخرى حقيقية لا ريب فيها ، انطلقتا معاً راكضتين نحو غرفة ريون دور فوجدتاها خالية . فانفجرتا من جديد قائلتين :

– لقد قتلتِها أيتها الشقية !

– لقد أنقذتِها أيتها الغبية !

وبدأتا تتناقشان فنتج عن ذلك أن كلاً منهما فهمت أن الأخرى ليست مسؤولة عن اختفاء الفتاة . وعندئذ جمعتا جهودهما وبدأتا تبحثان هنا وهناك فلم تجدا شيئاً ، فان ريون دور كانت قد اختفت فعلاً دون أن تعلما كيف ولا من الذي ضرب الضربة .

ومع ذلك فقد كانت تلوح في عيني إحداهما ، دون أن تراها الأخرى ، بارقة انتصار . وكانت هذه تعرف جيداً مصير الفتاة وهي التي ضربت الضربة . ولكن هل هي التي كانت تريد أن تقتل ريون دور أم التي كانت تريد أن تنقذها وتردّ لها ثروتها ؟

وفي اليوم التالي التقى سوريانتس أحد الشقيقتين في رواق مظلم ، ولا ندري كيف عرف الدوق أنها السيدة إذ أنه تقدّم منها دون أي تردّد وقال لها بلهجة ساخرة :

– لقد تلقّيتُ البارحة زيارة السيد دي راكستان .

فذهلت المرأة وصاحت قائلة : راكستان ؟!

فتابع سوريانس باللهجة نفسها :

– إلا أن الرجل الذي رأيته جثة هامدة في سريره كان يتمتع بصحة جيدة .

ولما رأى أن السيدة قد تمالكت نفسها بسرعة وراحت تسأله بنظراتها أضاف يقول دون اكتراث :

– إطمئني يا سيدتي فانني قد استقبلته في قاعتي الصغيرة التي تطلّ على النهر ... تلك القاعة التي كان يجب ، حسب رأيي ، أن تستقبلي فيها الآنسة دور بيريف ... أي أنني أقول لك إن راكستان لن يعود الى الظهور .

وافترقا دون أن يضيفا كلمة واحدة .

وكانا قد تبادلا تلك الكلمات على بعد خطوتين من أحد الأبواب . وما كادا يستديران على أعقابها حتى فُتح ذلك الباب وانزلق منه شبح فسار في الرواق بدوره ...

وكانت الشقيقة الأخرى وقد سمعت ما دار بينهما من الحديث لأنها كانت تسير وهي تغمغم قائلة :

– إذا كان السيد دي راكستان لم يمت من أثر السقطة فأقسم أنكما سوف تريانه يعود الى الظهور .

وكان راكستان قد سقط ، لحسن طالعه العجيب ، على طبقة دلغانية كثيفة فغاب عن الصواب هنية ، ولكنه عندما عاد الى وعيه لاحظ بسرور أنه لم يصب بأي أذى . ولكن موقفه كان حرجاً جداً حتى أن الموت كان أفضل له وقد أخذ يتلمّس في الظلام المكان الذي سقط فيه فعلم أنه في قاع بئر جافة ، فبدأ

يبحث عن منفذ سرّي يغادر بواسطته تلك البئر ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح ، ورأى نفسه محكوماً عليه بالموت جوعاً وعطشاً .

ولكنه لم يفقد رباطة جأشه وكان لديه سيفه وخنجره ويستطيع أن يتخلّص من عذاب الجوع والعطش بطعنة خنجر عندما يريد ، ولذلك فإنه قبع في مكانه ينتظر . ولبث على تلك الحالة يومين خالها قرنين وكان العطش والجوع قد أخذا منه مأخذهما ولم يعد يستطيع أن يتحمّل الى أبعد من ذلك ، فجرّد خنجره وعزم على الانتحار ، وفي تلك اللحظة بالذات فُتح منفذ سرّي في أعماق البئر ودخل منه النور ، فأطلق الفارس صيحة فرح وانقضّ دون تفكير على تلك الفتحة فرّ من خلالها الى الجهة الثانية حيث وجد نفسه في شبه قبو وأمامه إحدى الشقيقتين . فاعتقد في باديء الأمر أنها التي هدّدته في منزل لابواس ، ولكنه سرعان ما تبيّن خطأه إذ أن المرأة أخذته بيده وقادته دون أن تنبس بكلمة . وبعد بضع دقائق وقفت أمام باب صغير ففتحته وتكلّمت عندئذ قائلة :

– إذهب أيها السيد راكستان وليحفظك الله .

وقبل أن يتمكّن من شكرها كانت قد أغلقت الباب واختفت . فنظر الى ما حوله فرأى نفسه ملاصقاً لجدار السور من الخارج وراء قصر اللوفر تماماً وعلى بضعة أمتار من نهر السين ، فانطلق بخطوات واسعة في اتجاه شارع سانت أونوريه .

في مونكابيه

★

قلنا إن السيدتين هرموزا وجوسلين ، عندما لاحظتا اختفاء ريون دور تبادلتا الإتهامات بأن إحداهما قد قتلتها والأخرى قد أنقذتها . و أضفنا أنها اقتنعتا أخيراً بعدم تدخل أيّ منهما في تلك الحادثة ، وأنها ضمتا جهودهما لأجل جلائها فباءتا بالفشل ، وأن إحداهما كانت تبتسم خفية وتلتمع في عينيها بوارق الظفر مما يدلّ على أنها تمكنت من خداع شقيقتها وأنها تعرف تماماً ما آل إليه مصير ريون دور . ولا لزوم للقول بأن تلك المرأة كانت الشخصية الرهيبة الغامضة التي يدعوها سوريانتس وبنياكل بالسيدة والتي كانت تثير خوف الرجلين بشكل يقشعرّ له بدناهما .

وفي اليوم نفسه ، عند هبوط الليل ، كان غاسبار بنياكل ماثلاً أمام السيدة في غرفة مظلمة وكانت تعطيه تعليماتها بصوت خفيض وبتلك اللهجة المقتضبة الآمرة فتقول :

– الملك ؟

– لقد تلطّف جلالته ومنحني الإجازة التي التمستها .

– حسناً ، ها نحن مطمئنّان من تلك الناحية فاذهب فوراً وخذها معك .

– ثقي بي يا مولاتي ولا تتردّدي بل اضربيها فوراً قبل أن تفلت من يدك .

وعرض النذل الحقير خدمته بلامبالاة رهيبة فقال :

– إن الأمر سهل جداً ، وتكفي نقطتان من السمّ الذي أحضرتُه لهذه الغاية فتتخلصين الى الأبد من تلك الفتاة الخطرة...

فهزّت رأسها الجميل سلباً وقالت بلهجة جازمة :

– لا ، ليس الآن . إن كل شيء جاهز في مونكابيه لاستقبالها ، فخذها الى هناك وافعل كل ما تريد لتجعلها تتنازل عن حقها وتختفي ، إفعل كل ما تريد ما عدا قتلها ...

– وإذا استمرّت في عنادها ؟

– عندئذ يكون الوقت قد حان لتلجأ الى ذلك السائل الذي تحمله وتكون هي التي أرادت الموت وليس نحن ، فاذهب يا بنياكل وتصرّف بأفضل ما عندك .

فلم يرفع بنياكل اعتراضاً آخر بل انحنى وقال : حسناً يا سيدتي .

وافترقا .

وعندما أفاقت ريون دور من نومها في اليوم التالي لم تعرف في غرفتها تلك الغرفة التي كانت سجينة فيها في قصر سوريانتس، وكانت تحسّ بثقل في رأسها ولهيب في حلقها . وكانت أول حركة قامت بها هي أنها بحثت بأنظارها في ما حولها عن إناء الماء لتشرب فلم ترَ شيئاً ، فنسيت عطشها موقتاً لتتساءل عن المكان الذي يضمّها وعما إذا كانت لا تزال سجينة .

وقد نهضت وسارت بخطوات مترنّحة نحو الباب فعجبت عجباً شديداً لأنها رأته غير مقفل ، وعندئذٍ توجّهت الى النافذة ففتحتها وعندما وقع نظرها على المشهد الذي بدا من خلالها عرفت

المكان فوراً وصاحت قائلة :

– مونكابيه ! إنني في مونكابيه !

وأضافت بصوت خفيض يهزّه التأثر :

– في بيتي ! أنا في بيتي !

وفهمت عندئذٍ ما حصل لها فإنهم دسوا لها مخدراً في طعامها أو شرابها في قصر سوريانتس واغتنموا فرصة غيابها عن الرشد فنقلوها في عربة الى البيت الذي وُلدت فيه . وقد شعرت بتحسّن حالتها بعد أن تنشقت هواء الريف النقيّ المنعش .

واطمأنّت نفسها فوراً لأنها تأكدت من أنهم لا يريدون قتلها وإلا لكانوا تخلصوا منها أثناء نومها أو دسوا لها السمّ بدل المخدّر . ولما زال قلقها من تلك الناحية أرادت أن تعلم ما إذا كانت حرّة أو أنهم أبدلوا سجنها فقط . فخرجت من الباب وطافت طابقاً مؤلفاً من غرف عديدة فلم تجد باباً واحداً مقفلاً ، وكان السكون والوحشة مخيمين تماماً ، فنادت بأعلى صوتها ، ولكن أحداً لم يجبها ، فبدأت تبحث عن بعض المؤن لتأكل فلم تجد كسرة خبز واحدة حتى ولا نقطة ماء .

ولم تكن النوافذ التي فتحتها مشبكة بالحديد، ولكن الطابق كان مرتفعاً جداً والقفز منه معناه الموت الذريع .

فنزلت الدرج الكبير الذي قدّمها والدها من أعلاه منذ اثنتي عشرة سنة ، الى النبلاء المجتمعين في البهو الكبير وقطعت الدهليز ونزلت الى الطابق الأرضي .

وعندئذٍ اطّلعت على ما تريده فوراً ، فإن الأبواب في ذلك

الطابق كانت مقفلة جيداً ولم تكن المفاتيح فيها كما هي الحال في الأبواب الأخرى .

فذهبت الى النوافذ فرأتها كلها مشبّكة بالحديد وكانت قد وصلت عندئذٍ الى قاعة صغيرة فرأت على طول الجدران المزينة بلوحات تمثّل مشاهد صيد، مقاعد جلدية عالية الظهر وطاولات مكسوة بالجلد هي أيضاً . وكان لتلك القاعة بابان ونافذة مشبّكة بالحديد ، فوقفت أمام النافذة وفكّرت قائلة في نفسها :

« عندما كنت هنا لم تكن النوافذ مشبكة بالحديد ، فإنهم قد شبّكوها بعد ذلك إذن ، ولكن لماذا شبّكوها ؟ »

وأعادت ذلك السؤال على نفسها بصوت مرتفع تقريباً ، وعندئذ سمعت وراءها صوتاً غريباً يقول :

– إنهم شبّكوها لأجلك .

وكان المفروض أن تحدث تلك الكلمات التي قيلت فجأةً خوفاً شديداً في نفس الفتاة ، ولكن ما حصل كان العكس تماماً فإن ريون دور قد سُرّت كثيراً لسماعها أخيراً صوت إنسان في ذلك السكون الموحش، فاستدارت بسرعة لترى الشخص الذي تكلم ... فذهلت ذهولاً شديداً لأنها لم ترَ أحداً في القاعة.

وفي تلك اللحظة عاد الصوت نفسه يقول :

– لقد شبّكوها لأجلك فإنك لن تخرجي حية من هنا .

فصرخت ريون دور هذه المرة صرخة هائلة وانطلقت تركض بكل قواها وقد كاد الرعب يقضي عليها .

ولكنها لم تذهب بعيداً فما كادت تقطع قاعتين أو ثلاثاً على

على تلك الحالة حتى سقطت مغمياً عليها .

وفي تلك اللحظة ظهر النذل الحقير غاسبار بنياكل ولم يكن يضع قناعه المعهود ، فبدا وجهه مخيفاً هائلاً وقد اقترب من الفتاة وهو يقول : ألعلّ الرعب قد قتلها؟

وأراد أن يحملها الى سريرها حيث يقدّم لها الإسعافات اللازمة ويعيدها الى رشدها ، ولكنه فكّر لحظة ثم قال :

– إذا أخذتها الى غرفتها وقدّمت لها الإسعافات اللازمة فسوف تعتقد عندما تعود الى رشدها أنها كانت تحت تأثير حلم مرعب .

فتركها على الحضيض وأضاف قائلاً : سوف تعود الى رشدها بعد قليل فلنتركها حيث هي لترى هكذا أنها لم تكن تحلم .

وأردف يقول بقسوة : إن هذا الدرس لن يضيع ! وأراهن على أنها لن تقترب بعد الآن من الجناح الذي خصصت به نفسي ، فإنني لا أريد أن تأتي الى هنا لتزعجني ، وكذلك الى مركز المراقبة الذي اخترته على السطح !

وعاد على أعقابه بكل هدوء الى الغرفة التي خرج منها وكان متأكداً من أن ريون دور لن تضع قدميها في تلك الناحية فلم يزعج نفسه بدفع المزلاج أو إقفال الباب ، وكان في ذلك الباب ثقب وُضع فيه ما يشبه البوق وهو الذي سمعت الفتاة الصوت من خلاله ، فنزع بنياكل ذلك البوق وسدّ الثقب بمعجون كان قد أعدّه سلفاً ثم اجتاز غرفتين ودخل الى ثالثة وكانت مطبخاً صغيراً مجهّزاً بجميع معدّات الطبخ ، وكان على طاولة كبيرة

لحوم وبقول ، وكانت النار مشتعلة ، فشمّر بنياكل عن ساعديه ووضع على وسطه مئزراً جديداً عقده وراء ظهره ثم بدأ يمارس مهنة الطبخ بمهارة طبّاخ قدير .

في مونكابيه أيضاً

*

عادت ريون دور الى رشدها فاعتقدت في بادىء الأمر أنها تفيق من حلم مزعج . ولكن الذاكرة عادت إليها بسرعة فارتجفت وخُيّل لها أنها لا تزال تسمع الصوت الذي أرعبها .

فنهضت وابتعدت بأسرع ما تستطيع عن تلك الجهة من القصر التي بدت لها مسكونة بالأشباح إذ أن الخوف الذي لا يزال يشلّ قواها كان يجسّم الأشياء فيشوّش تفكيرها .

وعادت بالغريزة الى الغرفة التي استيقظت فيها من النوم فدفعت المزلاج وانطرحت على السرير حيث لبثت فترة طويلة لا تستطيع التفكير .

وعاد الاطمئنان الى نفسها شيئاً فشيئاً فقررت أن لا تعود الى تلك الجهة من القصر حيث سمعت الصوت الرهيب ، وكان هذا ما يريده بنياكل .

ومضت الساعات دون أن تشعر ، وكانت الساعة الثانية بعد الظهر عندما أحسّت بالجوع فنهضت وخرجت من الغرفة وعاودت البحث عن الطعام وإذا بها تقول فجأة :

– يا لي من حمقاء ! فإذا كان يوجد طعام وشراب في القصر فيجب أن أبحث في المطبخ دون سواه .

وفكـّرت هنيهة وأضافت تقول :

– إن المطبخ تحت ، في الجهة المقابلة للتي سمعت فيها الصوت ، وأنا أتذكـّر خزانة الطعام الكبيرة حيث تحفظ المؤن وهي موضوعة على يمين الباب للداخل .

وقـد قالت ذلك بصوت مرتفع فلبثت لحظة مدهوشة ثم أعادت آلياً قولها :

– أنا أتذكـّر !... أنا أتذكـّر !... إذن فيكون هنا بيتي حقاً وأكون أنا في الواقع الأميرة رولاند دي مونكابيه !

ونزلت الى الطابق الأرضي فوجدت المطبخ في الناحية التي حدّدتها وكان الباب يُفتح الى الداخل فوقفت على العتبة ومرّت بيدها على جبينها وقالت: إن لم يكونوا قد غيّروا ترتيب المبطخ فإن الخزانة الكبيرة يجب أن تكون خلف هذا الباب .

وقرّرت الدخول ، وسرعان ما صاحت تقول بفرح :

– الخزانة !... الخزانة الكبيرة ! إنها هنا ! المفاتيح !... ها هي ! كل شيء في مكانه ...

ولبثت برهة ساهمة جامدة أمام الخزانة الكبيرة وكانت تتأملها بتأمل عميق . وفجأة فـُتحت في ذاكرتها خلية جديدة فقالت :

– هنا في هذا الدرج الى اليسار يجب أن يوجد حرف « ر » كنت قـد حفرته بسكـّين . « ر » يعني رولاند ... أي أنه درجي أنا !

ومدّت يداً مرتجفة نحو الدرج وفتحته وكان حرف « الراء » موجوداً في المكان الذي حدّدته ، فغمغمت تقول بغبطة :

– إنها الحقيقة !... إنها الحقيقة !... هذا هو بيتي !... بيتي حيث وُلدت وعاش أجدادي وماتت والدتي !.. إنه هنا ، هنا .. وأنا ، أنا هي الأميرة رولاند دي مونكابيه !

وعادت تتابع أبحاثها ولكنها لم تكن تبحث عن الذكريات هذه المرة بل عن الطعام والشراب . بيد أنها لم تجد شيئاً وكان الجوع والعطش ، اللذان نسيتهما لحظةً ، قـد استبدّا بها الآن استبداداً طاغياً وخاصة العطش فإنه كان يعذبها عذاباً شديداً .

وكما أن الجوع قد نبّه ذاكرتها الى الخزانة الكبيرة والمطبخ ، فإن العطش فتح بدوره خلية جديدة أيضاً في ذاكرتها فوقفت أمام باب صغير وأطبقت عينيها وفكـّرت لحظة وقالت ساهمة :

– يوجد رواق خلف هذا الباب ، وفي منتصف ذلك الرواق الى اليسار درج يؤدي الى الأقبية ، وفي نهاية الرواق باب آخر يفتح على فناء صغير حيث توجد بئر ماء كنت أحبّ دائماً أن أدور حولها ... وفي كل مرة كانوا يرونني قربها كنت أعاقب . فلترَ إذا كنت مصيبة .

وفتحت عينيها فرأت الأماكن كما وصفتها تماماً . ولكن الباب الذي في نهاية الرواق كان مقفلاً ، فأرادت أن تتأكـّد مما إذا كان يوجـد حقاً وراءه فناء صغير وبئر ، ولما كان في أعلى ذلك الباب نافذة صغيرة مشبّكة بالحديد فإنها سحبت طاولة وألصقتها بالباب ثم أتت بمقعد وضعته فوق الطاولة واستطاعت

هكذا أن تبلغ النافذة الصغيرة ، فاستنتجت بفرح كبير أنها لم تكن مخطئة إذ أن الفناء كان موجوداً حقاً وكذلك البئر .

ولكن تلك الاكتشافات كلها لم تعطها ، لسوء الحظّ ، ما تأكله أو تشربه . فتركت المطبخ وعادت تتابع التفتيش في أماكن أخرى ، فكانت تدخل جميع القاعات وتفتش جميع الخزائن ولكن جهودها ذهبت أدراج الرياح .

وبعد أن حطّمها التعب عادت تأخذ طريق الغرفة التي استيقظت فيها ، والتي قرّرت أن تجعلها غرفتها الخاصة ، وقد عنّت لها في الطريق لأول مرة فكرة ارتجفت لها وقالت بصوت مرتفع :

— أتراهم يريدون أن يدعوني أموت جوعاً وعطشاً ؟... إن هذا فظيع !...

وكانت تجرّ رجليها جرّاً ، فإن الجوع والعطش كانا قد حطّما قواها وكانت تأمل في سرعة الوصول الى غرفتها حيث يمكنها أن تتمدّد وربما تغفو . وكان عليها أن تجتاز أيضاً ثلاث غرف لتبلغ غرفتها ، وقد دخلت إحدى تلك الغرف فلبثت مسمّرة في مكانها دهشة وسروراً لأنها وجدت فيها مائدة حوت كل ما لذّ وطاب من المآكل والشرب .

فلم تلمس الطعام فوراً بل فكّرت قائلة في نفسها :

« إن هذه الطاولة لم تكن موجودة هنا منذ قليل ، وإذن فيوجد شخص هنا معي . شخص لا أراه ولكنه يراني هو وربما يتبعني خطوة خطوة . »

وهزّت رأسها الجميل وألقت الى ما حولها نظرة شكّ فلم تكتشف ما يرعب ، فأخذت قطعة من اللحم وأدنتها من أنفها فانبعثت منها رائحة شهية تغري أكثر الناس زهداً بالأكل ، فلمستها بطرف إصبعها كأنما كانت تخشى أن تختفي ... ولكنها لم تختفِ ... كما أن ريون دور لم تكن حالمة ، فوضعت الصحن أمامها وأخذت قطعة من الخبز فكسرتها وكانت بدورها خبزاً حقيقياً لم يتبخّر من بين أصابعها...

ولكنها مع ذلك لم ترفع الى فمها لا قطعة اللحمة ولا قطعة الخبز بل قالت في نفسها : « من يدري ، فربما يكون هذا الطعام مسمّماً ! »

وقد أقعدها الخوف عن الأكل ، ولكن الجوع والعطش اشتدّا بها لدى رؤية الطعام والشراب فلم تعد تستطيع المقاومة ، فانقضّت على الفاكهة وأكلت منها جزءاً كبيراً ، ثم تشجعت فأكلت قطعة كبيرة من الخبز وشربت قدحين من الماء .

ونهضت وقد عادت إليها قواها لتذهب الى غرفتها . وفي الطريق عنّت لها فكرة رأتها صواباً فعادت على أعقابها وأخذت وعاء الماء وبعض الثمار وما تبقى من الخبز وحملتها معها الى غرفتها حيث دفعت المزلاج وتمدّدت في سريرها ونامت .

وعندما استيقظت في صباح اليوم التالي عجبت عجباً شديداً لأنها لا تزال حيّة ولا تحسّ أدنى انزعاج صحي ، فأسفت عندئذ على أنها لم تأكل أكثر مما أكلت ، لا سيما وأنها كانت تجهل تماماً إذا كانوا سيُحضرون لها لتأكل بعد الآن . ولكنها لحسن

الحظ كانت قد احتاطت للأمر وأحضرت معها ماءً وخبزاً وثماراً ، وكان من الطبيعي أن تعاين فوراً ما أحضرته فالتفتت نحو الطاولة الصغيرة التي وضعت عليها ما جاءت به ، فلم ترَ شيئاً فإن الماء والخبز والثمار لم تكن موجودة .

فقفزت فوراً من سريرها ونظرت في بادىء الأمر الى ما حولها لتتأكد من أنها لم تخطىء ، وأنها لم تضع تلك المؤن على طاولة أخرى ، ولكنها لم ترَ شيئاً . فذهبت الى الباب فرأت المزلاج لا يزال مدفوعاً كما تركته .

ولم تعتقد بالخوارق والأشباح هذه المرة بل فكّرت في وجود منفذ سرّي يؤدي الى الغرفة ، فبدأت تبحث عنه بصبر طيلة ساعتين . ولما لم تجد فائدة من جهودها كفّت عن البحث وخرجت من الغرفة وأخذت تطوف من جديد علّها تجد في بعض الغرف طاولة كالتي رأتها البارحة . وكانت عازمة هذه المرة على أن تأكل وتشرب فوق ما تستطيع ، ولكنها مع الأسف لم تجد شيئاً .

وعندئذ أخذت تدخل الغرف على أمل أن تجد فيها ما يوقظ ذاكرتها أكثر . وقد صحّ ما توقّعته إذ أنها ما كادت تدخل إحدى الغرف حتى قالت بصوت مرتفع :

– هذه كانت قاعة والدي الخاصة .

ولم تكن مخطئة ، فإن تلك القاعة كانت حقاً قاعة الأمير دي مونكابيه الخاصة التي كان يقضي فيها معظم أوقاته .

ولمحت عيناها خزانة قرب جدار القاعة فتعلقتا بها ولم تعودا

تتحولان عنها وقالت في نفسها بسرور :

« لقد وجدتها ! ... وأنا أعلم الآن ! ... »

ولم تنسَ أن أحدهم دخل غرفتها أثناء رقادها وأنه من الممكن أن يكون يُراقبها الآن من حيث لا تراه ، فذهبت الى جميع الأبواب وفتحتها فجأة ثم سارت في الأروقة المختلفة التي تؤدي الى القاعة وأخذت جميع الاحتياطات لتتأكد من أن أحداً لا يراقبها. ولما تأكدت أخيراً من أنها وحدها عادت الى تلك الخزانة .

وكانت تحفة رائعة من تحف النجارة وقد حُفر عليها من البدائع ما يدهش النظر . فأخذت ريون دور تتأملها عن كثب ولم تكن تكتفي بالنظر بل كانت تلمس بلطف الأزهار والثمار وباقي المشاهد المحفورة فيها . ولبثت على تلك الحالة وقتاً طويلاً قد يكون ثلاث ساعات... ولكنها عندما خرجت من القاعة كانت راضية مغتبطة إذ أنها نجحت دون شك في تمزيق جزء كبير من الغشاوة المسدولة على ذاكرتها وكانت تفكّر وتأمل في أن تتمكن من تمزيق تلك الغشاوة كلها في وقت قريب .

وقد مرّ ذلك اليوم الثاني على وجودها في مونكابيه دون أن تشعر به لانهاكها في الأبحاث . ومن المرجّح أنه لو فتح لها بنيا كل في تلك اللحظة أبواب القصر لتخرج لـمَا غادرت القصر قبل أن تعود الذاكرة إليها تماماً . وكان اهتمامها ذاك خيراً لها بحدّ ذاته إذ أنه أنساها الظروف الحرجة التي كانت فيها .

ولكنها لم تكن تنسى تماماً تلك الظروف ، فإن الجوع والعطش كانا يتكفّلان بتذكيرها بها ، وعندئذ كانت تعود الى

البحث عن المائدة الصغيرة التي رأتها البارحة . وكانت تذهب في معظم الأحيان الى الغرفة التي وجدتها فيها، ولكن ذلك لم يكن يمنعها عن التفتيش في أماكن أخرى .

وكان النهار قد انصرم وحل المساء عندما وجدت في ناحية من القصر بعيدة جداً عن المكان الذي وجدت فيه المائدة ، طاولة صغيرة ليس عليها مع الأسف سوى إناء مملوء الى نصفه بالماء وقطعة صغيرة من الخبز .

ففهمت أن الشخص الذي يخدمها يريد أن يجعلها تعلم أنه لن يقدّم لها أكثر من قطعة خبز وكأس ماء ما دامت قد اكتفت بذلك يوم أمس . ولكنها لم تبالِ بعد أن تأكّدت من أنهم لن يدعوها تموت جوعاً وعطشاً ، فأخذت قطعة الخبز والتهمتها بقابلية كبيرة ، وشربت وراءها قدحَين من الماء ، ثم توجّهت نحو غرفتها وهي تفكّر بأنها لن تقاوم طويلاً فيما إذا لبثت لا تأكل سوى تلك الوجبة الهزيلة عن يوم كامل . ولكنها كانت تقول في نفسها بثقة واقتناع :

« أنا متأكّدة من أن السيد دي راكستان سوف يعثر عليّ ... وسأبدأ منذ الغد بمراقبة قدومه من أعلى النوافذ إذ أنه لن يتأخّر عن المجيء ليرود في جوار القصر بحثاً عني. إنه الوحيد الذي يستطيع أن ينقذني ، وأنا واثقة به ، وسأتبعه الى حيث يريد لأنه سبق له أن أنقذني في ظروف مماثلة ودافع بإخلاص عن شرفي ضد أعدائي الذين يريدون موتي وتلويث اسمي ... آه يا فارسي النبيل ! تعال وأنقذني ! أتوسل إليك أن تفعل !

وليقنعك الحبّ الطاهر الذي أكنّه لك بأن خدماتك وإخلاصك وشجاعتك ستنال يوماً مكافأتها في اجتماعنا الأبديّ الذي لا تنفصم عراه ! »

تم الجزء الأول من هذه القصة

ويليه الجزء الثاني والأخير وهو بعنوان

« جوسلين »